خُلاَصَة عِلْم النفس

تأليف

أحمد فؤاد الأهواني

الكتاب: خُلاَصَة عِلْم النفس

الكاتب: أحمد فؤاد الأهواني

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الأهواني ، أحمد فؤاد
خُلاَصَة عِلْم النفس/ أحمد فؤاد الأهواني
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٠٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٢٦٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٢٥٥ / ٢٠٢١

خُلَاصَة عِلْم النفس

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

كلمة المؤلف

لقد جرى الناس– من قديم– أن يخضعوا للحياة، تسيرهم كيف شاء لها الهوى، وتطغى عليهم بسيلها الجارف من ظروف قاسية، وأرزاء فادحة، حتى فطن الناس أن لهم إرادة وحرية، وفكرة ثاقبة علوية، ومشاعر تتأثر بشتى الأحاسيس، ومختلف الانفعالات، فنهضوا يشقون طريقهم في الحياة الوعرة الصعبة المسالك، المتشعبة النواحي، المتضاربة الأغراض، المتعارضة الغايات.

والحياة التي تقصدها: هي حياة الإنسان في صلته بالمجتمع الذي يعيش فيه، لأنه لا يعيش منفردًا، ولا يمكن أن يعيش إلا في مجتمع يتصل أفراده ويتباعدون، وتتضارب مصالحهم، وتختلف غاياتهم، ويخرجون من هذه المعركة الحامية بما ينشدونه في هذا العالم: وهو حفظ الحياة أولًا، ثم السعادة ثانية.

ولكي تصل إلى الاحتفاظ بكيانك، وتوفير السعادة في الحياة، يجب أن تدرس الميدان الذي تنزل إليه لتحقق مطالبك، وتنجح في أغراضك. وهذا الميدان هو: أفراد المجتمع الذين ستحتك بهم في أعمالك، وتختلف وإياهم في أغراضك، وتحتاج إليهم لمعونتك والعطف عليك، ونسخرهم في تنفيذ غاياتك، ويستغلونك في تنفيذ أغراضهم.

ولن تصل إلى هذا كله إلا بالضوء تلقيه على سلوك الناس، حتى تتعرف سبلهم، وتدرك أغراضهم، وتلائم بين نفسك وبينهم، وتوفق إلى الطموح نحو المثل الأعلى الذي تنشده في الحياة. والمصباح الذي ينير حجب النفوس، ويزيل ما يغشيها من ظلام كثيف هو علم النفس الحديث.

***

هذا العلم الذي يتصل بدرس سلوك الإنسان، له فائدة كبيرة في إيضاح هذا السلوك، وبيان القواعد التي تجرى عليها. ونستطيع بهذه المناسبة أن نضرب في

فائدته بعض الأمثال، لا على سبيل الحصر، بل على سبيل المثال.

وقد عرف الغربيون ما لهذا العلم من قيمة، فانبثت الدراسات النفسية في كل فرع من فروع الحياة، وفي كل ناحية من نواحي العلوم، وأصبحت الحياة العملية نستمد دعائمها التي تقوم عليها، وأسسها التي لا تنهض إلا بها من الأبحاث النفسية. فأصبحت التجارة مثلًا بجميع فروعها، الإنتاج من ناحية، والاستهلاك من ناحية أخرى، والوساطة بين المنتج والمستهلك من ناحية ثالثة، لا تقوم إلا على الأبحاث النفسية؛ وإنك لتجد المصنع القائم في اليابان يدرس نفسية الشعب في مصر– على شدة ما بين البلدين من بعد– حتى ينتج له ما يلائم ميوله، ويتفق ورغباته.

وتجد الإعلان في أمريكا، والأزياء في باريس، ومعاهد التمثيل والجمال، ومؤسسات الأمراض العصبية، بل فن إصدار الصحف، وإخراج الكتب، بل أكثر من هذا المحامي الذي يدافع عن موكله، والخطيب الذي يخطب الجماهير، والطبيب الذي يعالج مرضاه، والمدرس الذي يلقن الطلاب، والوالد الذي يربي ابنه...... كلهم لا يؤدون أعمالهم، ولا يقومون بهذه المهام إلا على أساس من علم النفس.

***

إذا كان هذا العلم من الخطر كما ذكرنا، لماذا تأخر الناس في دراسته؟ الحقيقة أن العلم قديم، وقف جنبًا إلى جنب مع الفلسفة، بل كان فرعًا منها.

والحكماء والمفكرين شذرات متناثرة تصف أحوال النفس في كتبهم المختلفة، ولكن استقلال العلم لا يرجع إلا إلى زمن قريب.

ولأصحاب الفطر السليمة، والنظر النافذ، والبديهة الحاضرة، والعارضة القوية، والإلهام الطبيعي، نظرة سديدة إلى النفس الإنسانية، يستشفون من ورائها بالسليقة الطبائع المختلفة التي يشترك فيها الناس، وتلك التي يتفاوتون فيها، ويدركون منها شتى الميول والرغبات والنزوات والحالات التي تتنازع النفس الإنسانية. ونستطيع أن نقول إن كل شخص من هذه الناحية "عارف" بالنفس مع تفاوت بين الكثرة والقلة،

وبين الصحة والخطأ، ولكن ليس كل "عارف" بالنفس "عالما" بها؛ فهذه المعرفة الشائعة، معرفة عملية أولية، يكتنفها النقص، ويتخللها الغموض والإبهام في كثير من الأحايين. ولا بد لنا إذا شئنا أن نساير الحضارة الحديثة، وأن نتابع تقدم العلوم، أن تخطو بعلم النفس من مرحلة الظن والتخمين، إلى ميدان الدقة واليقين.

يشبه أفلاطون النفس الإنسانية بعربة يقودها سائق ويجرها جوادان، أحدهما كريم مطيع والآخر شرير مشاكس، أما السائق وهو "العقل" فهو فيلسوف وصديق المعرفة، وهو الذي يدبر ويسوس الأمور، أما الجواد الكريم فهو "القلب" الذي تصدر عنه جميع الأحاسيس الطيبة كالشجاعة والرضة والحلم. أما الجواد اللئيم فهو "الشهوة" التي تنشد المال والزينة والرغبات الدنيئة في الحياة. ويوازي هذه القوى الثلاث طبقات ثلاث في المجتمع، فطبقة الحكام يمثلها العقل، وطبقة الجند يمثلها القلب، وطبقة العامة والصناع والفلاحين تمثلها الشهوة. هذا هو رأي أفلاطون، أجملناه لتبسط رأيًا من آراء أنصار القديم، وهو على ما فيه من جمال وخيال، لا يعتد به في علم النفس ولا يقام له وزن، لأنه يبحث النفس من الناحية الأخلاقية، لا من الناحية النفسانية، فهو يبين رفعة القلب وخسة الشهوة، وهذه الأمور المعيارية تبحث في باب علم الأخلاق.

***

ولم يستطع هذا العلم أن يتخلص من ربقة المعتقدات الميتافيزيقية التي وقرت في أذهان الناس وسيطرت على الأفهام قرونًا طويلة من الزمن.

وأول هذه المعتقدات هي القول بإثبات "النفس أو الروح" الإنسانية، التي لا يعرف مقرها أو موضعها من الجسم، ولا نستطيع أن تثبت وجودها أو عدم وجودها بالبحث العلمي. فلما نبذ العلماء هذه المعتقدات– ولم يتم لهم ذلك الأمر إلا حديثًا– تشعب الباحثون في كل منحى يزيحون الستار عن مجاهل الحالات النفسانية ويحاولون أن يقيموا العلم على قواعد صحيحة.

ولكن العلماء في الممالك المختلفة– وهم لا يزالوا في بداية البحث– نظروا إلى علم النفس من جهات مختلفة، فاختلفت دراساتهم تبعًا للجهات التي سلكوها، حتى ظن كثير من الناس أن هذا العلم لا نصيب له من الصحة، وتعصب كل فريق لوجهة نظره، وانقسم الباحثون إلى معسكرات كثيرة لكل منها أشياع وأنصار. ونحن لا يروعنا هذا الخلاف العلمي، قد اختلف العلماء في بحث كل علم جديد، ولا نستطيع أن نعد هذا الخلاف دليلًا على فساد العلم، بل غاية الأمر أنها وجهات من النظر كل نظرة منها صحيحة من الجانب الذي يقف الباحث منه، وستلتقي هذه الجهات بعد التمحيص والاستقراء، وحينئذ يستقيم العلم صحيحًا ويخرج كاملًا دقيقًا. وقد أخذنا في هذا الكتاب بأحدث النظريات وأدق الدراسات، ولم نعرض لما بين العملاء من خلاف، حتى لايتيه طالب العلم في هذه المناحي المتشعبة، ولكن هذه الخلاصة التي أقدمها للقراء، والتي أستطيع أن أعدها كاملة شاملة لجميع دقائق العلم، أقصد منها أن تكون طريقًا يفتح أبواب العلم للقارئين، وباعثًا إلى حبه، ودافعًا إلى استكمال درسه.

المقدمة

من العلوم الحديثة التي نالت شهرة بعيدة، وقيمة كبيرة، وأصبح لها شأن في الحياة، ومكان ممتاز بين العلوم: علم النفس. وهو حديث لأنه لم يتحرر من قيود الفلسفة التي كان عبئًا عليها وفرعًا منها، مكتسبًا صبغة علية بحتة، ورداء وضعيًا[1] يجعلنا نسطره في قائمة العلوم الطبيعة والكيمياء... إلا قريبًا. وهو علم يبحث في الحياة النفسية للإنسان، لهذا نجد له علاقة بكل ما يحمله الإنسان. وليس أحب إلى الإنسان وأولى باهتمامه من دراسته لنفسه، ومن هنا نشأت أهميته والحاجة الماسة إلى تعلمه. ولما كان علم النفس هو العلم الذي يبحث في نفسك ويملك من أنت، فإنك ولا شك قد تعجب كيف تجهل نفسك التي هي أشد الأشياء اتصالًا بك ويزداد بك العجب، كيف يمهد لك سبيل هذه المعرفة شخص آخر، وأنت أدرى الناس بنفسك؟!

والجواب على هذا يسير، إذ أن الإنسان لا يجذب نظره إلا الشيء الغريب النابي عن مجرى حياته وعاداته ، ولذا كانت الأشياء التي وجه الإنسان إليها عقله وتوفر على التفكير فيها هي: الشمس والقمر والنجوم والكواكب التي هي أبعد الأشياء عنا؛ وقد ظل الإنسان يبحث في العالم الخارجي، في الرياضيات ومظاهر النبات، وفي عجائب الحيوان، صادفًا عن النظر إلى داخل نفسه حتى فطن سقراط إلى ضرورة دراسة النفس الإنسانية أولًا، لأنها أجدر وأولى من دراسة العالم الخارجي، ولذا قيل: إن سقراط هو أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أي أول من حول اتجاه أفكار الناس من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي.

لمحة من تاريخ العلم:

قلنا إن علم النفس كان فرعًا من الفلسفة، والواقع أن العلم والفلسفة ظلا زمانًا

---

[1] Positive

طويلًا وفي علوم كثيرة غير علم النفس أيضًا– مختلطين لا يمكن التمييز بينهما، لأن الذي يميز العلم إنما هو تمحيص المظاهر أولًا، والروح التجريبية ثانيًا، وخضوع النظريات الحقائق ثالثًا، بينما الفلسفة تقنع بالنظر العقلي الذي يستمد تماسكه من التسلسل المنطق، فتقتصر على المسائل التي لا يمكن إخضاعها التجربة والتحقيق.

وقد بحث اليونانيون في علم النفس كما بحثوا في غيره من العلوم، ولكنهم واجهوا العالم في أبحاثهم بنظرة عملية تارة، وبنظرة فلسفية تارة أخرى، دون أن يفصلوا بين النظرتين، حتى جاء "أرسطو" الذي وجه عنايته نحو عالم الطبيعة يلاحظ ظواهرها، ويجمع حقائقها، فكانت الخطوة الأولى الجريئة نحو فصل العلم عن الفلسفة إلى حد ما. هذا وقد جمع أرسطو كثيرًا من الحقائق في علم النفس اتخذها علم النفس الحديث أساسًا له في بحثه، ولا يزال يعتمد على بعضها في كثير من الأحوال. ثم هبت على العالم أجمع بعد ذلك ريح من الركود العلمي لا يهمنا الآن بحث أسبابه، إلى أن كان عصر النهضة، نهضة الفكر، فيبزغ نجم ديكارت في سماء ذلك العصر، وسجل كثيرًا من الملاحظات العلمية الخاصة بالعمليات العقلية. واستمرت هذه الحركة عند المدرسة الإنجليزية (هوبس، ولوك، وهيوم، وهاملتون، وستيوارت ميل... إلخ) في صورة أخرى، في صورة تجريبية؛ ولكنهم رجعوا إلى البحث الفلسفي مرة أخرى فيما يختص بعلم النفس، فلم تصبح لآرائهم القيمة العلمية.

هذا وقد ظل الكثيرون يحاربون إخراج علم النفس من الفلسفة وعلى رأسهم "أوجست كونت"[1] الذي أنكر وجود علم النفس علمًا قائمًا بذاته، مهاجمًا بهذا الإنكار طريقة التأمل الباطني– وهي المنهج الأول الذي يعتمد عليه علم النفس– مهاجمة عنيفة، ولكن– رغم كل ذلك– أثبت العلم وجوده، إذ ثمة موضوع خاص له ومنهج مستقل لدراسته، كما سيأتي بعد.

---

(1) Auguste Comte.

الفصل الأول

موضوع علم النفس[1]

لم يصبح علم النفس علمًا وضعيًا إلا من عهد قريب، ذلك أنه كان فرعًا الفلسفة، فقد كان الباحثون في علم النفس يضعون نصب أعينهم البحث عن ماهية النفس أو الروح. ولما كانت هذه الدراسة داخلة في مباحث ما وراء الطبيعة، لم يصل الباحثون إلى معرفة وضعية جديرة بالاعتماد عليها. ولما كانت مهمة القدماء في البحث عن النفس أو الروح، قد سمي العمل الذي يعرض لهذا البحث علم النفس **Psychologie**، وهذه كلمة تمتد أصولها إلى كلمتين إغريقيتين **Psyche** ومعناها النفس، و **Logos** ومعناها درس. ثم انصرف العلماء إلى ناحية أخرى من البحث أكثر إنتاجًا، وأدعى إلى الوصول إلى نتائج صحيحة، تلك هي البحث عن مظاهر النفس، لأن النفس أو الروح عند المثبتين لها شيء لا ندركه ولا تمسه ولا نحسه، قال الله سبحانه وتعالى: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}.

فإذا كنا قد احتفظنا بهذه التسمية القديمة فهو احتفاظ غير دقيق، ولكننا تعودنا ذلك فلا سبيل إلى الرجوع عنه، وذلك مثل إطلاقنا اسم جزر الهند الغربية خطأ على الجزر الواقعة في شرق أمريكا.

وقد ظل علم النفس متصلًا اتصالًا وثيقًا بالفلسفة بل فرعًا منها. ولم تبدأ دراسة هذا العلم دراسة منفصلة مميزة عن غيرها من السموم إلا في القرن الثامن عشر حيث قام بعض العلماء على التتابع يحاولون بحث المسائل النفسية بطريقة علمية.

وظل تاريخ علم النفس حتى القرن التاسع عشر خاضعًا لحركتين مختلفتين وتيارين

---

[1] L'objet de la Psychologie

متباعدين، يقتربان تارة، ويتباعدان في تعارض تارة أخرى، وهما:

(١) محاولة العلم أن يتخلص من الفلسفة، وهذه المحاولة قد تذهب إلى حد إخضاع علم النفس إلى علم وظائف الأعضاء.

(٢) محاولة البحث عن ميدان علم النفس وعن طرق البحث فيه ليصبح علمًا مستقلًا.

وقد أنشئت في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأمريكا المجلات العلمية الخاصة بعلم النفس، وذلك في أواخر القرن التاسع عشر، وفي هذا دليل على استقلال العلم، وعلى الاعتراف بكيانه الخاص.

ولكن أصوات المعارضة ارتفعت من جديد، لا لتنكر على العلم وجوده، ولكن لتحتج على وضع علم النفس، وهو علم العقل، في مكان واحد من العلوم الطبيعية. وعاد علم النفس على أعقابه في حركتين:

(١) الحركة الأولى تنادي بأهمية الاتصال المباشر[١] بالحالات النفسية وعلى رأس هذه الحركة "برجسون" وقد تأثر "وليم جيمس" آراء برجسون وأصبح يقول بمبادئه؛ وهي حركة في مجموعها ميتافيزيقية.

(٢) الحركة الثانية اجتماعية، وهي تنادي بإخضاع الدراسة النفسية المجتمع وعلى رأسها "دور كيم".

وظلت سفينة العلم فيما بين الحركتين، تجري حاملة راية النصر، وسنرى في النهاية لمن يعقد الظفر.

ولا يجب أن نخشى هذه الاتجاهات المختلفة، وأن يهدم تعارضها أساس العلم، فإن هي في الواقع إلا وجهات نظر لموضوع واحد، تنير مسالكه المختلفة وتلقي الضوء على فروعه المتشبعة.

Intuition(١)

ميدان علم النفس[1]:

إذا شئنا أن نضع تعريفا لعلم النفس فإننا نجد ذلك من الصعوبة بمكان، وأقرب التعاريف إلى أنفسنا هو أن نقول: إن علم النفس هو العمل الذي يبحث في الظواهر النفسية [2].

وهو تعريف مريح في ظاهره، ولكنه يؤدي إلى كثير من اللبس، ذلك أن كل شيء له ناحية نفسية، فالصفات التي يلاحظها عالم الطبيعة، والوثائق التي ينقدها المؤرخ، ترجع في النهاية إلى معان وذكريات ومدركات، أو قل إن شئت إلى موضوعات عقلية. ومن ناحية أخرى نجد أن الصور والأفراح والآلام والميول والرغبات تتجسم في صور مكانية. وهي تمثل دائمًا في وضوح أو غموض، حالات الجسم وحركاته.

فإذا قلنا إنها ظواهر أو أحداث باطنة، فإننا نقصد أولًا وقبل كل شيء، أنها لا يدركها الناس جميعًا بل يدركها صاحبها فقط، كما أن البيوت من الداخل لا يراها المارة في الطريق، ولكن هذا لا يدل على أن المقيمين في داخلها يختلف إدراكهم عن إدراك غيرهم، بل يدل على أن معرفة باطن المنزل محدود بأصحابه. كذلك إدراك الإنسان لظواهر نفسه وقف عليه.

فإذا كنا لا نستطيع أن نضرب صفحًا عن هذه الناحية الشخصية في علم النفس، فإنه لا بد لنا أن نتجه به إلى ناحية موضوعية أيضًا، هذه الناحية الموضوعية في سلوك الناس وتصرفاتهم ؛ وقد نشأ عن ذلك نوع من الدراسة في علم النفس هو ما يسمى بعلم النفس السلوكي، ذلك أنه لضروب الحيوان الراقية وعلى الأخص الإنسان لأنه أشرفها، طريقة خاصة للسلوك في الظروف المختلفة من الحياة، ونهجًا خاصًا يطرقه في ميادين الحياة المتباينة، وردودًا على المؤثرات التي يلقاها، أو قل إن

---

(1)راجع مقال الأستاذ "لالاند" عن ميدان علم النفس في الجزء الأول من كتاب "دوماس" في علم النفس.

Phénomèoes psychologiques.(2)

شئت نوعًا من السلوك لا يتفق مع الوظائف المنتظمة العامة التي تدرس عادة في علم الفسيولوجيا.

الاتجاه الحديث في علم النفس هو أن يكون هذا السلوك موضوع البحث. وقد لجأ العلماء إلى هذه الناحية ليتجنبوا كثيرًا من المسائل المعقدة التي لم يصلوا إلى حلها فيما يختص بالحياة العقلية وفيما يختص بنفسية الحيوان.

ولا شك أن هذا الاتجاه في علم النفس قد أدى له خدمات جليلة، من حيث الوصول بالأبحاث إلى الدقة والوضوح، والتقريب بين علم النفس وبين غيره من العلوم الطبيعية؛ ولكن هذه الطريقة لا نستطيع أن تستغرق جميع فصول العلم، وإذا كانت صالحة في بعض الأبواب، فإنها تقف عاجزة في أبواب أخرى، إذ أنه كيف نصل إلى دراسة الألم والفرح والرغبة دون أن يرجع أصحابها إلى أنفسهم. ولنضرب مثلًا أكثر إيضاحًا لا نريد أن نقول؛ حينما أجرى العلماء التجارب على التعب، وجدوا أن التأمل الباطني ضروري، لتمييز الآثار الناشئة عن الجهود المستمر من تلك الناجمة عن الضيق أو المترتبة على تهيج سطح الجلد.

كذلك لا نستطيع أن نضرب صفحة عن الناحية الوجدانية من الحياة النفسية، كالعواطف المختلفة التي تحدد مواقفنا من غيرها، وتحدد مواقف الناس منا، وتحدد موقفنا نحو أنفسنا.

يكفي أن نتصور إنسانا آليًا، يتحرك ويسكن ويأكل ويشرب ويبتسم ويتكلم ويقوم بالعناية بأمرك، ويجيبك إذا حدثته، ويحييك إذا انصرف عنك... أتظن أنك تنزل هذه الآلة منزلة الإنسان؟

ويجب ألا ننسى علمًا له أهمية هو علم الأخلاق، يستمد دعائمه من علم النفس، من حيث هو دراسة الضمائر الخفية، والشاعر الباطنة؛ فإذا كان على الأخلاق ينشد الواجب فإن علم النفس يصف الواقع. ونحن نعلم أن قيمة الأعمال الخلقية لا تنحصر في انطباقها على القوانين، بل في النوايا الطيبة أو الخبيثة التي تدفع

صاحبها إلى العمل. فإذا اقتصر على النفس على الوصف الظاهري للأعمال، كأن نقول إن الألم هو مجموع أعراض شخصها كما يأتي: تقلصات عضلية، اضطراب وضعف في التنفس، عرق، اتساع حدقة العين... إلخ، فلن نستطيع أن نستفيد من علم النفس في علم الأخلاق أو التربية.

والخلاصة من كل هذا أن علم النفس أصبح هو العلم الذي يبحث في سلوك الناس وتصرفاتهم وأعمالهم من حيث هي مظهر للظواهر النفسية.

وعلى أساس هذا التعريف يتجه البحث إلى ناحيتين: الأولى مسالك الناس، والثانية الظواهر النفسية، مثال ذلك إذا رأيت رجلًا يعالج بابًا مقفلًا، فهنا أمران: الأمر الأول العمل أو السلوك الذي صدر عن هذا الرجل، وهو وقوفه إلى الباب يحاول أن يفتحه، الأمر الثاني ما يجري في ذهنه من التفكير في كيفية معالجة الباب، ومن الأحاسيس الوجدانية، كالغضب لعدم تمكنه من الفتح، وصعوبة الحال أمامه؛ فالتفكير والغضب ظواهر نفسية، ووقوف الرجل بجانب الباب وتحريك يده هو السلوك الواضح لنا. فأساس علم النفس البحث في الظواهر النفسية التي تؤدي إلى العمل، أو العمل من حيث هو مظهر لهذه الظواهر أو الأحداث.

مناهج البحث في علم النفس:

لكل علم من العلوم طريقة خاصة للبحث فيه، فنهج الرياضة يختلف عن منهج العلوم الطبيعية أو العلوم التاريخية. ويرجع التقدم العلمي والوصول به إلى الدقة والكمال، إلى كشف المنهج العقلي الصحيح الذي نهتدي به إلى الوقوف على خبايا العلم. وقد ظلت العلوم الطبيعية حتى عصر النهضة في أوربا متأخرة، حتى فكر الفلاسفة في النهج الذي يسيرون عليه، ليفتح أمامهم أبواب العلوم. ونستطيع أن نوجز منهج العلوم الطبيعية فيما يأتي:

(١) ملاحظة ظواهر الطبيعة وجميع المتشابه منها تحت الكليات العامة.

(٢) محاولة تحليل هذه الكليات العامة بافتراض الفروض.

(٣) تمحيص هذه الفروض ونبذ الفاسد منها واستبقاء الصحيح الذي يسمى حينئذ قانونًا.

فطريقة البحث في العلوم الطبيعية تبدأ بملاحظة الظواهر، وتنتهي بالقوانين العامة.

فهل لنا أن نسلك نفس هذه الطريقة في علم النفس؟ أما أصحاب المدرسة السلوكية[١] وهم الذين يحاولون أن يدرسوا الإنسان باعتبار أنه موجود مادي يعمل ويتصرف في عالم الحس دون أن يعترفوا بما للظواهر النفسية من الوجود، فإنهم يتبعون طريق الملاحظة الخارجية أو الظاهرة.

ولكننا لم تأخذ بهذا الجانب قط في تعريفنا للعلم، بل أضفنا إليه وجهة نظر أصحاب المدرسة الأخرى، وهم الذين يعترفون بوجود الظواهر النفسية. فهل تصلح طريقة الملاحظة الظاهرة في البحث عن الأحداث النفسية؟

الظواهر النفسية التي تدور بخلد صاحبها لا يستطيع أن يعلمها على وجه التحقيق إلا صاحبها فقط، فهو الذي يشعر بفرحه وأله وخوفه وغضبه، وهو الذي يشعر بتفكيره، وهذه الحالات محبوسة في نفس صاحبها سكان المنزل لا يرام المارة من الطريق، ولكنهم هم الذين يرون أنفسهم. وإذن فلا مندوحة لنا، إذا أردنا أن نسجل هذه الحالات التي تدور في أنفسنا، إلا أن يسجلها صاحبها، ومن هنا نشأت طريقة التأمل الباطني.

التأمل الباطني[٢]:

هو ملاحظة الإنسان لنفسه، أو انعطاف الشخص على نفسه، ليراقب ما يجري فيها من الحالات والظواهر.

وهذه طريقة ينفرد بها علم النفس عن غيره، ويتميز بها عن سائر العلوم. ذلك

Behavioristes(١)

Introspection.(٢)

أننا حين نلاحظ الظواهر الطبيعية يكون الشخص الملاحظ مستقلًا عن الحقائق التي يلاحظها. ولكننا ها هنا نجد أن الشخص يلاحظ نفسه، فالملاحظ والملاحظ شيء واحد.

وقد اعترض العلماء على طريقة التأمل الباطني بما يأتي:

(١) لا يستطيع الشخص أن يلاحظ نفسه في عين الوقت الذي تحدث فيه الظاهرة، فلو فرضنا أنه يقرأ في كتاب ويريد أن يلاحظ كيف يقرأ، فهذا أمر مستحيل، لأن النفس لا تستطيع أن تقوم بعملين مختلفين في آن واحد. إذ كيف يلاحظ في نفس اللحظة التي يقرأ فيها؛ وعلى ذلك يكون ما تقع عليه هذه الملاحظة إذا تمت ليس هو الشيء في حال وقوعه.

(٢) استحالة ملاحظة الظواهر عندما يكون النشاط العقلي شديدًا، كما في حالة الشهوات والانفعالات العنيفة، والجهود الشديد، والانتباه العظيم، والتفكير العميق، فإن مثل هذه الحالات تأخذ على الإنسان مشاعره، وتستغرق كل نشاطه، فلا يستطيع أن يوجه إليها أي ملاحظة.

(٣) ومن طبيعة الشعور[١] أن يترك حول بؤرته هامشًا يكون أقل وضوحًا من بؤرة الشعور، وكثيرًا ما تكون أطراف هذا الهامش بعيدة عن متناولنا.

مثال ذلك: المستمع إلى قطعة من الموسيقى يكون انتباهه مركزًا في سماع هذه القطعة، ولكن أشياء أخرى كرؤية أثاث الغرفة الموجود حوله، إلى غير ذلك، تكون موجودة في شعوره، ولكن ليست بدرجة من الوضوح تسمح له أن يتبينها تمامًا، ولو أنه يشعر بها.

(٤) يضاف إلى ذلك أن الإنسان خاضع لمعتقدات كثيرة يتعودها ويؤمن بها، فيلاحظ الحالات النفسية خلال هذه المعتقدات، بينما هذه الحالات تختلف عما يلاحظه.

---

(١) Conscience.

هذه الاعتراضات نظرية أكثر منها عملية، إن دلت على شيء فإنها تنبهنا إلى اتخاذ الحيطة والحذر، ولكنها لا تهدم التأمل الباطني؛ ذلك أن الحقيقة التي لا شك فيها هي أننا نلاحظ أنفسنا، ولا نستطيع إلا أن نلاحظ أنفسنا.

أما الاحتياطات التي يجب اتخاذها للوصول بالتأمل الباطني إلى الدقة والوضوح فهي:

(١) يجب تدوين الظواهر التي نلاحظها بأسرع ما يمكن حتى لا يصيبها التغير، كما أثبتت التجارب التي أجريت على التذكر والأحلام.

(٢) عند ما نحصل على ملاحظات غيرنا، يجب أن نخضعها الطرق العملية في البحث، فترى هل هي دقيقة صادقة... أي نتبع طريقة النقد العلمي.

(٣) يحسن بالباحث في علم النفس أن يلاحظ الظواهر ويجربها في نفسه أولًا، ثم يسأل عن تجارب الغير.

(٤) يجب أن يتجنب الباحث الإيحاء الذاتي، والإيحاء إلى الأشخاص الذين يلاحظهم. ولتجنب الإيحاء طرق عدة ليس هنا محل لذكرها.

(٥) يتبع العلماء طريقتين للحصول على ملاحظات الناس لأنفسهم، هما طريقة السؤال وطريقة الاختبار الشخصي[١]. وطريقة الأسئلة هي توجيه سؤال أو عدة أسئلة مطبوعة، تنشر في مجلة، أو تبعث عن طريق البريد، فيجيب عنها عدد كبير من الناس، وبذلك تحصل على عدد كبير من أجوبة مختلفة. أما الاختبار الشخصي فهو أن تحضر العالم الشخص، ويسأله أسئلة خاصة محدودة يجيب عنها. والطريقة الثانية أفضل من الأولى.

---

(١)الأسئلة. questionnaire

الاختبار الشخصي L ' enquete Personnelle

طريقة الاتصال المباشر:

إن طريقة التأمل الباطني، تنصب على تقييد الظواهر كما هي، ولكن "برجسون" انتقدها من ناحية الاتجاهات الذهنية المختبئة وراء الملاحظة النفسية المادية، فأدخل تعديلًا كبيرًا على هذه الطريقة؛ ذلك أننا نفكر خلال اللغة التي نتكلمها، وهذه اللغة تصلح على الأخص للتعبير عن الروابط الاجتماعية، ونقل العواطف والسلوك في الحياة العملية. وقد نتج عن ذلك أن اللغة تدور على الأغلب حول المعاني المادية، أو إن شئت فقل المكانية. ومن الواضح لنا أن جميع المصطلحات التي تخص الحياة العقلية تدل في بدايتها على مدلولات مادية، مثال ذلك النفس أو الروح فإنها تدل على (نفس **soufflé**).

ولما كانت الحياة الروحية أو العقلية تحمل من العلاقات ما يختلف عن الحياة الحسية، فإنه وجب أن نبذل جهدًا كبيرًا لنغير من العادات العقلية في التفكير واللغة حتى نصل إلى فهم مظاهر الشعور على حقيقتها، ذلك أن كل ما يخص الزمان، يتغير تغييرًا كبيرًا حين يترجم في لغة المكان. وإذا كان في استطاعتنا أن نلغي الزمان إلى حد كبير في دراسة الأمور الطبيعية، فإننا نجد أن الزمان عامل يأتي في المحل الأول في دراسة الحياة الشخصية.

للوصول إذن إلى حسن الاتصال بمظاهر الشعور يجب أن نتبع هذه الطرق:

(١) تحصيل معلومات واسعة عما نريد أن نلاحظه، فمثلًا فيما يختص بالذاكرة يجب معرفة جميع الأبحاث الفسيولوجية التي أجريت حتى الآن بواسطة الأخصائيين في هذا الأمر.

(٢) أن يتصل الشخص اتصالًا مباشرًا بالمظاهر دون أن يعمد إلى تحليلها عقلية، بل تكون الصلة بالظواهر أشبه شيء بالكاتب أو الفنان، الذي يبصر أثره الفني كلًا لا يتجزأ.

(٣) بعد ذلك نعمد إلى الطريقة العلمية المعروفة، أي جمع هذه المشاهدات

الشخصية وترتيبها وبيان المتشابه منها.

طريقة الملاحظة الظاهرة[١]:

إذا كان التأمل الباطني والاتصال المباشر بالظواهر يؤديان بنا إلى معرفة الميدان الأول من ميادين علم النفس، فإن هاتين الطريقتين لا تصلحان في ارتياد الميدان الآخر، وهو سلوك الناس وتصرفاتهم. ولا سبيل لنا حين نريد أن نسجل مسالك الناس إلا أن نتبع طريق الملاحظة الظاهرة كما تفعل في العلوم الطبيعية، فنسجل سلوك الناس في المواقف المختلفة والمؤثرات التي تحدوهم إلى العمل، دون النظر إلى داخل نفوسهم وما يجري بباطنهم، مثال ذلك: دخل شخص منزله في الليل فإذا بلص يطلع عليه في يده سكين حاد، فاصفر وجه صاحبنا، ونضح عرق بارد على وجهه، وجمد في مكانه، واضطربت أنفاسه، ولم يستطع أن يلفظ بشيء، فنحن هنا نصف الموقف الخارجي، الذي نراه. فمن ناحية نجد مؤثرًا وهو هذا اللص، ومن ناحية أخرى نجد تصرف هذا الشخص ومظهره الخارجي. ولم تعمد هنا إلى معرفة ما يجري بداخل نفسه.

طرق المقارنة[٢]:

١- بحث الأمراض النفسية والتحليل النفساني:

تخضع الأمراض النفسية وغيرها لقوانين طبيعية، كما تخضع الأمور العادية تمامًا، وينشأ المرض عن مخالفة الحالة الاعتيادية بسبب اختلال المزاج بين بعض العناصر أو العمليات. وقد أدت دراسة الأمراض البشرية إلى تقدم العلوم الطبية، لأن هذه الحالات الشاذة توضح لنا وتنير أمامنا سبيل الحياة الاعتيادية. كذلك أدت دراسة الأمراض النفسية خدمات جليلة لعلم النفس، إذ توصلنا من بحث هذه الأمراض إلى التمييز بين الشعور واللاشعور، وإلى معرفة أشياء كثيرة تختص بالإرادة والذاكرة واللغة

---

(١) Observation Extérieure.

(٢) Les méthodes Comparatives

وغيرها.

وقد كان العلماء منذ بضعة عشر عامًا، يلجأون إلى استعمال طريقة التنويم المغناطيسي، والإيحاء، حتى بدلى الأشخاص المنومون أو الموحى إليهم بما يجري في نفوسهم من ظواهر. وقد عدل العلماء الآن عن هاتين الطريقتين تمامًا، لأنهما يؤديان بالشخص الواقع تحت مثل هذا التأثير، إلى الإفضاء بالحالات النفسية التي تعتريه وهو في هذا الوضع، ولكنه لا يخرج لنا ما يجري في نفسه من المظاهر العادية.

أما التحليل النفساني وهو المشهور باسم منظمة العالم "فريد" خلاصته أن أشخاصًا تصدمهم انفعالات لا يقوون على احتمالها، أو يريدون رغبات لا يستطيعون تنفيذها، فتتراجع هذه الانفعالات أو الرغبات وتعيش مكبوتة في اللاشعور، هذه العقد النفسية الخفية تحاول الظهور فتخرج في صور رمزية في الأحلام والحركات العصبية، والأقوال غير المقصودة، إلى غير ذلك.

وطريقة التحليل النفساني هي ما يأتي:

(١) توجيه الأسئلة إلى المرضى.

(٢) تحليل رغبات وحركات و إشارات المرضى خصوصا غير المقصودة.

(٣) تحليل الأحلام التي تدل على رغبات مكبوتة تظهر في صور رمزية عن طريق اللاشعور.

٢- الطريقة التطورية والاجتماعية:

نستطيع أن نقول إن نظرية التطور أصبحت تقوم على أساس من الصحة بعد أن نادي بها "دارون" وأتباعه. ذلك أن الكائنات الحية يتصل بعضها ببعض في سلم التطور، وقد طبق العلماء هذه النظرية على الحياة العقلية، وزعيم هؤلاء العلماء هو "سبنسر"؛ والغرض من هذه الطريقة هو تفسير العمليات العقلية في تطورها بدل أن نكتفي فقط بوصفها كما تفعل الآن. فعلينا إذن أن نبحث نفسية الإنسان الأول ونفسية الجماعات البدائية، لنقارنها بعقلية الإنسان في الوقت الحاضر.

كذلك تدرس نفسية الأطفال في تطورها من عهد الطفولة الأولى إلى مرحلة الشباب.

ولكن هناك اعتراضات كثيرة تقوم في وجه ما ذكر من جهة تفسير القوانين العقلية، ذلك أن القول بحياة أولية وحشية لا يعدو مجرد الافتراض الذي يفتقر إلى الدليل العلمي، إذ ليس من الضروري أن القبائل المتوحشة الموجودة الآن تماثل حالة الشعوب المتوحشة التي تطورت إلى الجماعات المتحضرة الموجودة الآن.

كالشيخ المسن الذي يكون في عقلية الأطفال، فإنه لا يعود طفلًا من جميع الوجوه، بل هذا مجرد تشبيه، فكذلك القبائل المتوحشة إن هي إلا شعوب هرمة في عقلية الطفولة، ولكنها ليست في مرحلة الطفولة.

كذلك للأطفال حياة عقلية مستقلة تمام الاستقلال عن حياتنا المقلية. وقد كان الخطأ السائد عند العلماء هو أن الطفل رجل صغير، حتى جاء "روسو" وغير هذه العقيدة، مبينًا أن نفسية الطفل تختلف في نوعها عن نفسية الرجل. وقد أصبح لدراسة المجتمع أثر كبير في بيان كثير من أبواب علم النفس؛ فهناك ظواهر نفسية اجتماعية تسود جميع أفراد المجتمع كالغريزة، أو تخص شعبًا من الشعوب كالعادات والتقاليد والمعتقدات واللغة. وإذا نظرنا إلى أغلب الظواهر النفسية نجد أنها تخضع للغة إلى حد كبير، واللغة مع كونها طريقًا للتفاهم بين الأفراد، فهي خاضعة لضرورات اجتماعية تكسبها الصبغة التي تكون موجودة عليها.

٣- نفسية الحيوان:

لقد فطن العطاء من قديم الزمان إلى أن الإنسان يشبه سائر الحيوان في كثير من الأمور، حتى لقد عرفوا الإنسان بأنه "حيوان ناطق"، والموازنة بين نفسية الإنسان والحيوان تفيدنا إلى حد كبير، وهناك طرق كثيرة يتبعها العلماء في هذه الدراسة نجملهافيما يأتي:

(١) الملاحظة الظاهرة، أي ملاحظة سلوك الحيوان في الظروف المختلفة، كما فعل

الأستاذ "فابرFabr " في كتابه "الغريزة عند الحشرات" وهذه الطريقة تحتاج إلى كثير من الصبر والجهد والدقة.

(٢) إجراء التجارب، أي إخضاع الحيوان لمؤثر صناعي حتى نرى ما يحدث له، مثال ذلك: أنهم جاءوا بقطة في أحد معامل علم النفس، ثم أدخلوا عليها فجأة كلبًا كبيرًا، فذعرت القطة، وهنا شاهدوا بواسطة أشعة "أكس" أن معدتها شلت عن العمل مقدار عشرين دقيقة، وهذا بطبيعة الحال أثر من آثار الخوف.

(٣) تدريب الحيوان، وقد أجريت كثير من التجارب على القردة والفيران لمعرفة مقدار ذكائها، وطريقة ذلك أن يوضع الحيوان في مأزق يحاول الخروج منه، ثم نشاهد نتيجة هذه المحاولات.

المقاييس في علم النفس:

يقوم تقدم العلوم على التعبير عن الظواهر الطبيعية بكميات رياضية ومعادلات جبرية، وقد شغلت هذه الفكرة العطاء المتصلين بعلم النفس، فحاولوا رد الكيفيات النفسية إلى كميات رياضية؛ والغرض من ذلك قياس هذه الصفات بصورة دقيقة، لأن الصفات لا يمكن قياسها القياس الرياضي.

ومن أقدم العلماء الذين قاموا بمثل هذه المحاولات عالمان، لازال لبعض آرائهما قيمة حتى الآن، هما "فبير" و "فشنر".

وخلاصة ما وصلا إليه هو أن الإحساسات المختلفة يمكن قياسها، وذلك بواسطة البدء من مؤثر الإحساس، ثم التدرج في زيادة هذا المؤثر. كذلك يمكن قياس الزمن الذي تستغرقه بعض الحالات النفسية، وذلك باستعمال أجهزة دقيقة مختلفة مثل "مسجل الزمن"[١] الذي يقيس مدة رد الفعل[٢] وقد اتبع العملاء كثيرًا من الطرق لقياس التعب والانتباه... الخ.

---

(١) Chronographe.

(٢) Temps de reaction

وقد انتشرت فكرة الاختبارات في علم النفس مثل اختبار الذكاء، و بعد الحصول على نتيجة هذه الاختبارات[1] مجرى الباحثون عليها كثيرًا من العمليات الرياضية، كاستخراج المتوسطات، وتقدير الأخطاء المحتملة... إلخ مما يحتاج إلى كثير من الرياضيات المالية.

ولا تزال هذه الطرق في مبدئها، وتوجه إليها كثير من الاعتراضات، ويشك كثيرًا في النتائج التي تحصل عليها بوساطتها؛ ويرجع ذلك في الواقع إلى صعوبة تطبيق الرياضة على العمليات العقلية، التي تتشعب مؤثراتها وتكثر توجهاتها.

---

(1) Test.

الفصل الثاني

الشعور

إن الحالات النفسية التي تجري في أنفسنا نشعر بوجودها، وهذه الحالات لا مكان لها، وهي موجودة في الشعور. ولبيان فكرة الشعور يكفي أن تنظر إلى شخص نائم، فهو في هذه الحالة لا يشعر بشيء، حتى إذا ما أخذ يصحو، ابتدأ عنده الشعور بالأشياء المحيطة به، وبالرغبات التي يطلبها، فهو يرى النور والحائط والنافذة والمنضدة والكرسي، وينظر إلى الساعة ويدرك مقدارها، ويسمع الأصوات التي تصدر من الشارع، و يحس بدفء الفراش، وبرودة الهواء، ويشعر بالحاجة إلى النهوض، ليرتب نفسه قبل الذهاب إلى عمله في الساعة الثامنة، ثم ينظر إلى الساعة فيخشى التأخر عن ميعاد العمل، ويسرع في ارتداء ملابسه، ويخرج من منزله مسرعًا.

هذه الحالات المختلفة التي يحتويها الشعور تسمى "الظواهر النفسية" وليست الظواهر النفسية بدرجة واحدة من الشعور، فهناك ظواهر يشعر الإنسان بها شعورًا تامًا واضحًا، وأخرى تكون أقل وضوحًا من الأولى. فإذا ذهبت لتناول كتابًا من فوق المنضدة، فإن رؤية الكتاب وتمييز اسمه ومكانه بالنسبة إلى المنضدة، يكون كل ذلك جليًا في الشعور، ولكنك في نفس الوقت الذي تري فيه الكتاب، يقع بصرك على أشياء أخرى كثيرة تحيط به، وترى يدك وهي ممدودة لأخذه، ويصل إلى سمعك أصوات مختلفة، هذه الظواهر كلها موجودة في ذهنك ولكنها غامضة، ليست في درجة الوضوح التي شعرت بها حين تناولت الكتاب. فهي موجودة فيها نسميه "هامش الشعور"(١)، فالشعور يأتي في الدرجة الأولى، ويتلوه هامش الشعور. وليس هناك فاصل دقيق وحاجز كبير يقف بين الشعور وهامشه، بل هذه الطبقات المختلفة

---

(١) Subconscience.

من الشعور، تتراوح من الوضوح إلى الغموض، في اتصال مستمر، مثلها مثل الشمس عند المغيب، لا ينقطع نورها عن الأرض فجأة ثم يحل الظلام، بل يطغى الليل على النهار بالتدريج.

والظاهرة النفسية، التي هي لحظة من حياة الشعور، تختلف عن الظواهر الطبيعية من ثلاث نواح:

(١) إن الظاهرة الطبيعية مثل غليان الماء، وتمدد الحديد بواسطة الحرارة هي حقائق موضوعية، بمعنى أن الإنسان، يراها من الخارج، ويستطيع جميع الناس أن يروها بنفس الحالة؛ أما الظاهرة النفسية فلا يدركها إلا صاحبها، لأنه هو الذي يشعر بها، وأكبر دليل على هذا الأعمى الذي يولد كذلك فإنه لا يصل مطلقًا إلى تمييز الألوان. ومن أعجب ما لوحظ في هذا الصدد أن سيدة أمريكية تدعى "لو رابردجمان" ولدت صماء بكماء، سنة ١٨٢٩، ثم قدت بصرها وهي صغيرة، وأخذ العلماء يعلمونها عن طريق اللمس، قالت: في أحد الأيام: " إني أود لو أن لي عينين ورديتين وشعر أزرق"[١]، ويقول الصبي الأعمى لأمه:

يا أم مـــا شـــكل الســـماء   ومـــا الضـــياء ومـــا القمـــر

(٢) لا تجري الظواهر النفسية في المكان، فهي كالفرح والألم لا موضع لها. وإذا كنا نضطر إلى استعمال ألفاظ تدل على المكان كأن نقول إن الفرح موجود في النفس، فلفظة "فيط التي تدل على المكان، إن هي إلا ضرورة لغوية.

(٣) كذلك لايمكن قياس الظواهر النفسية على نهج الظواهر الطبيعية. وقد رأينا أن محاولات العالمين (فيير) و (فشنر) فشلت في قياس الإحساس وهو أبسط الظواهر النفسية وأقربها إلى الظواهر الطبيعية.

---

[١] Manuel de Philosophie. Cuvillier. page 31

مجرى الشعور:

إن المظاهر النفسية تجري في الشعور دون انقطاع وتتغير تغيرًا مستمرًا وتتصل بصاحبها الذي يشعر بها. ونستطيع أن نشبه الظواهر النفسية التي تجري في الشعور بماء النهر الذي يتدفق في مجراه، ولا تنقطع حياة الشعور إلا في حالات النوم أو الإغماء أو التخدير، أما في حالة الصحو فإن الظواهر لا تنفك عن الوجود في الذهن. وإذا شئنا أن نتناول ظاهرة واحدة لنحلها، ونضعها تحت منظار عقولنا لندرسها، فإنه يجب علينا أن نقتطعها اقتطاعًا من الحياة النفسية، وأن تفصلها على حدة من مجرى الشعور لتبين لنا في جلاء ووضوح، ولكن الحقيقة أن الظواهر يتصل بعضها ببعض دون انقطاع.

فالظاهرة النفسية هي لحظة من حياة الشعور، نركز فيها انتباهنا، وفصلها عن مجرى الشعور لأنها تهمنا أهمية خاصة.

تحليل الظواهر النفسية:

إذا أردنا أن ندرس ظاهرة نفسية، مثل تحية صديق، يجب أن نلتقي في بالنا أن هذه الظاهرة لم تحدث بمفردها، بل في نفس اللحظة التي سلت فيها على صديقك قد رأيت أشياء أخرى عدة مثل العربات التي تجري في الشارع، والأشخاص الذين يمرون بجانبك، ووصل إلى ذهنك أصوات أخرى مختلفة كأبواق السيارات، وضجيج المارة، وأشياء أخرى كثيرة كلها حصلت في نفس اللحظة. فأنت إذ تدرس هذه الظاهرة وهي تحية صديقك فإنك قد انتزعتها من بين ما سبقها وما تلاها وما حدث معها لتسهيل البحث. فإذا اقتطعنا ظاهرة من هذه الظواهر على حدة لدراستها مثل ما يأتي:

قطفت وردة، طلبت كتابًا من صديقك، خرجت من منزلك، تناوات الطعام، ذهبت إلى دار الخيالة، فإننا نجد عند البحث أن كل ظاهرة نفسية لها ثلاثة وجوه، إدراك، ووجدان، ونزوع.

يمر الإنسان بشحاذ مسكين فيعطيه قرشًا. فأول شيء حدث هو إدراك أن الشخص الموجود مسكين يستحق المعونة، ويصل إلينا هذا الإدراك أو هذه المعرفة عن طريق البصر، فنعرفه بشكله ولونه وملابسه ومميزاته. يعقب ذلك أن يشعر الإنسان بألم من هذا المنظر، وهذا يسمى الوجدان، فيؤدي كل ذلك أخيرًا إلى أن ينتزع الإنسان إلى أن يضع يده في جيبه ليعطى الشحاذ قرشًا، وهذا ما يسمى بالنزوع.

فكل ظاهرة نفسية بحصل فيها هذه المظاهر الثلاثة، ومن الخطأ القول أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، لأن الحدث واحد وأجزاؤه متصلة لا انقسام فيها، وكل ما في الأمر أننا ننظر إليه من ثلاثة أوجه.

الإدراك: إننا حين نتكلم عن الإدراك فيما يختص بالتقسيم الثلاثي السابق نعني بذلك أي نوع من المعرفة، فهناك معرفة كلما كان هناك إدراك لأي شيء من الأشياء الخارجية، مادية حسية كانت أم معنوية مجردة، كالصديق أو الشجرة أو العربة أو الكرسي، أو إدراك الحال في صورة، والنكتة في حديث وأشباه هذهالأشياء المعنوية. وهناك معرفة إذا كان هناك "تذكر" لأي حادثة مرت عليك في الماضي، مثل ذكرك لاسم صديق لك. وهناك معرفة إذا تصورت "صورة" أو "خيالًا"، سواء أمرت عليك صورة الشيء الذي تصوره، مثل صورة المدرسة التي كنت فيها، أم ابتدعت هذا الخيال، مثل تخيلك القصر الذي تحلم أن تبنيه لنفسك في المستقبل. في جميع هذه الحالات كل ما ندركه– سواء أكان شيئًا خارجيًا ماديًا أو معنويًا، أم كان شيئًا باطنيًا– كل هذا هو موضوع الإدراك. بينما الشخص الذي وقعت له هذه الأشياء هو الذي يدرك هذا الموضوع.

الوجدان: الواقع أن تعريف الوجدان وشرح ماهيته أمر عسير، فإذا ذهبت إلى حديقة منسقة، وأحسست لمنظرها السرور، هل تستطيع أن تقول ما هو السرور؟ هو حال نفسية نعرفها لأننا جربناها ليس إلا. ثم إنه من ناحية أخرى، تعترضنا صعوبة أخرى عند الكلام على الوجدان، وهي الفقر في المصطلحات من هذه الناحية، سواء

أكان ذلك في اللغة العربية أو الأجنبية؛ فنحن نقول "أحسست بفرحط وهذا يدخل في روعنا معنى الإحساس، وهو شيء آخر غير الوجدان، أو نقول "شعرت بغضبط وكلة الشعور أطلقناها على شيء آخر في علم النفس، وهو كل ما يمر بنا من الحالات النفسية ونشعر بها، ونحن نذكر هذه الفوارق لننتبه إليها فيما بعد..

ويطلق الوجدان إما على تأثر الإنسان بارتياح أو عدم ارتياح، أو ما يسمونه تجاوزا لذة وألمًا، وإما على انفعال الشخص بانفعال خاص، كالغضب أو الخوف أو الدهشة أو القلق.

فاللذة والألم، حالتان نفسيتان عامتان، أما الانفعال فخاص.

فإذا شربت في الصيف كوبًا من الماء المثلج شعرت بعده بلذة أو ارتياح، وتختلف اللذة والألم من حيث الحدة والفتور، وعلى العموم فإنها حالات عامة غير محدودة.

وإذا قابلت عرضًا صديقًا تود مقابلته، فوجدانك نحوه هو انفعال الدهش، وهو انفعال محدود تستطيع وصفه، وهذا بجانب شعورك بالارتياح من هذه المقابلة.

وسيأتي تفصيل الفرق بين أنواع الحالات الوجدانية في فصل خاص.

النزوع: هو الدافع انفساني الذي يدفعك إلى القيام بعمل من الأعمال، فإذا رأيت وردة جميلة في حديقة فإنه يحصل عندك إدراك أن هذه وردة، ثم تشعر بوجدان خاص هو الارتياح والسرور أو اللذة لرؤيتها، فتنزع، أي يحصل عندك دافع لقطفها، فتقطفها.

وليس من الضروري أن يكون الدافع النزوعى متحققًا في النهاية في صورة عمل إيجابى كرؤيتك الوردة وقطفها، أو رؤيتك قميصًا جميلًا عند بائع القمصان وشرائه، ولكن قد يكون الدافع متحققا في صورة سلبية، مثال ذلك: إذا رأيت قطعة طباشير، ووجدت أن يدك ستتنسخ منها، فلا تحاول الإمساك بها، أو إذا كنت في الطريق ورأيت ناحية من الشارع ميلة قذرة، فتجنبها ولا تقدم على المشي فيها، فالنزوع قد

يكون لتحقيق عمل والقيام به، أو الصدوف عنه.

ثم إنه ليس من الضروري أن يتحقق النزوع في صورة عمل أوحركة، ولكننا– كما قلنا – نقصد بالنزوع الدافع النفساني الذي يدفعك إلى عمل من الأعمال، ولا يهمنا إذا كان هذا العمل يتم في صورة حركة أم لا.

فمثلًا إذا وقفت خارج سور حديقة، ورأيت خلاله وردة، فصل عندك إدراك، ثم وجدان، فلا شك أنك تنزع لقطفها أو الاستيلاء عليها، ولكن السور الحديدي يمنعك من ذلك، أو أن الرغبة غير شديدة، ولكن هذا لايدل على عدم وجود النزوع في مثل هذه الظاهرة. كذلك الراقد في سريره تعبًا، يريد القيام ويهم به، ولكنه لتعبه وتثاقله لا ينفذ ذلك، فهذا لا يدل على أنه خال من النزوع، بل هو عنده دافع إلى القيام، ثم لو قام بالفعل لعددنا هذا بالفعل منه حركة، ولكنه لم يقم، إذن لم تتم الحركة. والواقع أن الحركة إذا كانت لم تتم ماديًا في الخارج فهي قد تمت في ثنايا النفس، وهذا ما يهمنا بحثه.

والخلاصة مما تقدم، هو أن كل ظاهرة نفسية نحملها إلى ثلاثة أقسام: إدراك أو معرفة، ثم وجدان، ثم نزوع؛ ويجب أن تعلم أن هذا التقسيم الذكور هو تقسيم صناعى، فليس هناك إدراك ووجدان ونزوع مفصلة، ولكن كل ذلك يحصل في لحظة واحدة، يختلط فيها الكل، وينساب الإدراك والوجدان والنزوع بعضها في بعض؛ فنحن ننظر إلى الظاهرة النفسية الواحدة من هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرناها، لفائدة البحث، وتسهيل درس الحياة النفسية.

الفصل الثالث

الجهاز العصبي[1]

إن حياة الحيوان في أشكالها المختلفة، تقوم على أسلوب يستطيع به الكائن أن يلائم بين نفسه والبيئة، وأن يحتفظ بكيانه، وأن يرتقي سلم التطور إن استطاع إلى ذلك سبيلًا. فإذا نظرنا إلى أحط الكائنات الحية، مثل الحيوان في الخلية الواحدة، فإننا نجد أن حياته تقوم على تفاعل كيانى. فإذا ارتقينا إلى حيوان أكثر تعقدًا في تركيبه، فإننا نجد بداية الجهاز العصبي، وهو عبارة عن بعض ألياف عصبية، تصل بين أعضاء الحس الضئيلة الموجودة عند ذلك الحيوان، وبين بعض الألياف العضلية. فإذا تأثر عضو الحس بأي منبه خارجي، يتكون تيار عصبي، ينتقل إلى الأنسجة العضلية التي تنقبض متأثرة بهذا المنبه. هذه العملية توضح لنا الفعل المنعكس البسيط، الذي هو أساس عمل الجهاز العصبي.

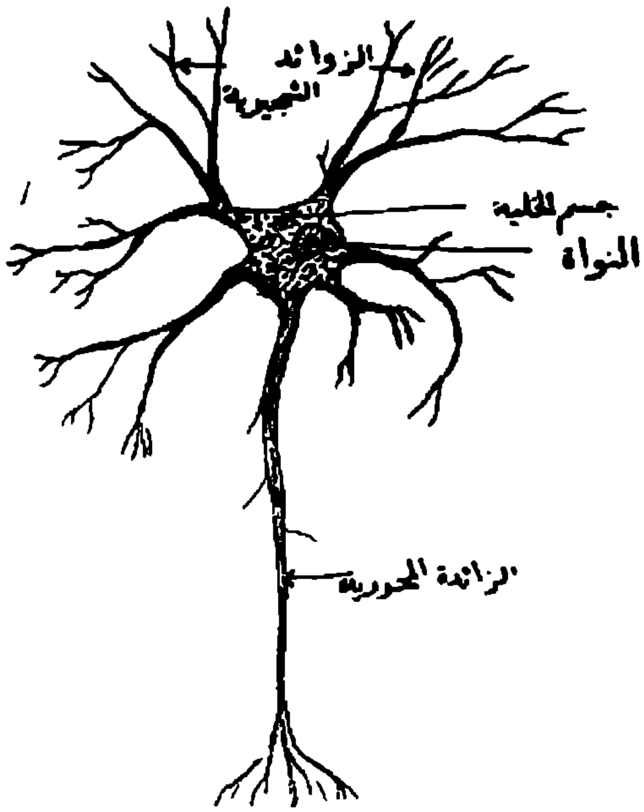
الخلية العصبية:

يتكون الجهاز العصبي من وحدات خلوية، كل منها تمثل من الناحية التشريحية والفسيولوجية خلية عصبية. وتتكون الخلية العصبية من ثلاثة أجزاء: جسم الخلية أولًا، وزوائد شجيرية كثيرة قصيرة متفرعة ثانيًا، ثم زائدة طويلة تسمى بالزائدة المحورية. هذه الخلايا العصبية لا يتصل بعضها بعض، وإنما تتداخل فروع الزائدة المحورية من خلية، مع الزوائد الشجيرية القصيرة من خلية أخرى، فيتكون عندئذ مكان لعبور

---

(1) Le système Nerveux.

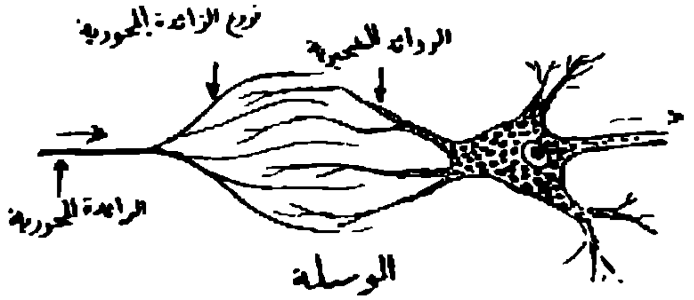
التيار العصبي. وتسمى مواضع الاتصال هذه بالوصلة[1]، (انظر شكل ٢).



(شكل ١) الخلية العصبية

---

(1) Synapse.



(شكل ٢) الوصلة

هذا الانفصال بين الخلايا العصبية، له أهمية كبيرة في علم وظائف الأعضاء والأمراض العصبية. وطريق العبور بين الخلايا العصبية، يكون دائمًا بواسطة انتقال التيار العصبي، من الزائدة المحورية في إحدى الخلايا، متجهًا في الزوائد الشجيرية الموجودة في الخلية التي تليها. ويتجه التيار من الزوائد المحورية إلى الشجيرية، ولا يكون العكس أبدًا.

ثم إن انتقالات التيارات العصبية عابرة هذه الوصل، يقلل من مقاومة هذه الوصل التيارات المائلة، وعلى ذلك هل تكوين العادة. كذلك تؤثر المخدرات والتعب أو الجهود في مقاومة هذه الوصل، ويبدو لنا أن الشعور بالحالات النفسية يقوم على وظيفتها الأساسية، أي نقل التيارات العصبية، ويعلل بعض العلماء انعدام الشعور في أثناء النوم بتباعد الخلايا العصبية، وانقطاع التيار العصبي.

وظيفة الخلية العصبية:

هناك رأي يقول بأن جسم الخلية هو مبعث النشاط، وذلك نتيجة تغير كيميائي يحدث فيها.

وهناك رأي آخر أكثر دقة من الأول، وأقرب إلى الصواب، يقول بأن الخلية العصبية تنقل الطاقة، وتزيدها قوة كلما مر بها تيار عصبي. ونستطيع أن شبه الخلايا

العصبية بالبطاريات في دائرة كهربائية، فكما أن البطاريات يقل جهدها، كذلك يحدث في الخلايا العصبية؛ وبينما لا تتأثر الأسلاك الكهربائية، كذلك فإن الألياف العصبية قلما يتناولها التعب.

وتوقف حياة الزوائد المحورية على جسم الخلية، فإذا تأثرت هذه اضمحلت الزوائد.

وهناك نوع من التخصص في وظيفة الخلايا العصبية من حيث نقل التيارات العصبية، فبعضها حساسة[١]، وبعضها متحركة[٢]. فالحساسة تستقبل المؤثر من أعضاء الحس الخاصة بالحواس المختلفة كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس... إلخ، وتنقلها إلى المراكز العصبية المختلفة، التي ترسل تيارات عصبية في أعصاب الحركة إلى العضلات أو الأعضاء أو الغدد، كذلك تصل الرسالات العصبية إلى المراكز العصبية من جميع أنحاء الجسم.

هذه التيارات العصبية هي التي تنقل إلينا المعرفة بالعالم الخارجي عن طريق الحواس المختلفة، كذلك المعرفة بأوضاع الجسم وصحته وأحواله.

الجهاز العصبي:

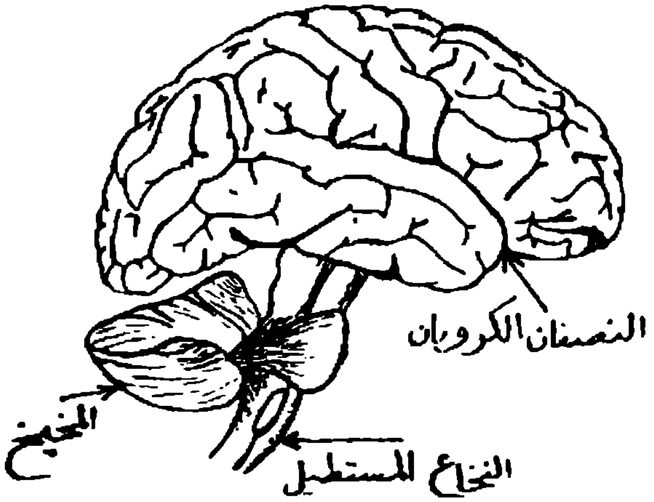
يتكون الجهاز العصبي من قسمين:

(1) الجهاز السمبتارى: وأعصاب هذا الجهاز منتشرة في جميع أنحاء الجسم، وتتصل الأجهزة المختلفة منه كالقلب والمعدة والرئتين والغدد المختلفة، وتكون هذه الأعصاب شبكة كبيرة تصل إلى جميع أنحاء الجسم. ويقع الجزء الأكبر من هذا الجهاز في حبلين طويلين من الأعصاب على جانبي العمود الفقرى، وله أثر كبير في جميع الغدد، وفي الانفعالات المختلفة عند الإنسان. هذا الجهاز هو الذي يتحكم في أجزاء الجسم التي ليس للإرادة سلطان عليها.

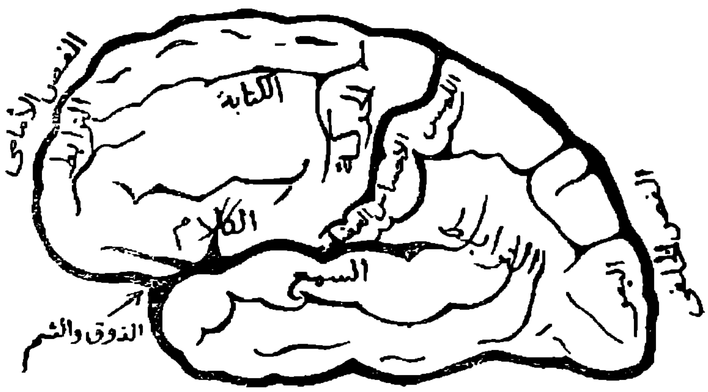
---

(١) Sensoriel.

(٢) Motrice.



(شكل ٣) المخ وأجزاءه



(شكل ٤) مراكز الحياة العقلية

(2) الجهاز العصبي: وهو يشتمل على المخ والمخيخ والنخاع المستطيل والحبل الشوكي. وتخرج منها أعصاب تتفرع في العضلات الإرادية، وسطح الجلد، وأعضاء الحس كالمين والأذن والأنف واللسان ؛ ومن مجموع هذه الأعصاب يتكون

الجهاز العصبي الطرفي.

ويتركب المخ من النصفين الكرويين، النصف الأيمن والنصف الأيسر وسطهما العلوى كثير التجاعيد والثنايا التي تعرف بالتلافيف، وهناك نظرية تقول بأن ذكاء الإنسان يقدر بكثرة التلافيف؛ والنصفان الكرويان هما مركز الإحساس والتفكير والتذكر ومصدر الحركات الإرادية.

ويقع المخيخ خلف المخ وهو جزء صغير الحجم، وفائدته تنظيم الحركات العضلية وربطها وحفظ توازن الجسم؛ والمخيخ هو المنظم للحركات الإرادية، لأنه هو الذي يوجد الارتباط بين أعضاء الحركة.

الأفعال المنعكسة[١]:

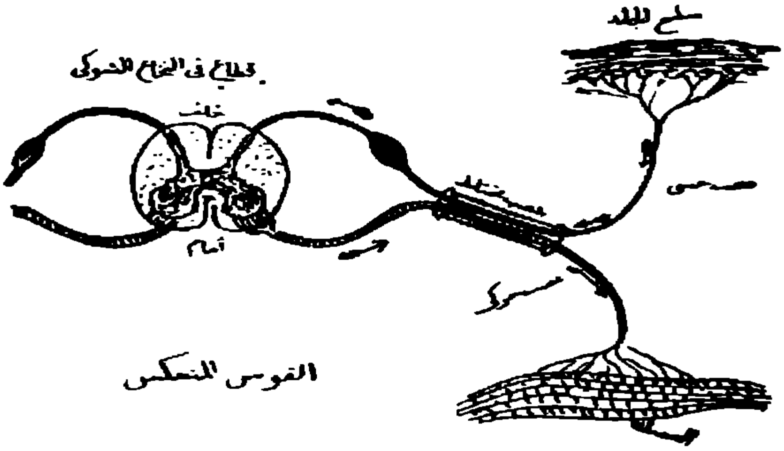
الفعل المنعكس هو رد آلى غير إرادى نتيجة تأثر أعصاب الحس.

ويتكون الفعل المنعكس في أبسط صوره من أن خلية عصبية تتأثر بواسطة منبه، فتعكس الخلية التيار العصبي، الذي يؤدي إلى الحركة، وتسمى هذه العملية بالقوس المنعكس[٢] (انظر شكلة ٥).

---

(١) Réflexes

(٢) Arc rélexe



(شكل ٥) الفعل المنعكس

وليس الأمر بهذه البساطة في الأفعال المنعكسة عند الإنسان التي هي أكثر تعقدًا، فهي تأثر أعصاب الحس بواسطة منبه خارجي، فينتقل هذا التيار عابرًا الوصل حتى يصل إلى الحبل الشوكي، وهناك يصدر تبار عصبى يسري في أعصاب الحركة حتى يرد على المؤثر، مثال ذلك إذا وضع شخص رجلًا فوق أخرى، ثم ضربته أسفل الركبة في موضع مخصوص ضربة خفيفة، فإن رجله تتحرك إلى أعلى دون إرادة، وهذه التجربة هي التي يجريها الأطباء للاستيثاق من سلامة الأعصاب أو النخاع الشوكي عند الشخص.

ولا دخل للإرادة في بعث هذه الأفعال المنعكسة، فهي حركات غير إرادية. وقد أثبتت التجارب التي أجريت على الحيوانات التي انتزع منها – والمخ هو مركز الإرادة كما ذكرنا– أنها تتحرك إذا تأثرت بمنبه خارجي.

وتوجد عند الإنسان طائفة كبيرة من الأفعال المنعكسة، مثل إفراز كثير من الغدد، إفراز اللعاب عندما يشم الإنسان رائحة الطعام، وإفراز العصارة المعدية عند دخول الطعام إلى المعدة، والعطس، والسعال، وتقلص الجفن إذا وقع على العين

جسم غريب كالغبار مثلًا... إلخ.

وليست جميع الأفعال المنعكسة لاشعورية، مثل إفراز العصارة المعدية، بل منها ما يصحبه الشعور مثل ضيق حدقة العين إذا وقع عليها ضوء شديد. ولكن الشعور بالمؤثر أو الحركة ليس له على المؤثر أي تأثير.

وإذا كان المؤثر ضعيفا اقتصرت الحركة على الجزء الذي يقع عليه المؤثر. أما إذا كان شديدا فإن الحركة تتعدى هذا الجزء إلى الأجزاء المجاورة، وقد تصل إلى حد أن تم الجسم كله.

الفعل المنعكس الشرطى[١]:

أجرى أحد العلماء الروس ويسمى "بافلوف"[٢]، تجارب على الحيوانات. إذا تناول كلب قطعة من اللحم، فإنه يفرز اللعاب، وهذا الإفراز هوفل منعكس عادى؛ فإذا فرضنا أننا في نفس الوقت الذي نقدم فيه قطعة اللحم، تدق ناقوسًا معينًا، ونظل تردد هذه التجربة عدة أيام متواليات، فإنه يأتي وقت يكفي أن ندق الناقوس فقط، فيفرز الكلب اللعاب عند سماعه هذا الصوت، دون وجود اللحم.

هذا ما يسمى بالفعل المنعكس المتعلق بشرط. وخلاصته أننا نربط المؤثر الأصلى بمؤثر صناعي، فيحل المؤثر الصناعي محل المؤثر الأصلي.

وأهمية هذه الحقيقة ترجع إلى توضيح كيفية صدور الأعمال المعقدة، ذلك أن "مصاحبات" المؤثرات أخذت تحتل مكان المؤثرات نفسها، فلعبت دورًا مهمًا في الحياة العقلية، واستطعنا بذلك أن نفسر كثيرًا من العمليات الإرادية والعادات والميول المكتسبة.

Réflexe Conditionné.(١)

Pavlov(٢)

الفصل الرابع

السلوك الفطري والمكتسب

الإنسان كائن متحرك، مضطر إلى سلوك طرق كثيرة تحت تأثير الظروف المختلفة المحيطة به، وقد اتضح لنا عند الكلام على الفعل المنعكس، كيف يسلك الإنسان حين يرد على المؤثرات التي يصادفها. فإذا وخزت شخصًا بدبوس وخز خفيفًا في يده على غرة، فإن يده تتراجع، هذا النوع من السلوك يخلو من إرادة الشخص، وقد يخلو من الشعور، ونستطيع أن نقول: إن هذه الحركة هي حركة فسيولوجية بحتة.

ولكن هناك طوائف أخرى من السلوك، تصدر عن العقل، وعن الشعور بدرجاته المختلفة. هذا السلوك الصادر عن العقل، المصحوب بأي نوع من أنواع الشعور، هو الذي تهمنا دراسته في علم النفس.

ولما كان لابد لكل حركة من دافع، فلابد من وجود دوافع تبعث الإنسان إلى السلوك أيضًا، هذه الدوافع نسميها الميول[١].

وقد حاول الماء من قديم الزمان أن يصنفوا هذه الميول، وجميع هذه التصانيف التي اقترحها الفلاسفة ترجع في النهاية إلى نوعين:

(١) تصنيف الميول حسب موضوعها أو ما تتعلق به، مثال ذلك تقسيم "أفلاطون" للميول إلى ثلاثة أنواع: ميل إلى الاستمتاع، وميل إلى السيطرة والقوة، وميل إلى العلم.

(٢) تصنيف الميول حسب طبيعتها، وقد قسم "أرسطو" الميول تبعًا لذلك إلى نوعين: فطرية ومكتسبة.

Tendances.(١)

ويخيل إلينا أن تصنيف أرسطو أدنى إلى الصواب، وهذا هو الرأي الذي أخذ به علماء النفس في الوقت الحاضر، وهو السبيل الذي سنسلكه في هذا الكتاب.

يخرج الطفل الصغير إلى العالم وعنده استعداد للرضاعة، وميل إليها، فهو يمص ثدي أمه بالفطرة، هذا الميل عند الطفل لا شك أنه فطرى؛ ويميل كثير من الناس إلى التدخين، وهذا الميل هو ما نسميه بالعادة، ولا شك أن عادة التدخين مكتسبة؛ فميل الطفل إلى الرضاعة يتحقق في صورة من السلوك لا يتعلمها الإنسان، بينما ميل الشخص إلى التدخين يتكون من حركات وأعمال كثيرة يكتسبها الشخص.

يولد الطفل ساذجًا، إلا من دوافع تبعثه إلى الحركة، وتؤدي إلى الاحتفاظ بكيانه. هذه الدوافع الأولى، التي تجهز الطفل بالمؤونة التي يستعين بها على السفر في رحلة الحياة، هي دوافع فطرية.

والإنسان في ذلك كالحيوان، لأنه لا يعدو أن يكون نوعًا من جنس الحيوان ولكنه نوع راق منه. فإذا نظرنا إلى ضروب الحيوان المختلفة، نجد أن طائفة كبيرة من أعمالها وسلوكها في الحياة تجري بالفطرة، وإليك مثلًا يقع تحت أبصارنا كل يوم، ويوضح بجلاء مانذهب إليه، فالقط الصغير الذي تربيه في المنزل بعيدًا عن أمه، وحيدًا عن أقرانه، لايلبث أن يرى فأرًا حتى ينقض عليه فهذا السلوك الذي يسلكه القط سلوك فطري، لأنه لم يكتسبه، ولم يتعلمه عن طريق القدوة أو التدريب. كذلك الطيور التي تهاجر في فصل من فصول السنة، لا تتعلم هذه الهجرة، ولكنها تميل إليها بالفطرة.

هناك ميول كثيرة، هي التي توجه كل شخص إلى الجهة التي يسلكها في حياته، فهذا "روسو" مثلًا تعلم حرفة النقش، وكان يزاول نقش الحيطان، ولكنه زهد ذلك واتجه إلى دراسة الفلسفة والأدب، رغمًا عن أنه لم يكن تلميذًا وهو صغير. فكل شخص عنده ميل خاص نحو شيء من الأشياء كالموسيقى أو الأدب، أو العلوم الرياضية، أو الأعمال اليدوية، بحيث يكون سلوك الإنسان قائمًا على أساس هذا

الميل الفطري.

فإذا كان أساس السلوك عند الإنسان فطريًا، فإن صور السلوك التي يتبعها بعد ذلك، يكتسب أغلبها بالتعود.

وهنا نسأل أنفسنا، كيف تحل إلينا هذه الميول الفطرية؟

لاشك أن الاستعدادات الفطرية لاتهبط إلينا دون سبب، ولكنها تصل إلينا عن طريق الوراثة، وقد ثبت في علم النبات أن الصفات الموجودة في جيل، تنتقل بنفسها إلى الجيل الذي يليه، وذلك طبقًا لقوانين معروفة ليس هنا محل ذكرها. ويتبع الحيوان نفس هذه القوانين، ولكن بأسلوب أكثر تعقدًا، ومن الثابت أن الإنسان يرث الصفات الجسمية عن آبائه وأجداده، كالطول والقصر، والقوة والضعف، ولون العين والشعر والبشرة، والاستعداد للتأثر ببعض الأمراض...... إلخ. ومايهمنا هو تسجيل أن الإنسان يرث الصفات الخلقية والنفسية، كما يرث الصفات الجسمية، ونقصد بذلك أنه يرث الاستعداد لبعض الصفات الخاصة، حتى إذا صادفته الظروف التي تستطيع هذه الصفات أن تظهر فيها، أسرعت إلى الظهور، وقد أجرى العلماء كثيرة من المشاهدات على بعض الأسر، للتحقق بالطرق العلمية والإحصاء، إلى أي حد يتأثر الأبناء بالصفات الخلقية عن الآباء؛ وإليك مثلًا غريبًا ذكره الدكتور "جودارد" عن أسرة كاليكاك "**Kalikak**" وقصة هذه الأسرة، أن عميدها الذي يسمى مارتن كاليكاك، التحق في سن الواحدة والعشرين بجيش الثورة بالولايات المتحدة عام ١٧٧٥، قابل فتاة ضعيفة العقل في أحد الفنادق واتصل بها، وأنجب غلامًا خرج ضعيف العقل أيضًا. وقد تتبعوا ذرية هذا الغلام وعرفوا منها أربعمائة وثمانين خلقًا، فتبين أن منهم مائة وثلاثة وأربعين شخصًا ضعاف العقول، وستة وأربعين شخصًا ذوو عقل سليم، ولم يكن في الاستطاعة الفحص عن عقلية الباقين جميعًا، ولكنهم عرفوا أن ستة وثلاثين شخصًا كانوا أبناء غير شرعيين، وأن ثلاثة وثلاثين إباحيون، وأربعة وعشرين سكيرون، وثلاثة أشخاص عرضة للصرع، وثلاثة اتهموا بالإجرام، وثمانية يديرون منازل للدعارة، بينما توفي اثنان وثمانون في عهد الطفولة.

ومن الموازنات اللطيفة في هذه الأسرة، دراسة الملف الذي أنجبه مارتن كاليكاك من زوجته الشرعية، ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها، تزوج من فتاة عادية تمت إلى أسرة طيبة، وقد بلغت الذرية الجديدة أربعمائة وستة وتسعين شخصًا، لم يكن بينهم رجل أو امرأة في عقله ضعف أو خروج عن المألوف، بل كان من بين هذا الفرع من الأسرة حكام، وأساتذة في الجامعة، وآخرون ارتقوا مناصب عالية في المجتمع.

الميل إلى الإجرام والضعف العقلي والاستهتار وفساد الأخلاق في الفرع الأول من هذا الجد، والميل إلى الاستقامة والجد والاتزان والعقل السليم في الفرع الثاني، لا يفسر إلا بتأثير الوراثة.

الفصل الخامس

الغرائز[1]

يقع تصرف الإنسان أو سلوكه حسب حاجة الموقف الموجود أمامه، حتى يلائم بين نفسه وبين طبيعة الأشياء، أي البيئة المحيطة به، مثال ذلك إذا أحسست بتيار من الهواء، ووجدت أنك ستصاب بالبرد فإنك تقفل الباب.

فالأعمال الإنسانية استجابة لمطالب الحياة.

وتعرف الإنسان بإزاء هذه المواقف يتطلب أمرين: الأول الشكل الذي تدرك به الموقف وطبيعة المؤثر الخارجي، والثاني القوى الداخلية، أو "الميول" التي توجهك مختلف الوجهات، حتى تستجيب على وجه ملائم لطبيعة الموقف الخارجي، فالإحساس بتيار الهواء هو المؤثر الخارجي، والقوة التي دفعتك إلى إغلاق الباب في الدفاع عن النفس والهرب من الأخطار. ولما كان الإنسان ولد ضعيفًا خاليًا من المعرفة، لم يعلم كيف يسلك في الحياة ولم يعله أحد، فلا بد أن يخرج إلى الوجود مجهزة بكثير من القوى التي تدفه إلى السلوك بما يحفظ حياته؛ هذه القوى الكامنة، والميول الموروثة، والاستعدادات الفطرية هي التي تسمى "بالغرائز".

كما تقدمت السن بالطفل متدرجًا نحو الشباب الرجولة، أخذه يتعلم كيف يتصرف في هذه الحياة، كيف يأكل ويشرب ويمشي ويلبس ويضطجع وينام ويكتب و يقرأ.... وأشباه هذه الأشياء التي يكتسبها الإنسان في مجرى حياته، ثم يأخذ في ترديدها دون تفكير، حتى ليصبح الإنسان في أغلب أعماله كالآلة. ولكن إذا كانت أغلب أعمال الإنسان التي يؤديها مكتسبة بواسطة التعلم كما رأينا، فإن القوى

---

(١) Instincts.

الفطرية التي تولد مع الإنسان تظل كامنة مختبئة تؤدي وظيفتها ولكننا لا نراها.

وهناك لحظات تظهر فيها الغريزة بشكل واضح، يجعلنا نتميزها بجلاء. لو ذهب أحد الرحالين إلى أواسط أفريقيا للاستكشاف، وخرج يوما خاليًا من السلاح، فتقابل وجها لوجه مع وحش ضار، فإنه يجري، أو يرى بنفسه في النهر أو يتسلق شجرة أمامه، إنه سيندفع إلى عمل كل هذا من تلقاء نفسه، فهي غريزة الهرب التي تدفعه إلى ذلك. ولو أنك ركبت قطار السكة الحديدية وأنت ذاهب إلى مسافة طويلة، ومعك كتب ومجلات لتسليتك في الطريق، فإنك مع كل هذا تنزع إلى الكلام مع غيرك من الركاب ومسامرتهم، فهي غريزة الاجتماع التي تدفعك إلى ذلك؛ ولو أنك رأيت زحامًا في الطريق حول شيء من الأشياء لاندفعت وتوجهت للذهاب إلى المجتمعين، لاكتناه حقيقة هذا الزحام حول الشيء الذي تجهله، إنها غريزة الاستطلاع التي تدفعك إلى معرفة ما تجهل.

هذا عرض أولى يبين لنا أن الغرائز هي القوى الفطرية الدافعة في حياة الإنسان، وهي أساس السلوك عنده. ولكن هناك نوعًا من السلوك أطلقنا عليه اسم الفعل المنعكس، فما هو الفرق بينهما؟

الغريزة والفعل المنعكس:

الغريزة والفعل النعكس كلاها نوع من السلوك له مميزات يختص بها، وقد قابل العملاء من قديم بينهما، ولكن الأبحاث الحديثة في علم النفس أثبتت أن الفرق بينهما ليس كبيرًا. هذه المقابلات نجملها ونرد عليها فيما يلي:

(١) الفعل المنعكس بسيط محدود بعض عضلات الجسم، بينما الغريزة معقدة وتشمل الجسم كله، فاذا رأيت شيئًا ضارًا سيقع على العين، فإنك تطبق الجفن، هذا الفعل المنعكس لم يتعد العضلات المتصلة بالعين، بينما إذا رأى الإنسان حشرة سامة أو شخصًا يريد أن يعتدى عليه فإنه يبتعد بكليته ويهرب، فهنا نجد أن الجسم كله قد اشترك في حركة الدفاع، بينما تقتصر الحركة في الفعل المنعكس على عضلات العين

فقط. ولكن المؤثر في الفعل المنعكس إذا كان شديدًا فإنه يؤدي إلى حركات قد تشمل الجسم كله. فإذا وخزت شخصًا في يده وخزًا خفيفًا تقلصت يده فقط، أما إذا وخزته وخزًا حادًا، فقد يؤدي ذلك إلى اتساع حدقة العين، وصعود الدم إلى الوجه، وإفراز "الأدرينالين"، وإلى حركات دفاعية تعم الجسم كله. كذلك القط المنزوع مخه يموء ويخدش بمخالبه ويأتي بحركات غير متزنة، نظرًا لانعدام الجزء المسيطر على الحركات وهو المخ.

(٢) الفعل المنعكس يصدر عن المكان ردًا مباشرة على مؤثر خارجي، بمعنى أنه يتوقف على وجود المؤتر الخارجي وطبيعته ونوعه، مثال ذلك إذا وضعت يدك في ماء ساخن أكثر مما تحتمله يدك فإنك تستردها، أو الأصح أن نقول إن يدك تتراجع؛ أما الغريزة فإن أصولها تمتد إلى داخل الكائن، مثال ذلك أن العصفور يرى طول العام أوراق الأشجار وفروعها، ولكن رؤيتها لاتستثير فيه الميل إلى جمعها حتى يبني عشه، وإنه لا يبدأ في ذلك إلا في زمن مخصوص، فهذا السلوك أي بناء العش صدر عن ميل داخلي؛ على أننا قد نجد أن الفعل المنعكس يكون صادرًا عن الكائن أحيانًا لا ردًا على مؤثر، وأن الغريزة قد تتوقف على المؤثر الخارجي أحيانًا أخرى، ويتضح أثر الناحية الأولى في الأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط، مثل إفراز اللعاب ومواء القط حينما يرى الأطباق تصف فوق مائدة الطعام عند الظهر. ويتضح أثر الناحية الثانية، وهي توقف الغريزة على مؤثر خارجي في كثير من المناسبات، فظهور الغضب يستدعي وجود حائل يعترض رغبة الإنسان.

(٣) ومن أهم المعارضات التي تذكر في باب الموازنة بين الغريزة والفعل المنعكس، هي أن للغريزة غرضًا تسعى إليه، بينما الفعل المنعكس لا يحقق أي غرض، وإنما هو فعل آلي بحت. أما أغراض الغريزة فيما يختص بالفرد، فهى التغذية، والهجوم، والدفاع، والبحث عن المسكن. وأغراضها فيما يختص بالنوع هي غريزة التناسل، وتربية الصغار، وأغراضها فيما يختص بالمجتمع هي الغرائز الاجتماعية، فالغريزة وهي تسعى نحو هذا الغرض لا تخطئ أبدًا، حتى لقد وضعوا هذه الصفة تحت عنوان

"عجائب الغريزة". ومن الأمثلة المشهورة التي تضرب عادة في هذا الباب ما يذكر عن الحشرات التي تشل حركة فريستها دون أن تقتلها، وذلك لكي يتيسر لصغار الحشرة أن تتغذى بلحم طازج لا بلحم ميت، وهذا هو السر في أن الحشرة لا تطعن الفريسة إلا في المراكز العصبية، كأنها جراح ماهى يعرف مواضع تشريح الجسم.

ومع ذلك فكثيرًا ما يكون الفعل المنعكس غاية مفيدة، مثل معرفة بعض الحيوانات الثديية النباتات السامة بواسطة الذوق. وفي التجربة أن القطة المنزوع مخها، إذا سمعت صوتًا مفاجئًا، فإنها تتجه بصينيها نحو مصدر الصوت، وهذا دون شك فعل منعكس.

أما فيما يختص بكمال الغريزة واتباعها غاية وسبيلًا لا تخطئهما أبدًا فهي خرافة تكذبها المشاهدة، قد أثبتت ملاحظة بعض العلماء فساد القول بأن الحشرة التي تشل فريستها لا تخطئ، إذ أنها كثيرًا ما تنحرف في تسديد الطعنة، وكثيرًا ما تصيب الفريسة في مقتل، ومع ذلك فإنها تقودها ميتة، ويتغذى الصغار منها وهي على هذا النحو.

والخلاصة من كل هذا هو أن الفرق بين الغريزة والفعل المنعكس ليس كبيرة، بحيث يترك خوة عميقة بينهما، بل هو فرق غير محسوس تميزه درجة تعقد السلوك في الغريزة، وبساطته في الفعل المنعكس.

مميزات الغريزة:

تمتاز الغريزة بالميزات الآتية:

(1) الغريزة نوعية(Specificite)

ومعنى ذلك أنها واحدة بالنسبة لجميع أفراد النوع من جنس واحد، فلكل نوع غرائزه التي تميزه عن غيره، مثال ذلك البيوت التي تنسجها العناكب، فكل صنف منها ينسج بيتًا بشكل مخصوص، مثل تلك التي تنسج البيوت في زوايا الحيطان.

هذه الوحدة في النوع ليست مطلقة، إذ أن هناك فوارق شخصية، لأن الأفراد لا يتشابهون إلى حد التطابق. ولكن هناك صفات أساسية ثابتة فهي التي تسمح لعالم

الحيوان أن يميز الأنواع المختلفة منه.

كذلك ليست الغريزة ثابتة على الزمن، فالغرائز تصل إلينا عن طريق الوراثة، وهي اتصال الأجيال بعضها ببعض، ويحدث تغير مع الزمان خلال هذا التطور، ولكنه بطيء غير محسوس.

وقد تغير بعض أنواع الحيوان من مسلكهافيما يتصل ببعض المظاهر الخارجية للغريزة، ومن الأمثلة على ذلك ما شوهد من أن بعض العصافير استبدلت بالمواد التي تبنى بها عشها مخلفات من الصناعات الإنسانية، مثل عيدان الثقاب القديمة، ومخلفات الساعات بالقرب من مصنع لها.

(٢) الغريزة فطرية (Inneite).

وهذه من أهم الصفات التي تميزها، وإذا نفينا هذه الصفة عنها فإننا ننفي بذلك وجود الغريزة نفسها. وبعض الفلاسفة قالوا إن الغريزة ليست فطرية فإن "بسكال" يقول: "إن الطبيعة عادة أولى" ولكن الواقع ينكر ذلك، إذ يكفي أن تنظر إلى الإنسان أو ضروب الحيوان لتحكم بما يخالف ذلك القول. فالطفل الحديث الولادة ليس في حاجة إلى التفكير، ليصبح أو يرضع، فهو يصبح كلما أحس بألم، وهو يمص كل جسم غريب يلامس شفتيه.

هذا السلوك وأشباهه يتحقق من بداية الأمر، فالغريزة تخلق كاملة، لا يحتاج الكائن إلى التعلم والكسب والتدريب لتأدية الممل. وإذا رجعنا إلى الحيوانات الثديية المنحطة، العاجزة عن تكوين هذه الأعمال بالمادة أو الكسب، نجد أنها تؤديها كذلك؛ فليس القط في حاجة إلى من يعلمه اصطياد الفيران، وليس الطير في حاجة إلى من يعله بناء العش.

ولا يجب أن تفهم من فطرية الغريزة أنها تظهر مع ظهور الكائن إلى الوجود، فكل غريزة تظهر في الوقت الملائم لها، مثل الطيور المهاجرة التي لا يظهر عندها هذا الميل إلا في وقت معين من السنة. ومن التجارب اللطيفة ذات الدلالة في هذه الناحية

تجربة القط الذي تربى منذ صغره مع الفأر، فإنه لا يظهر نحوه أي اهتمام إلا بعد مضي أربعة أسابيع، وحينئذ يظهر عند القط هذا السلوك المعروف فجأة، وهو المطاردة واللعب مع الفريسة، والزمجرة، ثم قتل الفأر.

وليس يلزم في فطرية الغريزة أن تكون ثابتة غير قابلة للتغيير، إذ أن العادة كثيرًا ما تطغي على الغريزة وتغيرها.

وإذا شئنا أن نتبين الغريزة الخالصة، فلابد لنا من الرجوع إلى الحيوان المنحط.

والأصل في الغريزة أن تتحقق بالفطرة دون حاجة إلى تعلم، وتجربة "سبالدنج Spalding" واضحة في هذا الصدد، كان ذلك في عام ١٨٧٣ حين فكر "سبالدنج" هل يطير الطير عن فطرة أو عن تعود. ذلك أن آباء الطير تدفع صغارها إلى الطيران، وتدربها، ويكتسب الصغار منها حركة الطيران بالمحاكاة، لذلك أحضر "سبالدنج" بعض صغار الطيور الحديثة الفقس ثم حبس كل واحد منها في قفص على حدة، ولم تكن الأقفاص من السعة بحيث تسمح لها بتحريك أجنحتها، ولا نبت ظظظن الطير تماماً. فهذه تجربة عظيمة الدلالة فيما يختص فطرية الغريزة وثباتها.

ولكن من النادر أن نعثر على الغريزة ثابتة بهذا الإطلاق، فالطيور المغردة لا تغرد إلا إذا سمعت أترابها تغني، وإذا حبست عن غيرها من نوعها لم تغرد.

وتلعب الذاكرة دورًا كبيرًا في أداء الحركات الغريزية، فالفرخ حين ينقف من البيض، ينقر في الأرض كل ما يصادفه من الحب والديدان والحشرات، كما ينقر الحمى، وأعين الأفراخ الأخرى، وكلما تقدمت السن بالفرخ لا يلتقط كل شيء، ولذلك فإنه يصدف عن بعض الديدان الضارة.

مما سبق يتضح لنا أن الغريزة تظهر في صورتين:

١- الغريزة الخالصة المصحوبة بحركات تظهر كاملة دون حاجة إلى كسب وهذه الصورة نجدها على الأخص عند الحيوانات الدنيئة.

٢- الدوافع الغريزية التي هي أساس السلوك، يبني عليها الأفراد مسالك مختلفة

ولكن الأساس واحد.

(٣) الغريزة عمياء:

تتميز الأعمال الإرادية عند الإنسان بأن هناك غرضًا يستدعي الشعور به اتباع طريق يوصل إليه، فالغرض هو الذي يملى على الإنسان اختياره الطريق. يشعر المريض بالمرض، فيمتنع عن تناول الطعام حتى لا يزداد به المرض، وإذا أراد شخص أن يقضي الليل في التسلية فإن هذا الغرض هو الذي يملى عليه الذهاب إلى دار الخيالة.

كذلك اصطياد الفريسة وشل حركتها، ووضعها في الجحر بجانب البيض هو طريق لهذا الغرض، وهو أن تكون مؤونة للصغار حين نقف البيض وتخرج منه.

ولكن الحيوان لا يدرك أو لا يشعر بالغرض الذي يحقه العمل الغريزي. والدليل على ذلك أن تعديل الظروف الخارجية لا يدفعه إلى تعديل العمل الغريزي، بحيث يلائم هذه الظروف؛ هذا ما نعنيه بقولنا إن الغريزة عمياء.

مثال ذلك أن النحلة التي تملأ الخلية بالعسل، تظل تملؤها على الرغم من وجود ثقب صغير في قرار الخلية يسيل منه العسل فلا تمتلئ أبداً.

يذكر "فابر" مشاهدته عن حشرة تشل حركة فريستها ثم تجرها إلى جحرها، وتتركها بالباب، ثم تدخل الجحر، وتدور فيه كأنها تتحقق من عدم وجود غريب في داخله، ثم تخرج ثانيًا لتدخل الفريسة. فتربص "فابر" لها وكلما دخلت الجحر أبعد الفريسة عنها، فتذهب الحشرة، وتجر الفريسة وتتركها بالباب، ثم تدخل الجحر وحيدة وتتأمل فيه، ثم تخرج، فإذا بالفريسة بعيدة عن الجحر، فتبدأ هذه العملية من جديد، وظل "فابر" يردد هذا العمل عددًا كبيرًا من المرات، والحشرة لا تزال تكرر هذا السلوك. ولكن "فابر" بذكر في مكان آخر "إن حشرة أخرى لم تكن في بلاهة الأولى، فقد تناولت فريستها بعد التجربة الثالثة، ودخلت بها إلى الجحر".

ومن هذا يتضح لنا أن التجربة الشخصية تعدل من العمل الغريزي. وعلى ذلك

فإن الغريزة ليست عمياء على الإطلاق.

التقسيم الثلاثي للغريزة:

الغريزة من الظواهر النفسية وقد ذكرنا في تحليل الظاهرة أن لها ثلاثة أوجه: إدراك ووجدان ونزوع. وهذا الكلام ينطبق على الغريزة.

فإذا داس أحد على قدمك، يحدث إدراك ووجدان ونزوع. فتدرك أن هناك من داس على قدمك، وتدرك اتساخ الحذاء، وهذه هي الناحية الإدراكية ثم نشعر بالألم وتنفعل بالغضب، وهذه هي الناحية الوجدانية؛ ثم تنزع إلى ضرب من داس على قدمك، أو إهانته بالكلام بصوت عال، وقد لا تفعل شيئاً، إذ يظل النزوع كامنًا دون أن يتحقق.

وفي كل غريزة نجد هذا المظهر الثلاثي، ولكن أوضح الثلاثة هو النزوع. وهناك من يقول بأنه الانفعال، لأنه في بعض الأحيان يكون هو الأوضح، ولكن الغالب هو الجانب النزوعي، ولذا يميل الكثيرون إلى تسمية الغريزة بالمظهر النزوعي منها، فيقولون غريزة المقاتلة دون الغضب، والهرب دون الخوف.

والجانب الوجداني له أهمية كبيرة في سلوك الكائن، فالقطة تنزل إلى الحقل وتقف بين الأعشاب، فترى بعضها يتحرك، فتقف القطة وتقترب بحذر، وتبحث، فإذا رأت طائرًا هجمت، وإذا رأت كلبًا فرت، فسلوك القطة هنا يبدأ بالاهتمام المصحوب بالانتباه والاستطلاع، ولكن إقدامها أو تراجعها هو نتيجة السرور أو الخوف.

ولا يلزم أن يكون الجانب الإدراكي من الغريزة شيئًا محسوساً، فقد يكون تذكرًا لشيء سالف حصل لك فيما مضى، ويسبب لك الدافع الغريزي والانفعال. فإذا تذكرت المشادة التي حصلت بينك وبين صديقك وتذكرت الألفاظ الجارحة التي وجهها إليك، فإنك تنفعل انفعال الغضب، وتنزع إلى المقاتلة، فتظهر عليك آثار هذه الغريزة واضحة جلية، حتى أن جليسك يلحظ منك هذا ويعجب. وهذا كثير الوقوع، لأنك تجد شخصًا يجلس هادئًا فيتذكر منظرًا مخيفًا فيخرج عن هدوئه، ويتكلم في

صوت عال "أعوذ بالله..." وهذا هو المظهر النزوعي للخوف والدهشة.

وقد لا يكون الجانب الإدراكي شيئًا محسوساً، ولا شيئًا تتذكره، ولكن قد يكون صورة خيالية تبتدعها في ذهنك؛ فإذا تخيلت في الظلام عفريتاً، فإنك تضطرب وتخاف وتطلق ساقيك للمريخ.

فلا بد للغريزة أن يكون هناك مؤثر خارجي يستثيرها، قد يكون شيئًا محسوسًا خارجياً، وقد يكون ما تتذكره أو تتخيله. ولا بد من وجود الإدراك حتى تتم الغريزة، فإذا رأى الطفل الصغير ثعبانًا ولم يدرك أنه سيلحق به أذى، فإنه لن يخاف منه ولن يهرب. فالمهم هو حصول الإدراك سواء أكان حقيقيًا أم وهمياً. فإذا هجم عليك لص في يده سكين هربت، وإذا توهمت في الظلام وجود لص هربت أيضاً.

فالغريزة تتوقف إلى حد كبير على الجانب الإدراكي، وإذا اعترض بعض الغرائز وقت ظهورها ما يمنع تنفيذها فإنها تموت إلى غير عودة. فالفرخ الصغير عنده سيلان، ميل إلى الاستئناس وميل للخوف. فإذا فصلته منذ الصغر وحيدًا فإنه يميل إلى الاستيحاش وينفر من الناس، بينما إذا عودته منذ الصغر أن يتصل بغيره، فإنه يميل إلى الاستئناس حين يكبر.

إعلاء الغريزة:

للجانب النزوع من الغريزة شطران، الأول القوة الدافعة، والثاني طريقة تنفيذ ما تدعو إليه هذه القوة. وقد وجدنا أن الغريزة عند الحيوان، على الأخص ضروب الحيوان الدنيئة، تتحقق في الغالب كاملة عند أفراد النوع بصورة واحدة كالنمل يبني خليته السداسية بشكل واحد لا يتغير. فهو يحقق الميل الغريزي لبناء الخلية، وطريقة بنائها، بشكل واحد. والفرق بين الإنسان والحيوان في هذه الناحية، هو أن الإنسان له حرية اختيار الطريقة التي ينفذ بها الميل الغريزي، فلدينا جميعًا ميل إلى الهرب وتجنب الأخطار، ولكن شخصًا يهرب جرياً، وثانيًا مختفياً، وثالثًا متسلقًا شجرة، ورابعًا راميًا بنفسه في الماء؛ بينما النعامة حين يطاردها الصيادون تضع رأسها في

الرمل، زاعمة أنها ما دامت لا ترى الصياد فإن الصياد لا يراها. ويحقق الإنسان الأول(١) دوافعه الغريزية بصورة متسقة تقريباً، وقد هبطت إلينا هذه الصورة عن طريق الوراثة، فالأصل في غريزة المقاتلة أن تظهر في صورة الصراع، والضرب باليدين أو القدمين، والعض والصراخ، ثم أصبح الناس في المدنية الحديثة، وإذا بهذه الأعمال الغريزية لا تتفق وإياها، فماذا هم فاعلون؟ هذه مشكلة صعبة الحل وهي: وجود الدوافع الغريزية التي تريد أن تجد لها مخرجًا من جهة، والإنسان في الوقت الحاضر لا يريد تنفيذها لأنها تضره، ولا تتفق مع المدنية الحديثة من جهة أخرى. فصورة المقاتلة التي ذكرناها كريهة حقاً، ولكن القوة الدافعة إلى الكفاح فطرة ثابتة في النفس، لا يمكن محوها أو استئصالها. هذه القوة وغيرها من الميول الفطرية مثلها مثل ماء النهر المتدفق الدائم الجريان، إذا وضعت سدًا يحول دون الماء فإنه لا يقفه، بل يحدث إما أن يطغي الماء الدافق على السد فيحطمه، وإما أن يكون السد منيعًا فيتسرب الماء في مسارب خفية ينصرف فيها، وكلا الأمرين مضر. فإذا وقفت أمام الطفل الصغير تمنعه من الحركة والكفاح، فإنك بهذا تضع سدًا من التقاليد الاجتماعية يحول دون انطلاق القوة الكامنة عند الطفل في مجراها الطبيعي، وحينئذ إما أن يثور الطفل فيخرج شريرًا مشاكساً، وإما أن يهدأ في الظاهر ولكن قوة الكفاح تنصرف إلى مسارب معوجة وطرق غير مستقيمة، فيضرب إخوته الأصغر سنًا دون ذنب أو يتلف الأشياء التي تقع بين يديه.

يجب إذن أن نوفق بين كل هذا، أما القوة الدافعة، وهي الشطر الأول من الغريزة، فلا بد أن نتركها كما هي لأنها فطرية ولا يمكن محوها أو تغييرها، أما تحقيق الغريزة فلنا معه شأن آخر، ذلك أننا نستطيع أن نعدل مجرى الغريزة وتتسامى بها ونوجهها وجهة أخرى، ونتعالى بها عن مجراها الطبيعي إلى ما هو خير للإنسان، وما فيه نفعه، وما يتفق والمدنية الحديثة، وهذا ما يسمى في علم النفس بالإعلاء.

---

(١) L'homme Primitif.

على هذا نستطيع أن نوجه غريزة الكفاح وجهة رياضية كالمصارعة ولعب كرة القدم، أو مكافحة مشاكل الحياة التي تعترضنا والانتصار عليها، إلى غير ذلك مما سيأتي ذكره بالتفصيل فيما بعد.

الغرائز الإنسانية:

من العسير تمييز الغريزة عند الإنسان، لأن فصل الميول المكتسبة عن الفطرية كثير الصعوبة بالنظر إلى ما طرأ على الإنسان من آثار الحضارة، وما اكتسبه عن طريق المحاكاة والتقاليد والعادات والعقائد. فلا بد لنا في البحث عن الغريزة الخالصة من هذه الآثار المكتسبة، أن نرجع إلى الطفل الصغير، أو الإنسان الأول. والطفل أوضح في الدلالة لأنه لازال بعيدًا عن تأثير الكسب والمادة (وإذا استطعنا أن نعزله، كما فعل "سبالدنج" مع صغار الحيوان، كان ذلك أفضل). ولكن هذه الطريقة لا تفيدنا إلا في العهد الأول من عهود الطفولة، إذ يندرج الطفل بعد ذلك في المجتمع والبيئة. فإذا فعلنا ذلك فإننا نجد بعض الأعمال الرضاعة، والخوف من الظلام، والخوف من الضوضاء والأصوات الشديدة، كل ذلك فطري عند الطفل.

وغرائز الإنسان كثيرة، وقد اختلف العلماء خلافًا كبيرًا في تصنيفها، ولكننا إذا قسمناها تبعًا لموضوعها فإننا نحصل على الثبت الآتي.

ذلك أن الحيوان يحتاج لحفظ حياته أن يتغذى، وأن يدافع عن نفسه، وأن يعرف ويميز الوسط المحيط به، وأن ينسل. وإذا كان الحيوان اجتماعيًا فلا بد أن يتصل بأفراد نوعه. هذه الغرائز المختلفة توجد كذلك عند الإنسان لأنه نوع من الحيوان.

غرائز البحث عن الطعام:

ليس شك في أن الطفل يؤدي كثيرًا من الوظائف العضوية بالفطرة، وذلك نظرًا لحاجة الجسم الماسة إليها، وبدونها تتعطل الحياة؛ من هذه المطالب ما يؤديه الجسم دون تدخل الإرادة، كالتنفس والهضم وإفراز الفضلات. والطعام من الضرورات الأولى التي لا يمكن أن يستغني عنها الإنسان أو الحيوان، ويكفي أن تتصور الإنسان

في حالة مجاعة لترى كيف يفقد كل معاني الإنسانية التي اصطلحنا عليها، حتى لقد يصل به التوحش أن يأكل لحم أخيه الإنسان.

والرضاعة عند الطفل فطرية، وهو في مبدأ الأمر يضع كل ما تقع عليه يده في فمه، حتى لقد يمص أصبعه. وكثيرًا ما يصطحب الإنسان هذه الغريزة الأولى معه طول حياته، وهذا هو السبب في أن كثيرًا من الأشخاص يقرضون أطراف أصابعهم، أو يضعون أقلام الرصاص في أفواههم... الخ. ويرى "فرويد" أن المرور من التدخين يرجع إليها.

ويتصل بالبحث عن الطعام غريزة الصيد. والحيوان على وجه العموم تحصل على غذائه عن طريق الصيد، وكذلك كان الإنسان الأول، ولكننا نلجأ إلى ذلك في الوقت الحاضر؛ ومع ذلك فالميل إلى الصيد والمطاردة كثيرًا ما يظهر عند الإنسان المتحضر. فالطفل يلذ له أن يقتنص الحشرات في الحدائق، وأن ينصب الفخاخ للعصافير وأن يصطاد السمك. ومن اللهو الذي يفتن كثيرًا من أفراد الطبقات الرفيعة صيد الحيوانات البرية.

غرائز الدفاع:

نستطيع أن نقسم الدفاع إلى مجموعتين، الأولى الدفاع عن الجسم فسيولوجيا، ويتصل بهذا النبذ أو النفور والتقزز، والثانية الدفاع لحفظ الحياة، وذلك يكون بالهرب أو الكفاح.

١ - النفور والتقزز[١]:

الأصل في التقزز أن يكون دفاعًا عن الجهاز الهضمي. فالطفل يضع في فمه كل شيء يصادفه، ولكنه يبعد عنه كل ما لا يستسيغ طعمه أو يكره رائحته، ثم ينتهي الأمر بالإنسان أن يتعود التقزز من ألوان معينة من الطعام. لذلك تجد كثيرًا من الأشياء تؤكل في جهة، ويتقزز منها في جهة أخرى. مثال ذلك أن الصينيين يأكلون

---

(١) Repulsion, degout.

لحم الكلاب ويستطيبونه، بينما نحن نتقزز منه.

ويتصل بالتقزز بعض المظاهر الجسمية كالبصق.

أما النفور فهو الابتعاد عن الأشياء التي تضر سطح الجلد، مثل وقوع بعض الحشرات الطفيلية كالذباب وغيره على الوجه. ويقال إن الأصل في النظافة برجع إلى هذه الغريزة، ولكن هذا الرأي مشكوك فيه، لأن الإنسان إذا شرك وشأنه فإنه لا يبدي أي ميل للنظافة.

فالتقزز والنفور ميلان الغرض منهما الدفاع العضوي، ويتصل بهما الاحتقار،

وحينئذ تشكل ملامح الوجه هذه الصورة المعروفة، وكثيرًا ما يبصق الإنسان لإظهار الاحتقار.

٢- الخوف والحرب:

الهرب قوة الغرض منها الدفاع عن الكائن بأكمله، لا عن جزء من الكائن. فتقلص اليد عند وخزها بدبوس لا يعد دفاعًا عن الجسم بأجمعه، بل فعلًا منعكسًا ووسائل الدفاع عند الخوف ثلاث: الصياح، والهرب، وتوقف الحركة. فالطفل الصغير يصيح، وحينا يكبر يهرب أو يقف في مكانه، وكلما تقدمت به السن تعلم أن يحبس الصياح.

ومن بواعث الخوف عند الطفل الصغير الضوضاء، والأصوات العالية المفاجئة، والإشفاق من الوقوع، والظلام والوحدة، ورؤية بعض الحيوانات كالثعبان والعنكبوت. والإنسان الأول والحيوان يخافان من الظواهر الطبيعية، مثل الرعد القاصف، والبرق اللامع، والعواصف الثائرة.

وأغلب مؤثرات الخوف عند الإنسان اكتسبها بالتعود، ونستطيع أن نرجعها إلى كل ما يلحق الأذى بالإنسان. وقد يكون الخطر حقيقيًا كما يكون وهمياً، والخطر الحقيقي قد يكون ماديًا مثل وجود الشخص في منزل يحترق، وقد يكون معنويًا كخوف الموظف من الرفت، والطالب من الرسوب في الامتحان. أما الخوف من

المؤثرات الوهمية فأساسه الخرافات التي تشيع في أذهان العامة، مثل الخوف من الأشباح والعفاريت.

هذا وقد تغيرت المؤثرات التي تدفع إلى الخوف في العصر الحاضر. فالإنسان الآن، يخاف من الأمراض المعدية، ويخشي سقوط مركزه الاجتماعي، ويهرب من المجتمع إذا اضطر إلى مخالفة تقاليده.

٣- الكفاح والغضب:

ليس الهرب الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الكائن، بل هناك وسيلة أخرى هي الكفاح، وهو قوة تدفع الإنسان إلى أن يقاتل ويقاوم إذا رأى هناك خطرًا عليه، أو مسه أحد بسوء، وذلك إما باغتصاب ما يملكه الشخص، وإما بحرمانه الوصول إلى رغبة، وإما محاولة التغلب على شيء من الأشياء.

ومظهر غريزة المقاتلة حين تتحقق كاملة يكون في صورة الصراع، والضرب باليدين أو القدمين، والعض، والصراخ.

وهي أوضح عند الإنسان غير المتمدين والطفل والحيوان. فإذا اقتلع أحد زراعة فلاح ضربه بالفأس دون أي تفكير. وإذا أخذت لعبة الطفل، أو حرمته تنفيذ رغبة يريدها، هم بضربك أو أجهش بالبكاء. وإذا اعتديت على قطة في بيتك، بأي نوع من أنواع الاعتداء، زمجرت غضباً، وأخذت تموء مواء الشر والمقاتلة، وحاولت أن تهجم عليك.

وقد أسدلت التقاليد المصرية رداء كثيفًا يحجب هذه الصورة الوحشية من المقاتلة، فأصبح الإنسان يدفع العدوان بحجة اللسان، وانصرف الأمر من الاعتداء البدني إلى الانتصار المعنوي، فيستعمل المقاتل طرق الدس والإيقاع في الخفاء، والتشهير بين الناس بالشتائم والهجاء، وتربص فرصة ضعف الخصم لإلحاق الأذى بأملاكه أو عرضه أو ماله أو مركزه، إلى آخر هذه الألوان من الرياء والمداهنة. وقد تقع المقاتلة في الاصطلاح كالمبارزة، ولكن أغلب الدول منعتها في الوقت الحاضر.

وكثيرًا ما يمزق الإنسان هذا الغشاء الرقيق من العادات فيرجع إلى حالة الوحشية الأولى منفذًا المقاتلة بالعدوان، وذلك إذا كان باعث الغضب قوياً. كذلك انتقل تحقيق صور المقاتلة من يد الفرد إلى سلطان الجماعة، التي تحكم على المعتدى بقوة القانون. ومع ذلك فكم القضاء حتى ولو كان قاسياً، فإنه لا يشبع رغبة الشخص في المقاتلة.

والمغالبة في الصورة المعنوية لغريزة الكفاح؛ فمغالبة صروف الحياة، وحل المشاكل العلمية، ومعارضة شهوات النفس إلى غير ذلك، هي ألوان من الكفاح، وكأنها ضروب من المقاتلة، لأن الإنسان يقف أمام أعداء يحاول الانتصار عليهم. فصروف الحياة، ومشاكل المعلم، وشهوات النفس، هي أعداء تحول دون رغباته.

ومؤثرات هذه الغريزة هي محاولة الإضرار بالإنسان بأي شكل من الأشكال. وتبتعث عند الحيوان إذا هوجم أو حرم من طعام، أو اعتدى على صغاره. ويقاتل الإنسان كل من يتدخل في أموره وأعماله، ويكافح كل عقبة تقف في سبيله.

وقد يكون مثار الكفاح جماداً، قد تكتب رسالة لا يعجبك إنشاؤها فتمزق أوصال الورق في حدة وعنف. والنجار الذي يعسر عليه دق مسار، تجده يضرب بالقدوم الأرض، ويرمى الآلات التي يعمل بها بعيداً.

وقد يقاتل الإنسان دون سبب ظاهر، كالطفل الذي يضرب أخاه الأصغر أو الحيوانات المستأنسة الموجودة في المنزل، أو كصاحب العمل الذي ينفجر غضبًا معتديًا على عماله؛ والباعث هنا، طبقًا لرأي علماء التحليل النفساني وعلى رأسهم "فرويد" يرجع إلى عقدة نفسية مستورة في اللاشعور، تحاول الظهور بين حين وآخر في هذه الصور التي ذكرناها. فالطفل الذي يضرب أخاه الأصغر، يكون والده قد ضربه بقسوة قبل ذلك، ولم يستطع أن يقف أمام والده موقف الند ويرد عدوانه، فتتسرب هذه القوة نحو أخيه.

وإذا كان الكفاح فطريًا لا نستطيع أن نمحوه من النفس، أو نقف في سبيله لأنه

ينقلب عند ذلك شراً، فكيف تتسامي بهذه الغريزة إلى خير الإنسان ونفعه وما يتفق والمدنية الحديثة، دون أن نتركها تجري في مجراها الطبيعي، في صورة المقاتلة وسفك الدماء؟ وكيف نسمو بها عند الأمم التي تسلك مسلك الأفراد فتقتص لنفسها بالحرب؟

لتكن هذه المقاتلة في صورة رياضية، بدل أن يقاتل الإنسان أخاه، فتشبع الغريزة من جهة، ونكتسب صحة ورياضة من جهة أخرى، وهذا هو السر في انتشار الألعاب الرياضية السامية الغرض. فالملاكمة والمصارعة ولعب كرة القدم والسباحة... إلخ. كلها تعتبر منافذ تنساب منها مياه الدافع الغريزي للمقاتلة. ونستطيع أن نستغرق قوة الكفاح في مغالبة المشاكل العلمية، فننتصر على الجهل ونكتشف مجاهل العلم في جميع نواحيه. والدفاع عن المبادئ الفكرية والدينية والسياسية والخلقية والوطنية يحتاج إلى كثير من الجهاد والكفاح والمغالبة.

والغرض من الكفاح والمقاتلة هو الدفاع عن النفس الذي يؤدي إلى حفظ الحياة. ومع تعارض الكفاح والهرب، فكلاهما دفاع عن النفس، ومن اجتماعهما يحدث اتزان تخرج منه الحياة المثلى للإنسان، أي يهرب وقت الهرب، ويكافح وقت الكفاح. وتتنجه شخصية الإنسان تبعًا لتغلب إحدى الغريزتين، فمن يسود عنده الكفاح يسمي شجاعًا أو متهوراً، ومن يتغلب عنده الهرب يسمي جبانًا.

الاستطلاع:

حب الاطلاع قوة تدفع الإنسان إلى أن يتعرف المجهول. وهذه الغريزة في الأصل ضرورية لمعرفة البيئة المحيطة بالإنسان، إذ أن سلوكه يتشكل حسب هذا الإدراك. ويصحب الاستطلاع الانتباه، الذي يعتبر تمهيدًا للإدراك، فيحدق الإنسان عينيه ويرهف أذنيه، ويفتح حواسه جميعًا لاستقبال المعرفة الجديدة. فالطفل الحديث الولادة يتبع برأسه وعينيه الأشياء التي تتحرك أمامه. ولا يكتفي الإنسان بمجرد المشاهدة، بل يلجأ إلى التنقيب للوصول إلى اكتناه الحقائق. فيكسر الطفل لعبته ويفككها ويمزقها، وقد تراه يعذب حيوانًا صغيراً، فيشده ويجذبه، والحقيقة هنا أنه يلبي دافع

الاستطلاع. والطفل نزاع إلى تفسير الظواهر التي تقع تحت خبرته، وهو شديد الظمأ إلى المعرفة، ولذا كان كثير السؤال عن أسباب الأشياء، فيصوغ أسئلته في ثوب التعليل الذي يبدأ بكلمة "لماذا". وكثير من أسئلته محرجة، لأن العلم لم يصل إلى تفسيرها. كأن يقول "لماذا تذوب قطعة السكر في الماء بينما الملعقة لا تذوب؟" وفي كثير من الأحيان يسأل الطفل لمجرد السؤال، لا يطلب جوابًا بل هي طبيعة الاستطلاع التي تدفعه إلى ذلك، والدليل على هذا أنه يسألك فإذا شرعت في الإجابة انصرف إلى لعبته دون أن يهتم بك.

هذه الغريزة هي أساس العلم والمعرفة، فالعلوم المختلفة والمكتشفات المتعددة والمخترعات المتباينة هي نتيجة هذه الفطرة. لذلك يجب أن تفسح المجال لظهورها، بأن نسهل التعليم، ونظم المحاضرات والمناظرات، ونكثر من دور الكتب، ونعنى بإصدار الكتب والصحف، وإقامة المتاحف والمعارض والمؤتمرات، وتشييد المعامل التي أصبحت لا غنى للعلم عنها.

الاجتماع:

الإنسان حيوان اجتماعي، لا يستطيع إلا أن يعيش مع غيره من بني الإنسان. والاجتماع غريزة فطرية. تأمل في صميم نفسك تجد أنك تحب الحياة في رفقة غيرك وتكره العزلة. وإنك لتسعى إلى الوجود بين الناس ولو أنك لن تستفيد منهم شيئاً. انظر إلى المتفرج في ملعب كرة القدم، إذا كان وحيدًا منفردًا لا يوجد متفرج غيره بجانبه، لا يدخل إلى نفسه السرور بخلاف ما إذا كان الملعب حافلًا بالمتفرجين. والعزلة قاسية، إذا طالت فإنها قد تؤدي إلى الجنون، ولهذا كان أشد أنواع الحبس قسوة هو السجن الانفرادي. وقد يعترض بعض الناس بأن هناك من يميل إلى العزلة كالنساك، وهؤلاء قلة نادرة لا نأبه لها، لأن أحكامنا نصدرها على أغلبية الناس. والحقيقة أن أسبابًا قوية هي التي تدفع المعتزل إلى الهرب من الناس، وفي عقول هؤلاء مرض في الغالب، فهم شواذ.

ومثل الإنسان، مثل كثير من الحيوانات الاجتماعية، لا يختلف عنها في شيء من

هذه الناحية، أي حب الاجتماع.

السيطرة والانقياد:

ما فطرتان متصلتان بالغريزة السابقة. ذلك أن أفراد المجتمع لا يتشابهون تشابها مطلقاً، بحيث يكونون على نمط واحد، بل يتدرجون في سلم القوة والضعف، والسيطرة والانقياد، والرياسة والخضوع؛ وهذا هو الحال أيضًا في المملكة الحيوانية، فللنحل ملكة وجنود وعمال.

هذا النظام التدرج في المجتمع هو سر صلاحه، فلو أن الجميع كانوا بقوة واحدة لتعارضت هذه القوى، ولكن البعض يميل إلى السيطرة، والبعض الآخر إلى الخضوع. هبك تركت عددًا من الأطفال في مكان واحد، فإنك تجد أحدهم يتزعم الباقين ويقودهم، ويصدر إليهم أوامره، ويملى عليهم إرادته. وللسيطرة مظاهر كثيرة، قد تكون بالقوة الجسمية، أو بالقوة المعنوية والفكرية. وقد يكون الإنسان رئيسًا في وقت، وخاضعًا في وقت آخر، كالطالب يتزعم أقرانه بينما ينقاد لأسر المدرس.

والانقياد قد يكون عن حب أو خوف، فالوالد كثيرًا ما يذعن لرغبة ابنه الصغير، وذلك عن حب. ويقول "هو بس" إن الدولة تقوم على الخوف، وهذا صحيح إلى حد كبير، فالإرهاب وسيلة من وسائل الحكم ولكن حكومات الإرهاب لا تقف على أقدامها إلا إذا كان الشعب راضيًا عنها، إذ أن معنى انقياد الشعب الحكم ديكتاتور هو رضاه عنه.

والانقياد فطرة طبيعية أيضاً، ويكفي أن تنظر إلى الكلب الذي يزجره صاحبه فيقعي ويجلس بجانبه، فهو لا يجرى ولكنه ينقاد في خضوع. وإذا نظرت إلى جماعة من الطيور الداجنة كالدجاج، فإنك تجد أنها ليست مجموعة من الأفراد كل فرد وحدة قائمة بذاتها، يعيش منفصلًا عن غيره، بل هي جماعة يسودها نظام وحكم. فهي تتزاحم على الرياسة حتى إذا تغلبت إحداها بحكم قوتها تصبح زعيمة الجميع، ثم ينقاد لها الباقون بالإجماع.

النزعات العامة

وقع في اصطلاح فئة من العلماء أن يفعلوا بعض الميول الفطرية العامة عن الغرائز، لأنها تفقد شرطًا من شروط الغريزة، وهو أن الانفعال لا يصحبها. هذه النزعات العامة هي الإيحاء، والمشاركة الوجدانية، والتقليد(١). وهي كلها نزعات اجتماعية نتيجة وجود الإنسان في المجتمع، إذ لا بد من تفاعل يتم بين الناس حين بتعاون في المجتمع، وهذا التفاعل عبارة عن تأثير وتأثر.

هذا التأثير إما أن يكون إدراكيا. أو وجدانياً، أو نزوعياً، تبعًا لتحليل الظواهر النفسية الذي سبق. فالتأثير الذي تغلب عليه الناحية الإدراكية يسمى الإيحاء؛ وذلك الذي يتميز فيه الوجدان يطلق عليه المشاركة الوجدانية أو التعاطف؛ أما التأثير الغالب فيه النزوع فهو التقليد.

الإيحاء:

من طبيعة الإنسان أن يقبل أفكار غيره، ويصدق بها، وليس العكس. فإذا رويت قصة لأحد أصدقائك فإنه يصدقها، ولا يشك فيها إلا إذا استبان مآخذ تؤخذ عليها. والإنسان قليلًا ما يعمل فكره في الآراء التي تقدم إليه، أو يقابلها بعضها ببعض، هل هي صادقة أم كاذبة، صحيحة أم خاطئة؟ وهو أكثر تأثرًا بالآراء الشائعة، والعرف السائد. فاستعداد المرء للتأثير والتأثر بالأفكار والمعتقدات هو ما يسمى بالإيحاء. وقد يكون الإيحاء مقصوداً، وقد تتأثر به عفواً.

يتفاوت الناس في قبولهم للإيحاء حسب قوة إرادتهم وتفكيرهم، وحسب شخصية صاحب الإيحاء. فإذا فطن الإنسان إلى التأثير الواقع عليه فإنه يعارض في ذلك، ولكنه بالرغم من هذه المعارضة قد ينتهي به الأمر إلى قبول الفكرة.

ويكون الإيحاء قويًا إذا كان صادرًا عن شخصية كبيرة بالنسبة إلى من يوحى إليهم كالملك والرعية، والزعيم والشعب، والرئيس والمرؤوس، والمدرس والطلاب. وترجع

---

(١) Suggestion, Sympathie, Imitation.

قوة الشخصية إلى الثروة أو الجاه، أو اللقب أو المركز أو العلم.... إلى غير ذلك من الصناعات التي تضاف إلى الناس. ويجب أن يتوفر في الموحى الإيمان والثقة، ولذا قيل إن الإيمان بالنجاح نصف النجاح. ويجب أن يصحب الإيمان بالشيء الأمر به، مصوغًا في صيغة الجزم. وللتكرار أثر كبير في قبول الإيحاء، لأن تكرار الأشياء يسهلها حتى في الأمور العقلية، ومن هنا كان الإعلان في حاجة إلى التكرار المستمر، وخضوع الإنسان للمعتقدات أثر من آثار الإيحاء.

والإيحاء العكسي هو الذي ينتج عكس المقصود. فقد يريد البائع أن يوحي إلى المشتري فكرة جودة البضائع، فيغالي في مدحها، فيزهد المشترى فيها.

المشاركة الوجدانية أو التعاطف:

هي انتقال الانفعالات والعواطف من شخص إلى آخر. وهي نزعة فطرية موجودة عند الطفل والحيوان الراقي. فالطفل يصيح إذا وجد غيره يصيح. والقردة تفرح وتتألم فرحًا وألمًا مشتركين. وينتقل الانفعال من شخص إلى آخر كالعدوي. فإذا وجدت شخصًا خائفاً، فإنك تخاف أيضًا دون سبب؛ هذا التعاطف هو أساس العزاء عند الموت، والتهنئة عند الفرح. والمشاركة الوجدانية إذا شاعت في المجتمع أدت إلى وحدته. وارتباط الأمة هو نتيجة اشتراك أفرادها في آمال أو آلام واحدة. والمشاركة الوجدانية أساس كثير من أفعال البر، فقد ينكب بلد بالزلازل أو العواصف، فيسرع الناس من جميع الجهات إلى مساعدة أهله، كما لو أن الكارثة حلت بهم.

التقليد:

إذا اجتمع عدد من الطير فوق شجرة فيكفي أن يطير أحدها حتى يطير الجميع، وإذا عوى كلب عوت باقي الكلاب، وإذا جرى طفل جرت جميع الصبية دون أن يعلموا لماذا يركضون. ومن المناظر المألوفة أن تجد الطفل الصغير يتناول العصا ويمشي بها كما يفعل أبوه. فهناك نزعة عند الإنسان تدفعه إلى تقليد حركات الغير وإشاراته ولفتاته وأصواته وأعماله. ومن غرائب المحاكاة التي لم يعرف تعليلها على وجه التحقيق

حتى الآن التثاؤب.

ووظيفة التقليد عظيمة الأمية، إذ بها تكتسب بداية الأعمال الجديدة. وإذا كان الإنسان سلسلة من العادات، فمبدأ العادة غالبًا يكون منشؤه محاكاة الغير. فالطفل حينما يتعلم الكلام أو الكتابة يكتسبهما عن طريق المحاكاة.

ويعلل بعض العلماء ميل الإنسان إلى التقليد بأنه يسعى إلى الحصول على مدح الغير. ومن ذلك أن الطفل يقلد المحيطين به ليحصل على تقدير الناس له. وليس هذا التفسير صحيحًا على الإطلاق، بل يرجع التقليد إلى طبيعة الانقياد، إذ أن الإنسان يحاول دائمًا تقليد من هو أعظم منه شخصية. وهناك تعليل آخر يقوم على قانون الاقتصاد في الجهد، ومن مظهر هذا الاقتصاد عدم التفكير، فيكتفي الإنسان بأن غيره قد سبقه إلى التفكير في الرأي ليأخذ هو خلاصته، فإذا كان صاحب الرأي أو العمل ذا قيمة، كان هذا أدعي لقبولهما، وإذا اعتنقت الجماعة فكرة أو عملًا كان هذا سببًا لاعتناقهما.

الفصل السادس

العادة

كل شخص عندما يصحو من النوم، يستيقظ في الغالب في ساعة محدودة خاصة، حتى إن الطالب الذي تعود الذهاب إلى المدرسة في الصباح مبكراً، يجد نفسه يستيقظ يوم الجمعة – وهو يوم عطلة – في نفس اللحظة التي يستيقظ فيها كل يوم. ثم ينهض من الفراش ويغتسل، ويتناول طعام الإفطار، ثم يرتدي ملابسه. كل هذه الأعمال يؤديها الشخص كل يوم بالترتيب السابق. بل أكثر من هذا، هل لاحظت نفسك وأنت تلبس "الجاكتة" أي كم تضع فيه ذراعك أولاً، الأيمن أم الأيسر؟ إذا لاحظت نفسك تجد أنك، إذا كنت تلبس بذراعك اليمني ، فأنت تلبس كذلك دائماً، لا تغير هذه الطريقة، حتى إنك إذا شئت يومًا أن تخالف هذا الترتيب والنظام، فإنك تجد من الصعوبة والعناء الشيء الكثير. ويذهب الموظف إلى محل عمله كل يوم، ويسلك لذلك شوارع معينة، حتى إذا وصل إلى مفترق الطرق، انعطف إلى اليمين مثلاً. فإذا خرج يومًا متجهًا إلى غير محل عمله، ووصل إلى مفترق الطرق، انعطف إلى اليمين، بينما يريد أن يتجه إلى الشمال. هذا السلوك هو نتيجة العادة.

فالأعمال التي تجرى بنظام خاص، ونتبع في أدائها طريقًا لا تتغير، تسمي الأعمال العادية.

ما هي العادة؟

المادة ميل مكتسب إلى أداء عمل من الأعمال بشكل إلى، مثل الكتابة، وركوب الدراجة، والتدخين.... إلخ.

وهي نتيجة التعلم والكسب.

وتمتاز بأن استمرار الإنسان على أدائها، يصل بالعمل إلى الكمال والدقة.

وتمتاز أيضًا بقلة الانتباه، ومعنى ذلك هو انتقال العمل من بؤرة الشعور إلى هامش الشعور. فسائق السيارة، الذي يتعلم قيادتها، تكون حركاته غير سديدة، ويفكر منتبهًا إلى كل حركة يريد أن يؤديها. فإذا تعلم القيادة، فإنه يحرك يديه وقدميه دون أن يشعر، ودون انتباه، كأنه آلة تتحرك. وتجد لاعب "البيانو"، الذي تعود العزف على هذه الآلة، يمر ببنانه على أصابع المعزف فيخرج النغم الذي يريد، دون أن ينتبه إلى أصابعه أو إلى أصابع المعزف.

ويقصر بعض العلماء العادة على تعلم الحركة، فيخرجونها بذلك من ميدان الإدراك والوجدان. وبذلك تصبح العادة ظاهرة عضلية، وتفسر العادة على هذا الأساس بأن تكرار الحركة يجعل العملات المتصلة بهذه الحركات أكثر قبولًا لتأديتها. وتمتاز العادة عن الذاكرة باعتبار أن الذاكرة ظاهرة تتصل بالمخ. ونستطيع أن نقول إن العادة ذاكرة حركية **Memoire motrice**(١).

وتندرج هذه العادات الحركية من البساطة إلى التعقيد. فأبسط هذه العادات ما يكون في الأصل أفعالًا منعكسة، مثل بعض حركات اليد ولفتات الوجه؛ ومنها ما هو أكثر تعقيدًا كالأعمال التي نؤديها كل يوم، مثل طريقة اللبس والأكل وصعود الدرج... إلخ. وأكثر من هذه الأعمال تعقيدًا ما يحتاج إلى تدريب خاص، كقيادة السيارات والعزف على الآلات الموسيقية.

ولكن أغلب العلماء قد اصطلحوا على إطلاق العادة أيضًا على الأعمال العقلية والوجدانية. وحينئذ تشمل العادة الظواهر النفسية بجميع وجوهها من إدراك ووجدان ونزوع.

والعادات العقلية هي الميل النفساني إلى سلوك نظام ثابت في بعض الإنتاج العقلي، مثل استعمال قواعد النحو والصرف، أو طريقة جدول الضرب، أو اتباع

---

(١) Nouv. Traite de Psych. Vol. IV P. 70, par Pieron.

أسلوب خاص في التفكير، وهذا هو الذي يجعلنا نتميز الكتاب المختلفين من قراءة أساليبهم.

والعادات الوجدانية هي تلك التي تتصل بالانفعالات والعواطف، مثل حب الحقيقة والحياة والجمال.

تكوين العادة:

لابد من أساس ترتكز عليه الأعمال العادية التي تكتسبها بالتدريب. والأساس الأكبر هو الغرائز، أي هذه الميول الفطرية، فالمشي ميل فطري، ولكن طريقة المشي عادة. فالعادات امتداد للغرائز. وللإيحاء والمحاكاة أثر كبير في توجيه العادات، ثم يرتكز الإنسان على العمل الذي يؤديه أول مرة، ويكرره مرة فأخرى حتى تكون العادة. فالتكرار هو العامل الأساسي البارز في بناء العادة، ولكنه ليس العامل الوحيد، لأن المادة ليست عملًا آليا فحسب، بل هي مع ذلك "ميل" إلى أداء هذا العمل الآلي.

فكيف نصل إلى إيجاد هذا الميل من جهة، وهذه الآلية من جهة أخرى؟ يصحب تكرار العمل حذف الحركات الطائشة، التي لا لزوم لها، والتي بالتخلص منها يصبح العمل أكثر دقة وكمالًا وسهولة. هذه السهولة تنشأ من أن التيار العصبي يتجه في الخلايا العصبية الحركية، عابرًا "الوصل" التي تضعف مقاومتها للتيارات التي تتوالى من نوع واحد، فيسهل بذلك تكرار العمل(١). وتصدر الأعمال من مناطق الحركة في المخ، ثم تمر في أعصاب الحركة إلى النخاع المستطيل، ومنه إلى الشق الجانبي الأمامي من الحبل الشوكي الذي تخرج منه الأعصاب الأمامية المحركة. وإذا أصيبت إحدى هذه المراكز أدت إلى توقف بعض الحركات.

ومن العادات ما تجد في نفسك ميلًا إلى عملها، وإذا ما جاء وقتها ولم تتم، تشعر بنوع من الألم، مثل عادة التدخين، أو عادة الشخص الذي ألف أن يذهب إلى

---

(١) راجع صفحة ٣٥.

المقهى يمضي فيه طول الليل. ومن الأعمال مالًا تجد في نفسك ميلًا إلى أدائها إلا إذا دفعت إلى ذلك، وإذا ماحان وقت عملها لا تتألم، فما هو السبب في هذا؟ إذا كانت نتيجة العمل ارتياحًا ولذة، أصبح العمل من النوع الأول، والعكس يكون في العمل الثاني. فالشخص الذي يجد في اختلافه إلى المقهى يمضى فيه وقته لذة وارتياحاً، إذا ما جاء وقت الذهاب إليها، شعر في نفسه بميل يدفعه إلى الذهاب، وإذا لم يذهب تألم. بينما المريض الذي يتناول الدواء المر كل يوم، إذا ما شفي لا يتعوده لأنه لا يرتاح إليه.

فائدة العادة:

١- توفير الوقت والمجهود

لا نزاع أن العمل العادي يكون أسرع من غيره، وبذلك يوفر الإنسان وقتًا لا يستهان به، فالطالب ينهض من النوم ويذهب إلى المدرسة في نصف ساعة لا أكثر، والشخص الذي تعود أن يكتب على الآلة الكاتبة لا يستغرق وقتًا طويلاً، أما المبتدئ فإنه شديد البطء. ولو أنك فكرت في كل جزء من أجزاء أعمالك، كيف تلبس وكيف تناول طعامك، وكيف تختار الطريق إلى محل عملك، لصرفت في كل ذلك ما يزيد أضعافًا في الوقت.

والأعمال العادية نرددها دون تعب، والعمل الجديد هو الذي يتعبنا. فالحصان المتعود جر المحراث في الحقل يتعب إذا جر العجلات في الطرق، بينما المتعود جر العجلات في الطرق يتعب من الحرث. والكاتب يجلس إلى مكتبه خط ساعات متواليات دون نصب، بينما الفلاح الذي يضرب بفأسه الأرض من الصباح إلى السماء، يتولاه الجهد والإعياء إذا ما تناول القلم وزاول الكتابة نصف ساعة فقط. وأهل الراحة والكسل والبطالة لا يتعبون من الجلوس الليل بأكمله، بينما الطفل أو الرجل النشيط الذي تعود الحركة والحرية بسأم من الجلوس ساعة واحدة.

والعادة توفر الجهد العقلي أيضًا، فهي التي تمنع من التردد في تصريف الأعمال.

فأنت في حيرة هل تحضر الدرس، أو تذهب إلى دار الخيالة، أو تختلف إلى المقهى؟ هل تتبع هذه الطريق أم تلك؟ هل تساعد الضعفاء وتعطف عليهم أم لا؟.... ألخ، ولكنك بالعادة تختط لنفسك الطريق التي تتبعها دون تردد.

٢- اكتساب المهارة والإتقان.

ذلك أن العمل العادي يصبح آلياً، ومعنى ذلك أن المراكز العصبية تبعث على السلوك دون انتباه أو تفكير أو تردد. فجميع الأعمال العادية تصبح أسهل في أدائها، وأتقن في تنفيذها.

وينشأ الإتقان من أن كل عمل مكون من عدة عناصر، فالسباحة مثلًا ليست علية واحدة، ولكنها مركبة من عدة عمليات من مجموعها تتكون العادة، وهذه العناصر هي: استعمال يدك اليمنى واليسرى، وموضع جسمك من الماء، وكيفية التنفس.... إلخ، فالعادة إن هي إلا إتقان هذه العناصر المتعددة الواحد بعد الآخر ، مع حذف الأخطاء والحركات الطائشة، وبذا يصبح مجموع العمل آليًا أي أسهل وأتقن. ولولا العادة ما استطعنا في الكتابة مثلًا أن نكتب في هذه السهولة وهذا الإتقان، بل كنا أشبه بالأطفال في تحسسهم وتعثرهم، وليس هذا مقصورًا على العادات الحركية فحسب، بل على العادات العقلية أيضاً. فالتفكير، وأسلوب الكلام، وتعلم الحساب، لا يتقن كل ذلك إلا بالعادة. فأنت في الحديث والكتابة تحفظ جملًا بأكملها وترددها دائماً. وفي الحساب تقول ٥× ٦ = ٣٠ نتيجة العادة.

٣- العادة وتكوين الشخصية:

شخصية المرء الواضحة المتميزة القوية، إنما تكون كذلك، لأن الشخص يضع نصب عينيه غرضًا – ساميًا كان أم وضيعًا – ثم يتوجه إلى هذا الغرض الواحد المحدود بكلية نفسه، فيتهج كل السبل التي توصل إليه. والوصول إلى ذلك الغرض يتطلب الإلحاح والمثابرة، والتوافر على العمل المتواصل حتى يتم، فإذا تردد في أدائه متخذًا إلى ذلك سبلًا متعددة متضاربة، لم يصل إلى غرضه، بل يصبح قلقًا مذبذباً. وإذا لم

يصبح العمل الذي تقوم به وتردده عادة، فإنك لن تعمل شيئًا واحدًا مرتين بشكل واحد، وعلى ذلك تصبح لك شخصية جديدة في كل لحظة. وفي هذه الحال لن تعرف نفسك، ولن يعرفك الناس. فالأعمال التي تكسونا رداء الشخصية هي الأعمال العادية. هذه الأعمال التي تصدر عنا دون عناية أو انتباه، هي خير دليل على أخلاقنا وشخصيتنا، فتستطيع أن تعرف شخصًا من مشيته، من أسلوبه الكتابي، من نبرات صوته.. إلخ.

وقد عرف رجال الشرطة هذه الحقيقة، أي انطباع شخصية المرء بطابع الأعمال العادية، فأصبح من السهل لديهم الآن أن يبحثوا وراء المجرمين، ويصلوا إلى القبض عليهم. فهناك لص متعود سرقة الحلى، وآخر يسرق الماشية، وثالث ينشل الجيوب... إلخ، وكل منهم متعود هذا النوع من السرقة لا يعدوه، ولا يفكر في غيره، بل يرتب سرقته بشكل واحد مخصوص، يكون عنوانًا عليه، ودليلًا على ارتكابه هذا الجرم.

ومن ناحية أخرى أدرك المجرمون الفطنون هذه الحقيقة أيضًا، فأصبحوا يغيرون الطرق التي يتبعونها في ارتكاب جرائمهم، ويتخلصون من عاداتهم المتسقة المقيدة، حتى لا يكتشف رجال الشرطة أمرهم فيقتفوا آثارهم.

ضرر العادة:

تمر العادة في دورين: دور التكوين ودور الثبات[١]. ودور التكوين سلسلة من التغييرات تصيب أجزاء العمل في أثناء مرات التكرار، حيث يتخلص صاحب العادة في هذا الدور من الحركات الطائشة والزائدة ليصل بالعمل إلى الإتقان والكمال.

أما في دور الثبات، فإن العادة تصل إلى درجة تقف عندها، ولا يتقدم بها الإنسان. والسر في ذلك أن هناك "لحظة اتزان"[٢] بين حاجة الشخص ورغبته، وبين الوسط الذي يعيش فيه. مثال ذلك: إنك تريد أن تتعلم الكتابة، لأن البيئة تتطلب

---

(١) Phase de formation et phase d'etat.

(٢) Etat d'equilibre.

أن تكون متعلمًا إياها، ولكن ينبغي أن يضاف إلى ذلك أن تكتب بطريقة "مقروءة" مما يتطلب أن يكون رسم الحروف على شيء من الجمال، لذلك تظل "تتعلم" حتى تصل إلى هذه الدرجة من جمال الخط، وسرعة الكتابة، وفي هذه الحالة يتم "الاتزان" بين رغبتك الداخلية والبيئة الخارجية، فتقف عند ذلك الحد، وتكتفي بذلك دون محاولة التقدم، أو تغيير هذه العادة التي تكونت.

ولكن هل حالة الثبات في العادات تظل جامدة لا يتناولها أي تغيير؟

الواقع أن التكرار المتواصل يضيف تغييرًا ولو طفيفًا على شكل العادة، خصوصًا إذا صحب التكرار قليل من الانتباه والشعور والشوق[١].

وإلى جانب ذلك نجد بعض العادات تصل في حالة الثبات إلى درجة من الجمود، حتى لتنزل منزلة الطبع، ولذا قيل "المادة طبيعة ثانية" وكثيرًا ما يحاول صاحب العادة أن يعدها، ولكنه لا يستطيع، لأن العادة تمكنت من نفسه وطبعت جهازه العصبي بطابع عميق. كصاحب الخط الرديء الذي يجمد فلا يستطيع تحسينه.

أما الأسباب التي تدفع الإنسان إلى تغيير عاداته، فمرجعها إلى ملاءمة نفسه بالبيئة. فالوسط الذي نعيش فيه دائم التطور والتغيير، وهناك ظروف تضطر المرء أن يتلاءم وإياها. وإليك ظاهرة شاهدها المصريون أخيرًا تدل دلالة واضحة على مقدار ثبات العادة وصعوبة تعديلها والتخلص منها، وضرر العادات المتأصلة تبعًا لذلك:

ارتفع من القطن المصري بعد الحرب العظمي مباشرة، وأثري أهل الريف ثراء كبيراً، وقدم كثير من أعيان القرى إلى المدن كالقاهرة، وبنوا فيها الدور، واقتنوا السيارات، وأحاطوا أنفسهم بالخدم، وعاشوا معيشة الرفاهية زمناً، ثم انخفضت أسعار القطن انخفاضًا كبيراً، وأصبحت ثروة الفلاح لا تسمح له بالمعيشة في المدن على ذلك النحو من الترف. فحالة "الاتزان" تقضى أن يخفض هؤلاء القوم من نفقاتهم بحيث تلائم المعيشة الجديدة الثروة التي يحصلون عليها. فهل فعلوا؟ أو هل استطاعوا

---

(١) Psych. Par Guillaume P. 187.

أن يفعلوا؟.

كثير منهم ظل يجري على عاداته السابقة، مستعينًا على قضاء حاجاته بالاقتراض، حتى ركب أغلبهم الدين. وفي هذا الدليل على صعوبة التخلص من العادة، وعلى ضرر العادة السيئة إذا لم نتخلص منها.

تكوين العادات الجديدة:

لابد للإنسان من اصطناع العادات لأنه لا يمكن أن يعيش بغير ذلك. فالإنسان سلسلة من العادات تمشي على قدمين. وكثيرًا ما تعترض الإنسان في حياته أمور يودان يتعلمها ويتعودها، كتعلم اللغات الأجنبية، أو الصناعات المختلفة، أو الآلات الموسيقية، أو الألعاب الرياضية. وهناك بعض القواعد تؤدي إلى سهولة بناء العادة نجملها فيما يلي:

١- فكر قبل أن تبدأ:

كل عمل إنساني في بداية أمره يقوم على فكرة، ولا نستطيع أن نتصور كيف يفعل الإنسان أمرًا دون أن يفكر فيه أولاً، إلا إذا كان مسوقًا أو مأمورًا سواء بطبيعة غرائزه الفطرية، أم بسلطان الإيحاء الخارجي. فإذا كنت جالسًا وتعبت من الجلوس، فإنك تفكر في القيام أولًا ثم تقوم بالفعل. وهذا هو النظام الطبيعي للأشياء، إذ ليس من المعقول أن تكتب رسالة لصديق ثم تفكر في كتابتها بعد كتابتها. وكلما اقتنع الإنسان بفكرة وبحثها من جميع نواحيها، وأدرك فائدتها وصوابها، ونزلت من نفسه منزلة العقيدة، كانت باعثًا قويًا يدفع الإنسان إلى القيام بتنفيذها.

٢- ابدأ بقوة شديدة وعزيمة قوية:

وسبب هذا أنك تريد بناء طبيعة جديدة تحتاج في مبدأ الأمر إلى كثير من العناء في تكوينها. وكثيرًا ما يتعثر ويتألم كل من يتعلم عملًا جديداً، فيكون الألم باعثًا على الصدوف عن العمل، لذلك ينبغي أن تكون العزيمة التي تبدأ بها شديدة قوية حتى تحملك على جناحها زمنًا طويلاً، تتكون في خلاله العادة.

٣- لا تتمهل ولا تسوف:

متى اقتنعت بصحة الفكرة وعزمت عليها فتوكل، ولا تؤجل عمل اليوم إلى غد، إذ أن هذا الإمهال والتسويف يضعفان من حدة العزيمة الأولى التي ستبدأ بها فلا تجد بعد ذلك دافعًا قويًا يحملك على تكوين العادة.

٤- احذر الشذوذ ولو مرة واحدة:

إذا وصلت إلى تكوين العادة الجديدة، فإنه ينبغي أن تسير عليها دون أن تشذ عن النظام الذي تتبعه ولو مرة واحدة، لأن هذه المرة الواحدة التي تستثنيها من نظام العادة تهدم جزءًا كبيرًا مما تعبت في بنائه. فإذا كنت تتعلم الموسيقى فتقول في نفسك "لأهملن هذا اليوم" فيكون هذا الإهمال هو السبب في هدم العادة وزلزلتها، إذ تكون المادة في طفولتها وضعفها.

٥- أعمل يوميًا عملًا حسناً:

وفائدة هذا هو تمرين الإرادة حتى تصبح قوية، فتستطيع بإرادتك أن تبني ما تشاء من عادات، فعليك أن تقوم بأداء بعض التمرينات الرياضية ربع ساعة كل صباح، أو أن تقرأ في كتاب مفيد كل يوم ساعة معينة. يحكى أن "كانت" الفيلسوف الألماني كان يخرج من منزله كل يوم بعد الأصيل في ساعة معينة للتريض، حتى إن كل من عرفه كان يضبط ساعته وقت خروجه، وذلك لدقته الشديدة.

الإقلاع عن العادات السيئة:

هذه القواعد التي ذكرناها فيما يختص بتكوين العادات الحسنة، تستطيع أن تستفيد منها حينما تريد أن تتخلص من العادات السيئة.

وليس مجالنا بيان العادات الحسنة والقبيحة، فمرجع هذا هو علم الأخلاق. وهناك بعض العادات اتفق الناس جميعًا على ضررها كشرب الخمر ولعب الميسر والتدخين. وسنذكر بعض القواعد التي تستطيع أن تستعين بها على الإقلاع عن العادات التي تعتقد أنها ضارة.

١- استبدال عادة بأخرى:

لما كان الإنسان عبارة عن سلسلة من العادات، فمعنى ذلك أن أعماله جميعًا أو أغلبها نتيجة العادة. فإذا أقلعت عن عادة من العادات أصبح مكانها شاغرًا يناديك دائمًا بملئه بعادة جديدة. فإذا لم تسرع بملء "خانة" العادة القديمة لم تجديدًا من الاستمرار عليها. فإذا شئت أن تقلع عن التدخين فاستبدل بها عادة أخرى من نوعها تكون مفيدة، كأكل الحلوى كما شئت أن تدخن، فتشغل بذلك يدك وفمك بعمل آخر.

٢- اجعل نتيجة العمل ألماً:

ذلك أن نتيجة العمل إذا كانت ألمًا لا يميل الشخص إلى القيام به وترديده، ولو أن العمل يصبح أسهل وأكثر إتقاناً.

٣- تجنب ما يذكرك بالعمل:

لكي تقطع الصلة بتاتًا بالعادة القديمة، ينبغي أن تبعد عن جميع الظروف المحيطة بهذا العمل التي تؤدي إلى توجيه نظرك إليه وتذكيرك به، ودفعك إلى القيام به. خذ مثل السكير الذي يشرب الخمر ويريد أن يقلع عنها، ينبغي أن يتجنب مخالطة إخوانه الذين كان يحضر معهم مجالس الشراب، لأن وجوده وأياهم يذكره بما تعوده.

الفصل السابع

الحياة الوجدانية

الألم واللذة[١]

كل ظاهرة نفسية تتحلل إلى ثلاثة وجوه: الإدراك والوجدان والنزوع. وقد درسنا من الظواهر النفسية طائفة من النزعات الإنسانية، بعضها فطري وبعضها مكتسب، هذه النزعات هي أساس السلوك عند الإنسان. ويصحب الميل إلى العمل حالة وجدانية، إما أن تكون عامة هي الألم واللذة، وإما أن تكون خاصة هي الانفعالات المختلفة، مثل الفرح والحزن والغضب والخوف والخجل والدهشة. هذه الانفعالات تتعقد وتتركب فتسمى عواطف. وسندرس هذه الحالات الوجدانية على الترتيب، مبتدئين بالألم واللذة، ثم بالانفعالات والعواطف.

والألم واللذة اصطلاحان أوليان لا يمكن تعريفهما بغيرها، أو تحليلهما إلى عناصر أكثر بساطة، لأنهما حالتان شخصيتان نشعر بهما كما هما.

وهناك لذة وألم ماديان، ولذة وألم نفسيان. فالنوع الأول يرجع إلى إحساسات جسمية، ويكون مصدر اللذة أو الألم محدودًا معروفاً، كالألم من جرح أو حرق، واللذة من مذاق طعام. وقد يشيع الألم أو اللذة بحيث لا يعرف مصدرهما فتوصف الحالة الوجدانية بالارتياح أو عدم الارتياح. أما النوع الثاني فهو الألم واللذة النفسيان، كالارتياح الذي يصيب الإنسان عقب النجاح في مشروع أو الحصول على مرغوب، أو كالألم الذي يقترن بفقد عزيز أو تأنيب الضمير. وهنا يقترب الألم واللذة من الانفعال بحيث يصعب التمييز بدقة بين الفريقين.

---

(١) La douleur et le plaisir.

وتمتاز اللذة والألم بالتقليب المستمر، بينما الناحية الإدراكية من الأشياء تكون ثابتة إلى حد كبير. فإدراكنا لتفاحة في شكلها وحجمها ورائحتها ومظهرها الخارجي هو هو لا يتغير، ولكنك قد ترتاح إلى تذوقها مرة ولا ترتاح مرة أخرى.

ويتأثر الألم واللذة تأثرًا نسبيًا بالحالات الجسمية والعقلية التي يتوقفان عليها. فالمتصوف الديني يجد في الألم لذة، والجندى لا يشعر بجراحه في ساحة الحرب كما يشعر بها وهو منقول إلى المستشفى. فالموازنة بين اللذة والألم تلعب دورًا هامًا في الحياة الوجدانية، وكثير من اللذات والآلام لا توجد إلا بالنسبة لحالات سابقة عليها، فلذة النجاح تتناسب مع صعوبة الأمل المطلوب.

وتضعف اللذة عندما تذهب جدة الأمر الذي يبعثها، إذ يحدث إشباع لحاجة النفس، كما لو كان الإنسان جائعًا وأكل. فالأشياء التي تتكرر أمام الإنسان تنتهي به إلى أن يتعودها، فيقف منها موقف فيه كثير من عدم الاهتمام، أما الألم فقد يزداد باستمراره.

الانفعالات[(١)]

الانفعال هو حالة نفسية وجدانية يصحبها اضطراب نفساني وجسماني. فإذا كنت جالسًا تقرأ في جريدة، ثم وقع بصرك على نعي وفاة صديق لك، فإنك تنفعل انفعال الحزن. وإذا دخلت منزلك كالعادة فوجدت لصًا يهجم عليك، مهددًا إياك بسكين حادة تقع في يده، فإنك تنفعل انفعال الخوف. وإذا كنت متدثرًا برداء جديد تختال به، ثم تنزلق قدمك فينسخ رداؤك ويتمزق، فإنك تنفعل انفعال الغضب أو الخجل... فما هو السبب في هذه الانفعالات.

تجرى حياة الشخص في سلسلة من الميول والعادات، يتطبع بها ويوطن النفس عليها. فإذا حدث ما يخالف نظام التفكير العادي، فإنه يصطدم بشيء جديد غير

---

(١) Emotions.

منتظر مخالف للعادة، فتحدث "صدمة نفسية"[١] هي التي تسبب اضطراب العقل والجسم.

ويأتي الانفعال فجأة دون تمهيد، كالسيارة التي تجري على الأرض الممهدة السهلة، ثم تصطدم فجأة بجدار أو شجرة أو أي شيء آخر، فتضطرب وتهتز. فتفكيرك العادي الذي يجري مجراه الطبيعي، هو أن صديقك حي يرزق، ثم تقرأ الجريدة تطلع فيها على الأخبار، فإذا بك تفاجأ بنبأ وفاته على غير انتظار، فتحصل هذه الصدمة النفسية التي نسميها الانفعال. وكلما كانت العادات التي يعارضها الأمر الجديد متمكنة من صاحبها، قديمة التكوين، كان الانفعال أقوى وأشد.

ولابد من وجود مؤثر خارجي يؤدي إلى الانفعال، الذي يتوقف على إدراك الشخص للمؤثر. فإذا أدرك أحد الناس "نكتة " في حديث ضحك، وإذا لم يدركها لم يضحك. فالمؤثر في الأمثلة السابقة هو: نبأ الموت أو هو اللص الذي يهجم عليك، أو هو الانزلاق والوقوع. ولا ينبغي أن يكون المؤثر شيئًا مادياً، فقد يكون ما نتذكره أو ما تتخيله؛ فالأم حين تتذكر موت ابنها تنفعل انفعال الحزن وتبكي، وإذا تخيل شخص أنه راكب طيارة ووقت به فإنه يخاف.

أثر الانفعال في العقل:

إذا حللنا الحالة العقلية وقت الانفعال نجد أن الانتباه بعد أن يكون هادئًا عاديًا بحيث يدرك الإنسان أغلب ما يمر به من حوادث، يتركز في مصدر الانفعال فقط وينصرف عن كل ما عدا ذلك. ويتوقف تركز الانتباه على حدة الانفعال، لذلك لا يدرك الشخص الأشياء التي تحيط به، كأنها غير موجودة. كذلك تنقطع سلسلة تداعي المعاني، وتتجه الخواطر في طريق جديد أساسه مصدر الانفعال. فالتاجر الذي تسلسل الأفكار في ذهنه ويدور محورها على هذا النسق: البضاعة، وأنواعها، وثمنها، والعملاء، والديون التي له والتي عليه... إلخ، إذا سرق لص حافظة نقوده انقطعت

---

(١) Choc.

سلسلة تفكيره الأولى وبدأ يفكر في اللص، وكيف يمسك به وكيف يعاقبه، وكيف وقعت السرقة، وماذا يعمل إذا لم يعثر على الحافظة...إلخ.

وقد يزداد النشاط العقلي وقت الانفعال، فتزداد حدة الخيال، ويهبط على الإنسان نوع من الإلهام يبتدع به الأمور الجديدة، بعد أن يكون العقل جدباً. والانفعال يبعث على اختراع الأفكار الجديدة، فالغيرة بين الطلبة في المدرسة دافع إلى إحرازهم السبق في العلوم.

وقد يؤدي الانفعال إلى شل حركة الفكر والعمل، بحيث يضطرب التفكير، ويرتبك الشخص حتى يعسر عليه فهم الموقف المحيط به، ولا يدري ماذا يقول أو يفعل، وقد يصل به الأمر إلى حد البلاهة.

ومهما يكن من شيء فإن الإنسان في ساعة الانفعال يفقد قوة ضبط النفس، فتصدر الأعمال لا عن روية وتفكير وعزيمة، بل عن نزوة واندفاع، لأن الإنسان لا يكون له سلطان على نفسه. وإذا كان حقًا أن التفكير قد يعمق، والخيال قد ينشط، فهو تفكير يطغي على صاحبه، فلا يستطيع أن يوجه كما يريد. وهذا الاضطراب العقلي مدعاة إلى فقدان قوة الحكم والنقد، فيصبح الإنسان عرضة للاستهواء وسهولة التصديق.

وكثيرًا ما يكشف الانتقال قناع العادات المكتسبة والآداب المتبعة، فتبرز سريرة الشخص خالصة من غشاء التقاليد ورداء العادات، حتى ليرجع الإنسان إلى الحالة الحيوانية أو يتصرف تصرف الطفل.

أثر الانفعال في الجسم:

يصحب الانفعال تغيير في مظاهر الجسم الباطنة والظاهرة.

والأثر الباطني للانفعال يتناول جميع أجهزة الجسم، كالجهاز الدموي والتنفسي والهضمي، والغدد. وسنقصر بحثنا على دراسة الخوف.

ففي حالة الخوف تزداد ضربات القلب أو تضعف، والغالب في ذلك هو ازدياد

ضربات القلب، ويصحب ذلك انقباض الأوعية الدموية فينحبس الدم عن سطح الجلد.

أما التنفس فيضطرب في نظامه وعمقه، ويبذل الإنسان جهدًا في الشهيق والزفير؛ وقد أجرى العلماء تجارب عدة على الإنسان في الحالات المختلفة من الانفعال، وسجلوا رسومًا بيانية تبين الصفة التي يكون عليها التنفس.

ويحصل في الجهاز الهضمي توقف حركة المريء، والمعدة والأمعاء الموجية، كذلك يتوقف إفراز اللعاب، ولذا يشعر الإنسان بجفاف في الفم، وتتوقف إفرازات المعدة، ويفقد الإنسان الشهية، وتشل العضلات القابضة، فينتج عن ذلك تساقط البول، وهذا أثر لشل عضلة المثانة القابضة.

أما الغدد فقد يقف إفرازها، كالغدد اللعابية، أو تنشط بعض الإفرازات مثل الدموع، والصفراء، والبول، والعرق البارد.. ويفرز "الأدرنالين" بكميات قليلة في الدم، وهو مادة تفرز من الغدد الموجودة فوق الكلى فتهيج كثيرًا من الوظائف الباطنية في الجسم، مثل ازدياد الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، وقد ثبت ذلك من التجارب التي أجريت على الجرذان، ثم يتأثر الكبد فيخرج إلى الدم كمية عظيمة من السكر الحيواني المخزون به، وقد تزداد كمية السكر في الدم إلى حد أن ينصرف إلى البول، وقد شوهدت هذه الحالة في بعض! لاعبي كرة القدم قبيل إقدامهم على المباراة، وفي بعض الطلاب قبل الامتحان. وقد يؤدي الخوف الشديد، أو الرعب المستمر، إلى الهرم المبكر، ويصحب ذلك المشيب.

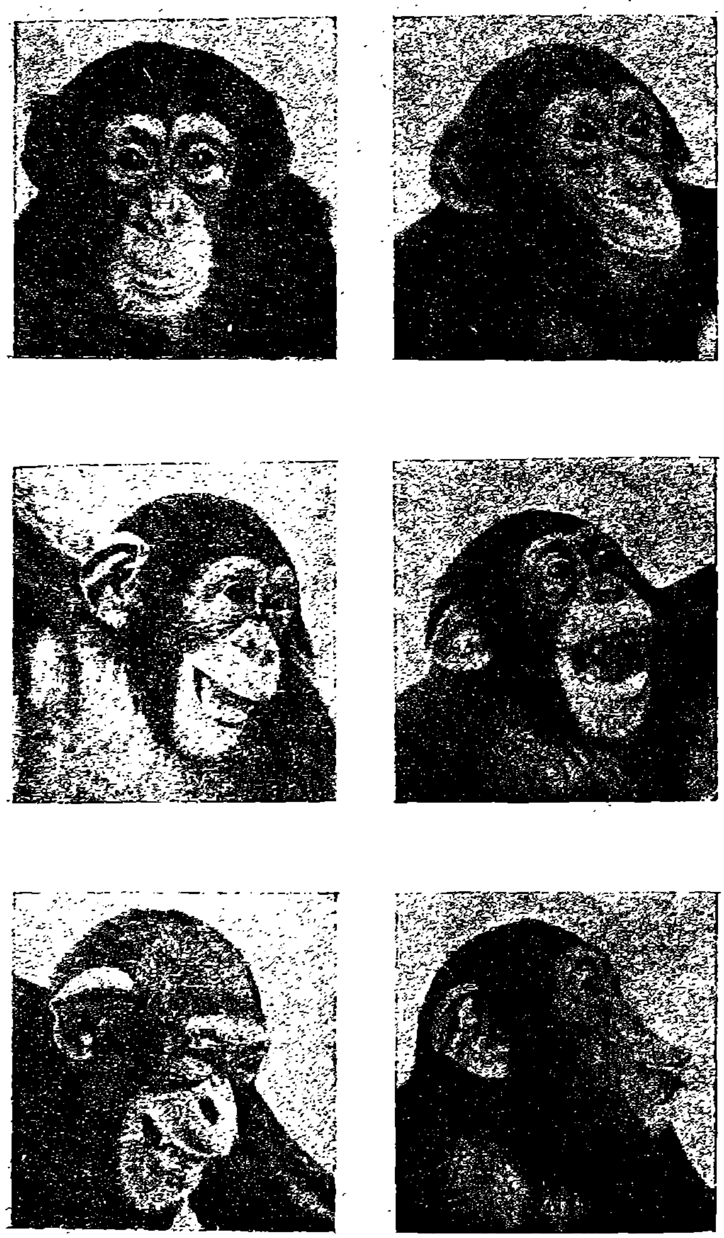
ويصحب الخوف تأثر الجهاز العضلي تأثيرًا يؤدي إلى انعدام السيطرة الإرادية، فينتج عن ذلك الرعشة، وشلل الأرجل.

وينتج عن الانفعال تغيير ظاهر في ملامح الوجه، وفي حالة الخوف يصفر الوجه، وتغور الوجنتان، وينحسر الفك الأسفل، وتتسع حدقة العين.

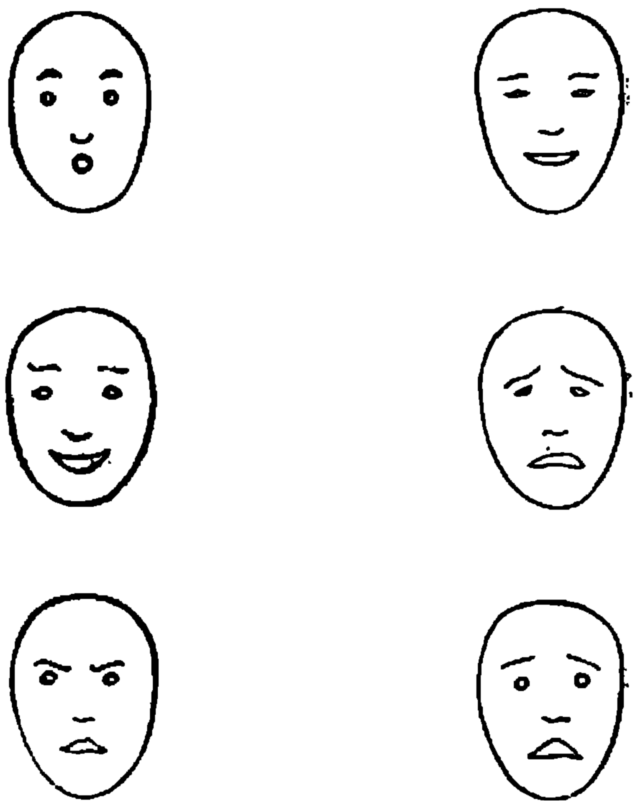


(شكل ٦) الرعب

والخلاصة أن الانفعالات المختلفة مثل الفرح والحزن والغضب والدهشة والإعجاب والضحك والقلق.... إلخ، يصحبها تغيير في جميع أجهزة الجسم الباطنة وفي ملامح الوجه، ويختلف هذا التغيير شدة وضعفًا باختلاف الانفعال. ومن الإطالة أن نذكر جميع هذه الانفعالات بالتفصيل، ويستطيع القارئ، أن يلاحظها بنفسه. ومن الظريف أن نذكر أن ملامح الحيوانات تتغير في أثناء الانفعال.



(شكل ٧) أثر الانفعال على الحيوان



(شكل ٨) ملامح الوجه عند بعض الانفعال كما يراها العالم "فرابا"

(انظر شكل ٧). وقد أورد العالم "فرابا **Frappa**" رسمًا كروكيًا للملامح التي تصحب بعض الانفعالات كما هو واضح في (شكل ٨).

لماذا تنفعل؟

ليس تقليل الانفعال بالأمر السهل، وقد تضاربت النظريات في ذلك.

وأول هذه النظريات تقول بأن الانفعال هو نتيجة الشعور بالموقف الخارجي الذي يبعث الانفعال. ولكن ليس مصدر الانفعال هو كل شيء، فقد يكون الخطر واحدًا فيخاف شخص ويحتفظ آخر بهدوئه، وكلاهما يشعر بالخطر. فالقول بأن الشعور بالمؤثر الخارجي هو السبب الوحيد الذي يؤدي إلى الانفعال لا يفسر لنا

المثال السابق. كذلك هناك انفعالات كثيرة لا يتبين الإنسان مصدرها، فالمنقبض المزاج، الذي يظل حزينًا عدة أيام متواليات، قد تمر به حوادث مبهجة فلا يفرح لها. وكثيرًا ما يثور الإنسان لأتفه الأسباب، والحقيقة هنا أن نفسه غاضبة فيلتمس أي شيء ليبرز الغضب.

والنظرية الثانية على النظرية الأولى، فبدلًا من اعتبار الآثار الجسمية نتيجة الأفعال، يقولون بأن الانفعال هو نتيجة هذه الظواهر الجسمية، والاضطرابات العضوية. وتفسير ذلك أننا نخاف لأننا نرتعش، ولا ترتعش لأننا نخاف؛ ونحن نحزن لأننا نبكي، ولا نبكي لأننا في حزن. ولابد بطبيعة الحال من إدراك المؤثر الذي يبعث الانفعال، ولكن لا على أنه سبب الانفعال بل باعتبار أنه واسطه فقط. ويعترض على هذه النظرية بأنه إذا كان الأمر كذلك، ففي استطاعتنا أن نفعل في أي وقت تشاء بالإرادة. فيكفي أن يجمع الإنسان قبضة يده، ويرفع صوته، ويعض نواجذه حتى يغضب، فهل هذا صحيح؟ إن المثل على خشبة المسرح لا يفعل إلا كما ذكرنا؛ فهو يتعمد إبراز الملامح والحركات والإشارات التي تدل على الحالة التي يستوجبها الموقف، وقد يندمج في تيار التمثيل فينفعل حقاً. فهل هذه الحركات هي التي أدت إلى الانفعال أم أن تصور باعث الانفعال هو الذي أدى إليه؟ وكلا الرأيين صواب في بعض الحالات.

أثر الانفعالات في حياة الإنسان:

الحياة بدون انفعالات تتخللها بين حين وآخر لا تكون حياة بالمعنى الصحيح، بل تكون إلى السكون أقرب منها إلى الحركة. لأن ما يميز الحياة هو التقلب والتغير، فالكائن الحي يولد ويكبر ويهرم، ويعتريه خلال ذلك الصحة والمرض والانتعاش والذبول، فما يكسب الحياة الصفة التي ينبغي أن تكتسبها، هي الانفعالات؛ فإننا لا نستطيع أن نجد للحياة طعماً، ولا نستطيع أن نستسيغها، وتجعلها لينة المأخذ سهلة القبول، إلا إذا تخللها كثير من الانفعالات. مثلنا في ذلك مثل الطعام الذي نتناوله، لا يكون لذيذًا مستساغًا مقبولاً، إلا إذا وضعنا فيه الملح والتوابل والبهار، التي

تكسبه الطعم والنكهة، واللذة والاستساغة، وتجعلنا فقبل عليها. فالحياة بدون الانفعالات تكون جافة لا طعم لها.

وقد عرف الغربيون هذه الحقيقة، فعملوا على ابتعاث الانفعالات في أوقات مناسبة حتى ينفخوا في حياتهم روح المرح والخفة. فتجد الزوج ينتهز فرصة عيد ميلاد زوجه، فيبعث إليها عن طريق البريد تحفة طريفة، كأن تكون عقدًا من اللؤلؤ أو خاتمًا من ماس، فتكون مفاجأة للزوج تنفعل لها انفعال الفرح والدهشة والإعجاب؛ أو كالوالد الذي ينجح ابنه في الامتحان، فيفاجئه بهدية ثمينة، كساعة ذهبية مثلاً، يكون لها من الموقع والأثر أكثر مما لو مهد لها بزمن طويل قبل الامتحان.

الانفعال والسلوك:

تظهر قيمة الأفعال الكبيرة في اتصالها بالسلوك الفطري للإنسان، ونعني به الغرائز المختلفة. فالغريزة التي تسعى لخير الناس كافة، لا تتحقق إلا عند ظهور الانفعال، هذا الانفعال الذي يكون ملائمًا مع طبيعة الوقف الخارجي. ففي حالة الخطر الذي يستوجب هجوم الإنسان دفاعًا عن النفس، يظهر الغضب الذي يفيض على الجسم بنشاط جديد، فتسرع حركة الدم، وتتسع حدقة العين لتكون أكثر بصراً، وعلى الجملة يتخذ الإنسان هيئة المقاتل استعدادًا للدفاع. وكثيرًا ما يكون سلوك الكائن فطريا وذلك حفظًا لكيانه. حتى قبل أن يتعقد الموقف، فكثيرًا ما يظهر الخوف على بعض الحيوانات بمجرد رؤية أعدائها، أو سماع صيحاتها، أو شم رائحتها. فالفرخ الصغير يختبئ حين يسمع صياح الحدأة لأول مرة.

أثر الانفعال الاجتماعي:

ثم إن الانفعالات وما يرتسم معها من ملامح تظهر على الوجه، لها أثر كبير في حياة الإنسان. لأن لكل انفعال ملامح خاصة تصحبه، فملامح الوجه عند الفرح غيرها عند الغضب أو الخجل أو الحزن. لذلك كنا إذا رأينا ملامح شخص ما، كان كافيًا لاستطلاع ما يختبئ وراءها من انفعال، فتستطيع أن تقرأ في صفحة وجه

صديقك، الغضب والحزن والفرح والإعجاب... إلى غير ذلك. كأن الانفعالات وما يصحبها من ملامح ترتسم على الوجه أصبحت لغة طبيعية بين الناس، يتعرفون بواسطتها إلى ما يدور بخلد بعضهم البعض.

ولكن هذه اللغة الطبيعية أخرجها الإنسان عن طبيعتها بالإرادة، تكلفًا لحالات يريد أن يظهرها، فهو يبتسم حين يريد أن يظهر الرضا، أو يعبس حين الغضب. ثم تحول هذا التكلف الإرادي إلى عادة يصطبغ بها الشخص، فهو يوزع الابتسامات على كل من صادفه، حتى أصبح الإنسان يضع ابتسامته على وجهه كما يلبس الشيخ عمامته. وآداب الاجتماع كلها، كخفض الصوت حين الكلام، وتعقيد الجنين إظهارًا للحزن... إلى غير ذلك، كلها انفعالات تحولت إلى عادات، وأصبحت رموزًا اجتماعية للتفاهم والتأثير بين الناس.

الانفعال والصحة:

إذا خرجت الانفعالات عن حدودها الطبيعية فأصبحت عنيفة، وتكررت لكثرة الطوارئ الفجائية في الحياة، تأثرت صحة للمرء إلى حد كبير، لأن الانفعال يؤدي إلى اضطراب جميع أجهزة الجسم الداخلية، فيختل نظامها. وإذا كان الانفعال عنيفًا فإن أثره قد يمتد بل بضع دقائق، إلى بضعة أيام. فالقطة التي أدخلوا عليها كلبًا شرساً، ظلت حركة معدتها متوقفة عن العمل مدة عشرين دقيقة، بالرغم من زوال مؤثر الخوف[1].

ومن الثابت في علم الطب أن الشلل النصفي، أو ما يسميه العامة "النقطة" سببه انفجار شريان فيحدث نزيف في المخ، أو انسداد شريان وحرمان جزء المخ الذي يغذيه من دمه. ومن الأسباب المباشرة لانفجار الشريان هو الانفعالات النفسية الشديدة.

وكثيرًا ما تؤدى الانفعالات إلى الأمراض العصبية كالهستيريا، وهنا يضاف عامل

---

(١) راجع ص٢٤.

جديد يؤثر مع الانفصال هو الإيحاء. ذلك أن الشخص يزيد في تأثير الانفعال عن طريق الإيحاء الشخصي والوهم، فيقدر للانفعال قيمة أكثر من قيمته. فإذا استطعنا أن نزيل هذا الوهم من ذهن صاحبه بالإغراء والإقناع، عولج الشخص وذهب عنه المرض. مثال ذلك مريض كان يعتقد أن برجليه شللًا فهو لا يتحرك فعلًا وذلك نتيجة رؤيته شخصًا مصابًا بهذا الشلل، فأثر في نفسه هذا المنظر أثرًا بليغاً، واعتقد بالإيحاء الشخصي أنه مريض لا يستطيع المشي وفي هذا المريض حين شرح له الأطباء وصف حالته، وسبب مرضه الوهمي.

وكثير من الأمراض العصبية، هي نتيجة العقد النفسية التي تخزن في اللاشعور، وتبعث على الاضطراب العقلي، وسندرس هذه الظاهرة في الكلام عن العواطف.

العواطف

يقولون عاطفة الحنان مثل حنان الأم نحو طفلها، وعاطفة الصداقة أي عاطفة شخص نحو شخص آخر يتخذه صديقًا له، وعاطفة الطفل الصغير نحو لعبته، فما هي هذه العاطفة؟ إذا عطفت الأم نحو طفلها، والصديق نحو صديقه، والطفل نحو لعبته، فإنهم يشعرون جميعًا نحو ما يتوجهون إليه بالعاطفة، بوجدان أكثر حدة وأشد تأصلًا من وجداننا نحو أشياء أخرى من نفس النوع. فالأم لا تعطف على جميع الأطفال على السواء، بل وجدانها لطفلها أكثر تأججاً؛ والصديق لا يشعر نحو كل الناس بنفس العاطفة، ولكن صديقه المختار يكون موضع عنايته. ولست تجد جميع الألعاب في نظر الطفل سواء، وإنما لعبة خاصة هي التي يختصها الطفل بعطفه أكثر من أي شيء آخر.

ومن الناس من درج في منزل خاص، نبت في كنفه، وشب بين جدرانه، وعاش تضمه حجراته المختلفات حينًا من الدهر، ثم انتقل صاحبنا من هذا المنزل إلى منزل آخر، مثل هذا الشخص لا نزاع في وجود عاطفة عنده نحو هذا المنزل القديم الذي كان يعيش فيه، ومعنى هذا أنه ينفعل إزاء ذلك المنزل أكثر من انفعاله من أي منزل آخر، وأكثر من هذا، فإن المنازل التي لا يعرفها لا ينفعل منها أصلاً؛ فهو يشعر نحوه

بنشوة الفرح، وهزة السرور، ويبعث فيه حين يمر به آهات من الأسف، ورنات من الإعجاب، وتقلبات بين الدهشة والاستغراب والحنين والقلق. فالشيء الذي يكون موضع العاطفة عند شخص يصبح مبعث هذه التأثرات الوجدانية جميعاً، وفي هذا دليل على أنه يميل إليه بكليته وينصرف إليه بجميع نفسه. فإذا سمعت أن صديقك في خطر، أو مسه أحد بسوء، فإنك تنفعل انفعال الغضب له، والخوف عليه، والقلق لما قد يحدث له... ألخ. وعلى العكس من ذلك إذا سمعت عن شخص لا تعرفه ولا تربطك به صلة، وليس بينكما أي عاطفة، إذا سمعت أنه في خطر فإنك قد لا تعبأ لذلك، وقد لا يثير هذا الخبر في نفسك أي أثر.

وفي كثير من الأحيان، لا ندري أننا في حال عاطفة إلا إذا حدث ما يهدد هذا الشيء الذي نعطف عليه. قد يظل الوالد يعنف ابنه، ويعلن بين الناس أنه عاق فاسد الأخلاق، فهو لا يحبه ولا يريده، بل يمقته ويكرهه، حتى إذا مرض الابن ولازم الفراش، وجدت أباه قلقًا عليه، يعمل كل ما في وسعه ليرفه عنه، فيحضر له الأطباء، ويسهر بجانبه، وكل هذا دليل على وجود العاطفة.

ثم إن العاطفة تنمو وتزيد وتعمق كلما زادت التجربة والمرانة، وكثرت الألفة واشتدت الصلة. ذلك أن العاطفة تجمع الانفعالات التي تنتج عن الحوادث المتصلة بشيء من الأشياء، فكل حادثة جديدة تخرج انفعالًا جديداً، يندرج في قائمة العاطفة، فيزيدها قوة وتماسكا. ومن هنا نستطيع أن تفسر اشتعال عاطفة الصداقة كلما زادت الألفة بين الصديقين. ولعل عاطفة الأمومة، بجانب أنها تقوم على عامل غريزي، ترجع إلى صلة الأم بوليدها أيام الحمل والوضع والحضانة، وانفعالها في أثناء ذلك بشتى الانفعالات المختلفة التي تتجمع كلها وتنتظم حول الطفل، ولكل هذا أثر في تكوين هذه العاطفة الحادة، التي هي المثل الأعلى للعواطف.

ونستطيع أيضًا أن تفسر السر في احتفاظ الناس بأشياء لا قيمة لها في الواقع، ولا تنفعهم في وقتهم الحاضر. فكثير من الناس يحتفظون بالكراسات المدرسية التي كانوا يكتبون فيها أيام الطفولة الأولى، أو يحتفظون بملابس قديمة، فهذه الأشياء

وأشباهها، هي رموز لتلك العهود القديمة التي كانت محل العاطفة.

اتجاهات العاطفة:

لابد أن تكون العاطفة موجودة بين صاحبها وبين شيء آخر، صاحبها "طرف أول"، والشيء الآخر "طرف ثان" كما يقولون في لغة القانون. أما أن توجد العاطفة جزافاً، كما يقول بعض الناس، دون أن نعرف ما هذا الشيء الدي نعطف عليه، فهذا خطأ لا يقبله العلم.

فالشخص كالشعلة التي يصدر عنها الضوء فتنير بأشعتها ما تقع عليه. هذه النقط الذي يصيبها شعاع النفس، هي المراكز التي تلتقي عندها عاطفة الشخص وتتجمع هذه المراكز لا تخرج عن كونها شيئًا أو شخصًا أو جماعة أو فكرة.

فالعاطفة نحو شيء هي كعاطفة البخيل نحو المال، أو السكير نحو الخمر، أو عاطفة الشخص نحو السيارة التي يملكها، أو القلم الذي يكتب به، أو المقهى الذي يختلف إليه... إلخ. وتختلف عواطف الناس في هذه الناحية بين السمو والتفاهة، فعاطفة حب الزهور والحدائق والصور الجميلة والآثار الفنية... أسمى وأبلغ وأعمق من غيرها. وتتوقف العاطفة نحو الأشياء على المعاني التي نستمدها منها، فالمال للبخيل مادة الحياة، والطفل لوالده أمله في المستقبل، والكتاب للأديب ثروة العقل.

وهناك عاطفة تتجه نحو شخص واحد، كعاطفة الأم نحو ابنها، والصديق نحو صديقه، والعامل نحو صاحب العمل الذي يشتغل عنده، والطالب نحو مدرسه، وابن الوطن نحو زعيم أمته... إلخ. وعاطفة الإنسان نحو الحيوان تدخل في هذا الباب مثل العاطفة نحو القط أو الكلب أو العصفور الفرد في القفص.

وقد تتجه نحو جماعة، مثل الكراهية بين الألمان واليهود، والعاطفة نحو فرقة كرة القدم، وعاطفة التلميذ نحو طلاب المدرسة التي يدرس فيها، وعاطفة الشخص نحو أهل المهنة التي ينتمي إليها، كعاطفة الصحفي نحو الصحفيين، والموظف نحو فئة الموظفين، والطبيب نحو جمهور الأطباء.

وقد لا تتجه العاطفة نحو شيء، أو شخص، أو جماعة، بل نحو فكرة مجردة كحب الحقيقة والفضيلة، وعاطفة الجمال، والعاطفة الدينية والعلمية والفكرية.

تكوين العاطفة:

إذا حللنا العاطفة تحليلًا دقيقًا إلى عناصرها الأولى نجد أنها ترجع إلى نوعين: الحب والكراهية، التي إن هي في الواقع إلا الصورة السلبية للحب. والعواطف الأخرى مزيج من الحب وشيء آخر، فعاطفة الأمومة هي حب الأم لطفلها، والشفقة حب الضعيف، والصداقة حب الصديق. وهناك من يضيف نوعًا جديدًا من العواطف هو الاحترام، والحقيقة أن الاحترام حب وتقدير.

ومكونات العاطفة تقوم على طبيعة الشخص، وعلى انتظام الانفعالات حول موضوع العاطفة، وعلى الظروف الخارجية الشخصية.

فللغرائز الفطرية أثر كبير في تكوينها، فغريزة الأمومة هي الأصل في عاطفة الأمومة. ولما كانت الغرائز تختلف بين الناس قوة وضعفًا وزماناً، اختلفت المواطن أيضًا لأنها تقوم على أساس من الغريزة. فإذا قويت غريزة حب الاستطلاع عند شخص تمكنت منه العاطفة العلمية، وإذا برزت غريزة الاقتناء أصبح بخيلا. والعاطفة تستمد أصولها أيضًا من الطبائع الخاصة التي يرثها الفرد، كالميل إلى الموسيقى أو الرياضة البدنية، أو الأدب والشعر، وتعدل هذه العواطف حسب الظروف الاجتماعية التي يصادفها صاحبها في طريقه. فكأن الإنسان مسوق بالطبيعة إلى تكوين العواطف التي تتركب منها حياته، كالشراهة وهي حب الطعام أساسها صحة الجهاز الهضمي. وقد يرث الإنسان أيضًا الميول النفسية والعقلية كالعاطفة الدينية، إذ كثيرًا ما تجد أخوين يعيشان معيشة واحدة، ولكن أحدهما يتجه اتجاهًا دينياً، والآخر لا يحب التدين.

وتتكون العاطفة من تجمع عدة انفعالات، وانتظامها وتركزها حول موضوع العاطفة. فعاطفة الشفقة تنشأ على هذا النحو: يرى الإنسان خلال حياته منظر

البائسين والمساكين فيتألم، وقد يكون هذا البؤس شديدًا فيثير الخوف أو الغضب، ثم تحسن إلى المساكين الذين يلهجون بالثناء عليك فتفرح. وهذه التجارب المختلفة، لا تشهدها فقط عند الناس، وإنما تقع لك، فيتيسر لك أن تحمسها وتشعر بها مع رؤيتها، وهذا الشعور الشخصي أوقع في معرفة الحقائق. فالألم والفرح والخوف والغضب... وهذه الانفعالات المختلفة المتكررة تدور حول موضوع البائس المسكين، فتخرج لنا عاطفة الشفقة. والألفة تزيد العاطفة قوة، إذ تثار كثير من الانفعالات تزيد في تكوينها. والعاطفة من جانب آخر باعثة على الانفعال، مثال ذلك إذا كانت عندك عاطفة الشفقة ورأيت مسكينًا تألمت له، وإذا كنت فاقدًا لها فإنك لا تتألم لرؤية ذلك المسكين.

العاطفة والانفعال أصلهما واحد، لأنهما يمثلان الناحية الوجدانية من الحياة. والعاطفة كما رأيت مزيج من عدة انفعالات. والفارق بينهما يقع في أن الانفعال وقتي يزول بزوال المؤثر، بينما العاطفة أدوم أثرًا وأبقى مدة. وبينما أثر الانفعال يذهب بعد مدة قصيرة، فإن العاطفة قد تصحب صاحبها إلى أن يموت كالعاطفة الدينية.

وهناك عوامل خارجية تساعد على تكوين العاطفة هي البيئة. والبيئة هي كل ما يحيط بالشخص: كالأرض التي يعيش عليها، والجماعة التي ينشأ بين ظهرانيها. ومهمة البيئة في تكوين العاطفة هي أنها تمد الشخص بالأشياء التي تتركز حولها العاطفة، هذه الأشياء هي التي ينفعل منها الشخص، فتتجمع الانفعالات، ويخرج من نتيجة تجمعها العاطفة.

ولما كانت البيئات مختلفة، والمجتمعات متباينة، اختلفت عواطف الناس في تكوينها عند الأشخاص تبعًا لذلك. ولذا تجد أهل الريف في عواطفهم غير أهل المدن، لأن الريفي يعيش بين المناظر الطبيعية والأرض الزراعية، فتتجه عواطفه نحو الساقية، والبقرة والنخلة، والقروية التي تحمل البلاص، ونحو الشمس المشرقة، والنجوم المتألقة، والليل الداجي. بينما أهل المدن تتكون عواطفهم نحو دور الخيالة، والسيارات، والأزياء ونحو ذلك.

وللتعليم أثر كبير في تكوين كثير من العواطف، ولاسيما تلك التي تنتجه نحو أفكار مجردة. ذلك أن هناك عاملًا عقليًا له أهميته في تكوين العاطفة، هذا العامل هو إدراك موضوع العاطفة أي فهمه ووضوحه في الذهن. فالشفقة لا تقوم إلا على إدراك معنى البؤس، وكثيرًا ما تخفى علينا هذه المعاني، كما كانت الحال في فرنسا قبل الثورة الفرنسية، إذ كان القوم في بؤس شديد، ولكن أحدًا لم يفطن إلى ذلك، حتى جاء أمثال "فولتير، ومولبير" وغيرها فأحسوا بذلك البؤس لأنهم أدركوا المعاني الموجودة فيه. والإنسان لا ينفعل من المناظر الطبيعية، ويتأثر منها حق التأثر إلا إذا كان على علم بمعنى الجمال وأسسه. والعاطفة العملية لا تقوم إلا على أساس فهم قيمة العلم وقدره ومنزلته. لذا كانت العواطف السامية متوقفة إلى درجة كبيرة على العلم والثقافة. فعاطفة حب الوطن على وجهها الصحيح، هي عند الشخص المتعلم أعمق وأصدق منها عند الجاهل. كذلك أمثال هذه العواطف كب الديمقراطية والشعر تحتاج إلى قدر كبير من التعليم.

وتحتاج العواطف في نشأتها وتكوينها إلى المجتمع، حيث يستمد صاحب العاطفة عواطفه عن طريق الإيحاء والمحاكاة. ولذلك تجد ضروبًا من العواطف تسود عند كل شعب على حدة، وتشيع في أجيال دون أخرى، فلكل مجتمع عواطفه التي يتميز بها. ويقال في علم الاجتماع: إن العواطف التي تشيع بين الشعوب تتغير كل نصف قرن. ونستطيع أن نسمي هذه العواطف العامة بالتقاليد.

انتقال العواطف[١]:

لا تظل العاطفة ثابتة في اتصالها بالأشياء، بل تتغير وتنتقل وتحول من موضوع إلى آخر. ويقع هذا التحول بأن تربط العاطفة بشيء لا يكون هو السبب في إحداثها، وذلك إما عن طريق التلازم أو التشابه. فإذا حدث أن شيئين متلازمين أدى أحدهما إلى عاطفة فإن الشيء الآخر يثير نفس هذه العاطفة.

---

(١) Le transfer des sentiments.

كتب "روسو" عن نفسه ما يأتي. "إن ما يصلني بدراسة النبات في سلسلة من الخواطر المرتبطة بعضها بعض، فتذكرني بالأماكن والأحراش ومجاري المياه، والوحدة والسلام والراحة التي كنت أجدها بين كل هذا. إنها تذكرني بصباي وبأفراحي البريئة". فهذه المشاهد المختلفة والذكريات المتعددة، التي صاحبت ملاحظة النباتات في ذهن "روسو"، انتقلت وتركزت في دراسة النباتات.

قد ينتج الانتقال عن طريق التشابه بين موضوع العاطفة وبين شيء آخر يماثله. فكثيرًا ما ترى امرأة غلامًا فتحس نحوه بعاطفة شديدة، والسر في هذا أنه يشبه ابنها الذي فقدته. ومثال ذلك ما يحدث لنا حينما نرى شخصًا لأول وهلة فنحس نحوه بالاحترام أو الشفقة أو الكراهية، وهذا يرجع إلى وجه الشبه بينه وبين شخص آخر كان موضع هذه العاطفة. كذلك تنتقل العاطفة من شخص بعينه وتشيع في عدة أشخاص، وهذا هو تفسير العاطفة المتجهة نحو جماعة، فإذا عرفت صديقًا من أهل الإسكندرية فإنك تحب أهل هذه المدينة جميعًا.

وتتطور العاطفة من مستوى إلى آخر كما تنمو الحياة، فعاطفة البخل تكون في الأصل حبًا للمال لأنه يجلب الفائدة، ويحقق المطالب المختلفة التي يرغب فيها الإنسان. ثم تحول هذه العاطفة إلى حب المال في ذاته، لا على أنه واسطة لتحقيق الرغبات.

منطق العواطف[1]:

حياة الإنسان مزيج من العواطف ولكنها تختلف من شخص إلى آخر. والعاطفة أثر كبير في التفكير، لذلك يسمى التفكير المستمد منها منطق العواطف. وهو نوعان: منطق يبرر به صاحبه العواطف التي تسيره، كالبخيل الذي يحاول دائمًا تبرير مركزه بالنسبة إلى جمع المال، أو السكير يسوغ لك لماذا يشرب الخمر. فالبخيل لا يحاول البحث عن سبب جمع المال، والسكير لا يفكر لماذا يشرب الخمر، بل البخل

(1) Ancien Traité Dumas. Tome I Page 488

والسكر حقيقتان بالنسبة لأصحابها لا يبحثان فيهما، وإنما يعملان على تبريرها. وهذا هو ما يسمى منطق التبرير[1].

والنوع الثاني هو منطق الإنشاء[2]، الذي يرسم به صاحب العاطفة الخطط المختلفة التي توصله إلى تحقيق العاطفة؛ كزعيم الأمة التي يحب وطنه، فيعمل على تخليصه من الأعداء، أو رفع شأنه بين الأمم الأخرى.

وليس هناك تعارض بين العاطفة والعقل، فهما يسيران جنبًا إلى جنب. ولكن الصلة بينهما تختلف، فقد يسيطر العقل على العاطفة ويقودها، وقد تعلو كلمة العاطفة فتجتاح العقل. ومعيار العاطفة يقاس بانتصارها على العقل أو خضوعها له.

والإنسان في حالة العاطفة لا يفقد العقل ولكنه يفكر بشكل جديد. وأثر العاطفة في التفكير يتناوله من ثلاثة نواح: فهي تؤدي إلى حسن التفكير، أو التحيز، أو الخطأ.

والإنسان حين يعطف على شيء ينصرف إليه، وتختلط نفسه به، ويكون دائم الصلة به كالبخيل تدور حياته على المال، والعالم على العلم، فتتفتح النواحي المختلفة للشيء أمام بصر صاحب العاطفة، إذ يكون دائم الانتباه إلى ما يعطف عليه، فتتضح الحقائق المتصلة به في ذهنه. لذلك يحسن فهم الأشياء ويحسن التصرف في الأمور. فالبخيل الذي يصرف وقته كله وراء البحث عن المال، يعرف أغلب الحقائق الاقتصادية، ويحسن فهمها، وإذا عرضت له مشكلة مالية أبدع التصرف فيها، حتى تزيد ثروته، ويتكدس ماله. كذلك العالم يحسن فهم الحقائق العلمية، وحل مشاكل العلم، ويخترع المخترعات المفيدة للعلم.

ولكن هذا الانصراف إلى ناحية واحدة تعطف عليها يجعلك تزيد في تقديرك لها، وتغلو في رفع قيمتها، وتضعها في غير موضعها الصحيح، ومن هنا ينشأ التحيز. ولذا

---

(١) Raisonnement de justification.

(٢) Raisonnement constructif.

كان القاضي لا يستطيع إبداء حكم صحيح إذا كان على صلة بأحد المتقاضين، أو بعبارة أخرى بينهما عاطفة صداقة. وتجد المؤرخين من العرب يتحيزون للعروبة، وغيرهم من الفرنجة يحطون من شأن العرب وهكذا. والتحيز هو انصراف الذهن إلى ناحية واحدة من نواحي الموضوع، مع غض النظر عن باقي النواحي التي يكون لها أثر في الحكم النهائي على الموضوع، أو كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

والإنسان في خضوعه للعاطفة تضعف عنده قوة النقد، وهي ضرورية لتمييز الخطأ من الصواب، والوصول بالتفكير إلى الصحة. ولذلك كثيرًا ما تؤدي العاطفة إلى الخطأ الذي يكون شديدًا في العلوم الاجتماعية والأدبية والسياسية، لأنها علوم تقديرية قياسها يقع على حسب ميل الإنسان لها. ولكن كيف نفهم الخطأ في الحقائق العلمية المستقلة عنا، والواحدة بالنسبة لجميع الناس؟ حينما اخترع "جاليليو" المنظار المكبر لرصد النجوم والكواكب، وقال بأن الأرض هي التي تدور حول الشمس لا العكس، هدده رجال الكنيسة بالحرمان والاضطهاد إذا لم ينزل عن آرائه ويحطم منظاره، وهذا نتيجة تأصل العاطفة الدينية.

ولصاحب العاطفة منطقه الخاص، فهو لا يبحث عن الحقيقة، ولكنه يعتقدها ويؤمن بها، ويحاول إثباتها بالبراهين وتبريرها بالمسوغات.

وقد قيل إن الحب أعمى، والحب هو أساس العواطف كما ذكرنا، فالعاطفة تعمى الإنسان عن الحقيقة، وكما أن النبات لا يمتص من الأرض إلا ما يلائم نموه، كذلك العاطفة لا تنتقي من الحقائق إلا ما يوافق هواها. والمتعلمون من الناس أقل خضوعًا للعاطفة في تفكيرهم من الجهال، لأن المتعلم من ثقافته ومن شخصيته القوية ما يجعله لا يجرى إلا وراء الحقيقة في ذاتها، بينما الجاهل يعتقد ويؤمن عن طريق الخضوع للأهواء والانقياد دون التبصر والتفكير الصحيح.

العاطفة والسلوك:

يخضع تفكير الإنسان إلى حد صغير أو كبير للعاطفة، وينتج عن ذلك توجيه السلوك تبعًا للنطق الذي يسلكه، لأن حياة الإنسان لا تخلو من العاطفة. ويكون سلوك المرء على حسب العواطف الموجودة عنده. فالعاطفة الوطنية تدفع الإنسان إلى الدفاع عن الوطن بجميع الوسائل، كالتبرع بالمال، والتطوع في الجيش. وعاطفة الشفقة هي التي تدفع صاحبها إلى أن يحسن إلى الناس.

وتتميز شخصية الإنسان على حسب العواطف التي تدور عليها حياته، لأن حد الشخصية هو الاتجاه نحو أغراض مخصوصة يسلك الإنسان لتحقيقها طرقًا لا يحيد عنها. وفي ذلك يتفاوت الناس ويختلفون، بحيث نستطيع أن نميز كل شخص على حدة، فخاتم الطائي كان كريمًا، وعمر بن الخطاب شفيقًا، والحجاج قاسيًا..... فهذا السلوك المختلف هو نتيجة تباين العواطف عند هؤلاء الأشخاص. وهذه العواطف وهذا السلوك هما اللذان يبرزان شخصية المرء.

فإذا طغت العاطفة على صاحبها كست شخصيته، كشخصية البخيل فإنها مستمدة من البخل. وقد يعمل الإنسان تحت سيطرة العاطفة دون أن يشعر، الإرادة تصبح خاضعة لهوى العاطفة، فلا يستطيع الإنسان أن يوقف سيلها الجارف أو وجهتها الجامعة.

الكبت والعقد النفسية:

من العواطف والميول ما تضطرنا الحياة الاجتماعية والأخلاقية والتقاليد إلى كبح جماحها، وإيقافها عند حدها. وقد اكتسب الإنسان بالتربية والتعليم نوعًا من الرقابة يلاحظ بها الميول التي تصلح أن تظهر في مجرى الشعور وتلك التي لا تصلح. هذه النزعات التي لا يرغب الشخص أن يبرزها للعيان، لا تموت ولا تفني، بل تلقي في اللاشعور، وتكبت وتخمد. هذه الظاهرة هي التي سماها "فرويد" بالكبت[1].

---

(1) refoulement

واكتشاف ظاهرة الكبت لم يكن بالأمر السهل، لأن الرغبات المكبوتة تظهر في صور رمزية مختلفة كل الاختلاف عن الانفعال المكبوت، أو الرغبة المتراجعة. ويرجع الفضل في اكتشافها إلى أحد الأطباء النمساويين هو الدكتور "بروير"[١] الذي عجب لكثير من المرضى الذين يتألمون آلامًا نفسية كبيرة، ولم يكن طب ذلك الوقت لينفعهم. ثم لاحظ الدكتور "بروير" أن ذكرى بعض الانفعالات تستمر في الذهن في حالة غموض ولا يشعر بها المريض، وهي التي تؤدي إلى كثير من الاضطرابات العقلية والجسمية لا يعرف لها الطب علاجًا. وقد فكر "بروير" أنه إذا استطاع أن يخرج هذه الانتقالات المكبوتة من اللاشعور إلى الشعور حتى يراها الشخص شفي المريض. وكانت طريقته في بعث هذه الذكريات القديمة في التنويم المغناطيسي.

وكان "فرويد"[٢] يعمل مع "بروير" ولكنه رجع عن استعمال التنويم الخطأ هذه الطريقة، واقترح طريقة جديدة نصل بها إلى كشف هذه "العقد النفسية"[٣] المكبوتة في اللاشعور، وهذه الطريقة هي التي تعرف بالتحليل النفساني[٤] وخلاصتها ما يأتي:

١– إلقاء أسئلة خاصة على المرضى.

٢– التحليل الدقيق لرغبات المريض وإشاراته وحركاته ولفتاته غير المقصودة، وتحليل الخواطر التي ترد في ذهن المريض.

٣ -تحليل الأحلام، ويعتبرها "فرويد" من أكبر ما ينبئ عن هذه الرغبات المكبوتة.

ولنضرب مثلًا يوضح لنا ما هي هذه العقد النفسية المكبوتة، وكيف تؤدي إلى الأمراض العصبية، وكيف يعالج المريض بواسطة التحليل النفساني. شاب ظهرت عليه هذه الأعراض: القيء، عدم الشهية للطعام، شلل وهمي في الرجلين، دقات شديدة في

---

(١) Dr Breuer.

(٢) Freud,

(٣) Complexes.

(٤) Psychanalyse.

القلب، الخوف من الموت، والميل إلى الانتحار. هذه كلها أعراض هستيرية لم يستطع الطب علاجها؛ وقد وجد الأطباء عند فحص القلب أنه سليم ليس به أي مرض وكذلك المعدة. وبالتحليل النفسانى وسؤال المريض، اتضح أنه منذ خمس سنوات وقع من الدور الأول في المدرسة على الأرض مدة ثم أغمي عليه. هذه الفترة التي مرت بين وقوعه وبين الإغماء، أصيب فيها بانفعال شديد هو الذعر والخوف من الموت. ولما جاء رجال الإسعاف، وأفاق المريض من الإغماء، أصيب بالقيء الذي هو نتيجة الخوف الشديد، ولم يستطع أن يمشي على قدميه لمدة ثلاثة أشهر. هذا الخوف الشديد تراجع إلى اللاشعور وعاش مكبوتة هنالك وكون عقدة نفسية، هي التي تبعث الأعراض السابقة بين حين وآخر. وقد عولج هذا الشخص باستخراج هذه الحادثة التي نسيها إلى ميدان الشعور.

لم يقف "فرويد" عند هذا الحد، ولكنه أراد أن يعمم نظريته بحيث تشمل جميع الأعمال الإنسانية، فهو يقول إن الرغبات النفسية المكبوتة هي أساس السلوك عند الإنسان في جميع النواحي. ويخرج من هذا التعميم إلى تعميم آخر وهو أن الغريزة الجنسية هي التي تحتل المكان الأول من بين الرغبات المكبوتة، وأنها تخمد بالظروف الاجتماعية والتقاليد والتربية والإرادة. وأغلب الثروة الأدبية والفنية والفكرية وقوة الابتداع ترجع على حسب هذا الرأي إلى هذه القوة المحبوسة، التي تنطلق وتظهر في هذه النواحي المختلفة، كالرسم والموسيقى والشعر والتصوير... إلخ. وفي أحوال أخرى تؤدي إلى الاضطرابات العصبية.

ونظرية "فرويد" إذا كانت صحيحة في كثير من الأحيان، فإن تعميمها بالشكل الذي أوضحناه فيه كثير من المغالاة، وهذا هو أهم اعتراض يوجه هذه النظرية.

الفصل الثامن

الإرادة[1]

قد تجلس إلى مكتبك في المنزل تقرأ وتكتب، ثم تلوح في ذهنك فكرة أن الطقس لطيف، وأنه من المستحب أن تخرج الرياضة قليلاً. وبدون روية أو تدبر تستمع إلى هذا الميل فتترك منزلك وتخرج.

وفي حالة أخرى تضيق بالعمل وتميل إلى الخروج للاستراضة، ولكنك تحدث نفسك أن إنجاز العمل أفضل، والبقاء أفضل من الخروج، وبعد شيء من الروية تلقي بالكتب وتخرج من المنزل.

وفي حالة ثالثة تردد طويلًا بين الاستمرار على الكتابة والانقياد ليافع الخروج، فتجد بعد كثير من التفكير أن الأفضل إنجاز العمل فتبقى في المنزل.

هذه عدة أمثلة تبين سلوك الإنسان في وجهات ثلاث، ويوصف هذا السلوك بأنه إرادى. والإرادة ميل إلى العمل، وبذلك تدخل في باب النزوع. ومن الخطأ الشائع بين الذين كتبوا في علم النفس من قديم، أن يقصروا القسم الثالث من الظاهرة النفسية وهو النزوع على الإرادة، فيقولون إن الظواهر النفسية، هي إدراك ووجدان ونزوع أو إرادة.

وليس الأمر كذلك، لأننا رأينا أن هناك نوعًا من السلوك ينزع إليه الإنسان بالفطرة، وهذه هي الغرائز. فنزوع الطفل إلى مص أصبعه هو نزوع غريزى غير إرادي، وهناك طائفة أخرى من الأعمال ينزع الإنسان إلى أدائها عن طريق العادة، وهو يسلك في هذه الحالة كالآلة التي تعمل دون شعور. فالمدخن الذي يضع يديه في جيبه

---

(1) La volonté.

دون تفكير ويخرج لفافة التبغ ويشملها يؤدى هذا العمل آليا، دون دخل للإرادة في ذلك.

فامتصاص الطفل لأصبعه نزوع غريزي، وإشعال لفافة التبغ نزوع عادي، وخروج الكاتب من منزله الذي وصفناه في بدء هذا الفصل، نزوع إرادي.

فبماذا تمتاز الإرادة؟

تمتاز بالشعور بالغرض الذي يريده الإنسان، وبإدراك الحمل قبل أدائه، ووجود نية التنفيذ؛ بينما الغريزة عمياء والعادة آلية.

خطوات الإرادة:

يسير العمل الإرادي الكامل في أربع خطوات.

١- الشعور بغرض.

ذلك أن الأعمال الإرادية لا يساق الإنسان إلى عملها سوقًا، بل يكون الغرض من العمل حاضرًا أمام ذهنه، ويصحب وجود الغرض الشعور به، كالجائع يريد أن يأكل، والظمآن أن يشرب، والمتعب أن يجلس، والمتبرم أن يخرج للرياضة. فكثير من أعمالنا نشعر بالغرض من عملها، وتفكر في أدائها من أجل ذلك.

٢- الروية[١].

لتحقيق الفكرة التي تطرأ على الذهن، قد يجد الإنسان عدة مسالك لتنفيذها، بعضها يؤدي إلى الغرض، وبعضها لا يؤدي، وبعضها أفضل من البعض الآخر. فإذا حصل طالب على إجازة الدراسة الثانوية، وأراد أن يلتحق بإحدى كليات الجامعة، فإنه يتروى أي الكليات أفضل؟ وقد يجد أن تتمة الدراسة المالية لا فائدة منها، فيلتحق بوظيفة أو يفتح محلًا تجاريًا. فهذه مسالك مختلفة، ينعم الطالب فيها الفكر، ويتروى قبل أن يعزم على السير في أحدها. الروية عبارة عن تمحيص الآراء المختلفة،

---

(١) décision

والفحص عن البواعث التي تتجاذب صاحبها كالميول والرغبات والعواطف التي تمتزج بالشخص وتجتذبه إلى السير في طريق معين. وحينئذ يبصر صاحب الروية هذه المنازع والأهواء المختلفة، ويشعر بها، ويضع لكل منها قيمة وقدرة. فروية الطالب حين يبحث عن دراسة عالية، لا تكون فكرًا خالصًا مجردًا عن نفسه، ولكنه يضع في الميزان الرغبات المختلفة التي تنازعه، فإذا كان يميل إلى الخطابة دخل كلية الحقوق، وإذا كان يرغب في السيطرة توجه إلى المدرسة الحربية.

وقد لا يمر العمل الإرادي بدور التروي، وحينئذ يندفع الشخص إلى أداء العمل. وغالبًا ما يكون الاندفاع في الأمور البسيطة التي تعترض الإنسان، أما جلائل الشئون فلا يبت صاحبها فيها إلا بعد روية وإمعان.

٣ -العزم(١).

هذه المرحلة هي التي يمتاز بها العمل الإرادي ويبدأ حقًا. والعزم هو الاستقرار عند رأى من الآراء التي تحقق الغرض الذي نريده، ويلحق العزم التصميم، أي الإلحاح في الحزم وعدم الرجوع عنه. فالطالب بعد أن يستعرض أنواع الدراسات المختلفة، تقف رويته عند إحدى المدارس العالية، ككلية الحقوق مثلًا، ثم يصمم على هذا العمل.

٤- التنفيذ(٢).

يجب أن يصحب العزم تنفيذ ما يصمم عليه صاحب الإرادة حتى يتم العمل. والتنفيذ ضروري لأنه المحك الذي يبين إذا كانت الإرادة صادقة أم لا. وعلى الأقل ينبغي أن توجد محاولة التنفيذ. وقد تقوم عقبات خارجية في سبيل التحقيق النهائي العمل، وهذه الظروف الخارجية لا تهمنا نفسانيًا. فالطالب الذي يصم على الالتحاق بكلية الحقوق، قد لا يجد معه المال الكافي لدفع مصاريف الدراسة فيتقاعد.

---

(١) décision.

(٢) Exécution

هذا التحليل للأعمال الإرادية الذي يفصلها إلى عدة مراحل تجتازها، هو الفكرة القديمة التي وصل إليها علماء النفس حتى عهد قريب. ولكن علماء النفس الحديثين يرون في العمل الإرادي غير هذا الرأي.

فالإرادة تعارض عدة رغبات، فيعلو الإنسان بإحداها على الباقية، ولهذا تصحب الإرادة دائمًا بالجهود.

ذلك أنه من الخطأ القول بأن العمل لا يبدأ إلا بعد امتحان البواعث والدوافع[١] في مثل ذلك الهدوء الذي ذكرنا، بحيث يستعرضها الإنسان أمامه ويرجح إحداها على الأخرى. بل الواقع أن أي باعث إلى العمل مثل الخروج إلى الرياضة، أو التراجع مثل البقاء في المنزل، حين يلوح في الذهن يندمج في الحال مع بواعث أخرى، ويتسق معها فيقوى، أو يدخل في صراع مع البواعث النفسية الموجودة ويضعف. مثل هذه البواعث الجديدة مثل الماء الذي نلقيه في النهر، فيحمله المجري ويختلط بماء النهر، ويتأثر به ويؤثر فيه؛ فأي فكرة جديدة تلوح في الذهن تندمج في الحال مع الحياة النفسية للشخص وتصبح عملًا أو مبدأً لعمل.

أما تقسيم البواعث العقلية إلى أقسام، بعضها يساعد الإرادة، وبعضها لا يتفق معها، فهو تقسيم صناعى، لأن الحياة النفسية كل لا يتجزأ. وعلى ذلك فإن فصل العزم عن الرويبة تعسف يجعل الإرادة قوة مستقلة عن العواطف والفكر، وليس الأمر كذلك كما ذكرنا عند تحليل الظاهرة النفسية.

والحقيقة أننا إذا أمعنا النظر في المراحل السابقة، نجد أن المرحلة الأخيرة وهي التنفيذ لا شأن لها بعلم النفس، لأن التنفيذ يتوقف إلى حد كبير على الظروف الخارجية. أما الشعور بغرض أو باعث، والروية، فإنهما مظهران الإدراك والعاطفة. ولا يبقى للإرادة إذن إلا مرحلة العزم التي تصبح امتدادًا للتفكير أو العاطفة.

وقد خرج العلماء من هذا التحليل والنقد إلى نظريتين: الأولى تنادي بأن الإرادة

---

(١) motii, nuobile.

ليست في النهاية إلا مزيجًا من الأحكام العقلية؛ فالعمل الإرادى هو نتيجة انتخاب حكم من بين حكمين أو عدة أحكام، لأنه أفضل وأكثر فائدة. بينما النظرية الثانية تقول بأن الإنسان عبارة عن مجموعة من الميول تتجاذبه، وانتصار أحد هذه الميول يؤدي إلى العمل. وعلى ذلك فالإرادة قوة تعمل سابقة على كل حكم.

وكلتا النظريتين على حق من بعض الجهات.

لو أننا نستمع إلى كل باعث يلوح لنا، أو نساق بكل دافع يحركنا، لكنا نعمل عن اندفاع لا عن إرادة، إذ أن الإرادة في الشعور بالرقابة الشخصية على البواعث والمواقع المختلفة، فينتج عن هذه الرقابة انتخاب الطريق الذي تريد أن نسلكه، والحكم بأفضلية شيء على آخر، أو ميل على ميل. والإرادة أيضًا هي القدرة على إيقاف البواعث العقلية والدوافع النفسية بدلًا من المبادرة إلى تنفيذها. فالانتباه إلى العمل، والشعور بالتفصيل والترجيح، هو أساس "الحرية" عند الإنسان؛ وليس الحيوان حرًا، لأنه ينقاد لدوافعه الباطنة التي تحركه، فلا ينظر هل هي مفيدة أو مضرة، فاضلة أو وضيعة؟ فمصدر الأعمال لا يرجع إلى إرادة الحيوان بل إلى هذه الدوافع، لذلك كان الحيوان عديم الأخلاق.

ونستخلص من كل هذا ثلاث صفات عامة للعمل الإرادى:

١ – أن الروية تقتضي نوعًا من الصراع بين البواعث والدوافع.

٢- يحدث انتخاب من بين هذه البواعث والدوافع. لهذا كانت الإرادة تتطلب شيئًا من التردد ولو قليلًا.

٣– يصحب الإرادة شعور بالحرية، هو الذي يميزها عن الأعمال الآلية.

الحركات الإرادية:

يؤدى الجسم كثيرًا من الحركات منها ما هو إرادي، ومنها ماهو غير إرادي. ومن الحركات غير الإرادية ما ينتج عن تقلص العضلات بطبيعتها كالمثانة. وأغلب الحركات عند الحيوان تصدر على هذا الوجه، مثال ذلك: إذا انتزعنا جزءًا من أمعاء

حيوان كالأرنب، بعد أن يوضع في محلول خاص ووسط ملائم من الحرارة، فإن العضلات تظل تتقلص وحدها؛ أما عند الإنسان فإن أغلب الحركات غير الإرادية تخضع للجهاز السمبتاوي والباراسمبتاوى.

وهناك بعض حركات أطلقنا عليها اسم الفعل المنعكس البسيط، وهي التي تصل إلى مراكز النخاع الشوكى فقط، مثل حركة الرجل عند ما تضرب أسفل الركبة ضربة خفيفة.

وهناك حركات أخرى يصدر الأمر بها من مراكز الحركة في المخ، ومنها إلى الألياف النازلة أو المصدرة حتى النخاع المستطيل والنخاع الشوكي، ثم إلى أعصاب الحركة. هذه الحركات الصادرة عن المراكز العليا في المخ، تسمى الحركات الإرادية.

والموازنة بين الإنسان والحيوان فيما يختص بالإرادة، توضح لنا طبيعة الفعل الإرادي. فالحيوانات الدنيئة لا إرادة لها، لأن سلوكها يكون بالأفعال المنعكسة أو الغريزة، ومع ذلك فقد رأينا أن الحيوان قد تطرأ عليه ظروف تضطره إلى تغيير سلوكه، مثل الأرضة[1] التي تطعن فريستها وتجرها إلى الجحر، ثم تعدل طريقتها بالمحاولات الحسية، والتجارب العملية، وحذف الأخطاء.

أما الأنسان فإنه لا ينزل إلى ميدان التجربة العملية والتلمس، بل "يتصور" العمل والطرق المختلفة التي تؤدي إلى تحقيقه، ثم ينتهى بفكره إلى أفضل طريق. مثال ذلك القط حين يرى بابًا مقفلًا، فيحاول فتحه عمليًا، ويخدش بمخالبه، ويأتي بكثير من المحاولات. أما الإنسان فإنه يقف أمام الباب ثم يفكر كيف يفتحه؟ بالعنف؟ بمعالجة الرتاج ؟... حتى إذا استقر تفكيره عند رأى اندفع إلى تنفيذه، فمحاولات الإنسان عقلية، إذ يبصر بذهنه الخطأ والصواب.

وهناك إرادة كفٍ عن الفعل، لقيام موانع توقف العمل، كالكاتب الذي يريد أن يخرج للنزهة، ثم يجد أن ثمة الكتابة أوجب، فيمنع نفسه من الخروج بإرادته.

---

(١) Guépe.

أمراض الإرادة:

المراكز العليا من المخ نوع من الإشراف على المراكز السفلى. وقد رأينا أن الحركة الإرادية تصدر عن المراكز العليا في المخ، ومنها إلى النخاع المستطيل والنخاع الشوكي، ثم إلى أعصاب الحركة، وفساد أي مركز من هذه المراكز يؤدي إلى اضطراب الحركات الإرادية. فالشلل يحدث اضطرابًا في الإرادة، ويرجع ذلك إلى فقدان الرقابة على الحركات، فإذا أراد المريض أن يتناول كوبًا من الماء، فإنه لا يستطيع أن يسدد يده نحوه، بل تظل يده تذبذب مدة قبل أن يقبض عليه. وفساد مراكز الحركة يؤدي بالمريض إلى أن يفعل حركات صبيانية، ويجسم الانفعالات لأسباب تافهة، وينتقل من الضحك إلى البكاء بسهولة، ويكثر عنده الاندفاع، ويكرر بعض الأعمال والجمل تكرارًا آليًا، ويفقد الشعور بالمسئولية، ويميل إلى الحذر الخالي من الأدب.

وقد تؤدي الأمراض العصبية والنفسية، التي لا تصحب بفساد الخ، إلى مرض الإرادة. وأول هذه الأمراض هو سهولة الإستواء، أو الميل إلى الانقياد التأثير أفكار الغير عن طريق الخاطبة أو القدوة. والأطفال والجماعات أكثر قبولًا للإيحاء عادة، لأن الطفل أو الفرد في الجماعة يفقد الرقابة الشخصية على فكره، وتضمحل شخصيته، فيذوب في غيره. بينما الشخص العادي يفكر وينتقد ويقاوم مقاومة عقلية، بدلًا من الانقياد الأعمى الآلى لأوامر الغير. وهنا يجب علينا ألا تخلط بين هذا الإيحاء المريض، وبين الإيحاء الصحيح الذي يجري بين الناس عادة[1].

وتزداد قابلية الاستهواء عند بعض العصبين في حالة الصحو، وتكون أكثر شدة في التنويم المغناطيسي أو الجولان النوى[2].

ومن أمراض الإرادة العناد، وهو عكس الاستهواء. والعنيد هو الشخص الضعيف الذي يريد أن يستر ضعفه بالعناد الأعمى الخالي من النقد العقلى والتفكير.

---

(١) Idée fixe

(٢) Somoambulisme.

وقد يكون الدافع لهذا العناد حب الظهور المعوج، كالذين يتبعون مبدأ "خالف تعرف". وحب المخالفة والمعارضة نوعان من السلوك أساسهما الدفاع ضد إرادة الغير، ولكنه دفاع ذو مستوى منحط، إذ أن المخالفة لا تصحب بالمناقشة والأدلة. وكثيرًا ما يوجد العناد وحب المخالفة والمعارضة عند الأطفال، وذلك لقصور عقولهم.

ومن أمراض الإرادة الفكرة الثابتة[١]، وهي تلك التي تستولى على صاحبها فتقوده وتسيره دون أن تجد مقاومة أو نقدًا. فالإنسان في هذه الحالة يكون في شبه ذهول عن كل شيء إلا عن هذه الفكرة.

ومن هذه الأمراض أيضًا ما يعتري صاحب النزوات، وهو الشخص الذي يجرى باندفاع وراء كل نزوة تطرأ على ذهنه. والنزوة عبارة عن فكرة تؤدي سريعًا إلى العمل، دون أن يبحثها صاحبها في ضوء العقل.

ومن الأمراض الشائعة في الإرادة التردد، حيث يظل المريض مترددًا بين فكرتين، فلا يستطيع أن ينتخب إحداها، ولا يصل إلى العزم والتصميم. ومرض العزيمة يجعل الإنسان حائرًا لا يستقر على رأي حتى في الأشياء البسيطة التامة، كشراء قلم رصاص، أو كراسة، أو منديل. والحقيقة أن العمل نفسه ليس عسيرًا أمام المتردد، ولكنه يفقد الاستقلال في الرأي. ولذلك فإن مثل هذا الشخص يخضع بسهولة لإيحاء الغير، وينقاد له وينفذ العمل الذي يتردد فيه. فرجع الاضطراب هنا هو صعوبة الخروج من هذا الصراع الفكري. مثل هؤلاء المترددين يحبون دائمًا أن يكونوا خاضعين لغيرهم في الحياة الاجتماعية.

---

(١) Somoambulisme.

الفصل التاسع

الاحساس[1]

يخرج المرء إلى الطريق، فيرى المارة والعجلات، ويسمع ضجيج الناس، وأبواق السيارات، وهو بين كل هذا يريد أن يسير وأن يسدد خطاه، متوجهًا إلى غايته متجنبًا الاحتكاك بالمارة، متحاشية التصادم بالسيارات. فكيف يتيسر له كل ذلك؟

لابد من "معرفة" هذه الأشياء المختلفة المحيطة به، ليشق طريقه، ويسلم من الأخطار.

كيف تم له هذه "المعرفة"؟ وما هي العوامل المختلفة التي تتعاون على العلم بالأشياء الخارجية؟

المعرفة التامة بالأشياء، المميزة لها، المحددة لمكانها، تسمى "الإدراك الحسي". فإذا سمعت بوق السيارة في الطريق، فإنك تميل جانبًا، لأنك أدركت أن وراءك سيارة.

تسمع السيارة قادمة من خلفك فتتجنبها، هذا السلوك الذي يتم في لحظة قصيرة، يحتاج منا إلى تحليل طويل. ويحسن أن نبسط أجزاء هذا السلوك، ثم نعود إلى الكلام على كل جزء.

وإذا وضعنا اللغة العلمية جانبًا. ونظرنا إلى الأمر نظرة خالية من التعقيد، فإننا نبسط السلوك كما يأتي:

١- صوت السيارة.

٢- الأذن.

---

(1) Sensation.

٣- الإحساس بسمع الصوت.

٤- تمييز هذا الصوت بأنه صوت سيارة.

٥- تجنب السيارة.

والجزء الخامس رد على مؤثر خارجى. أما الأجزاء السابقة في جماع "المعرفة" شيء خارجى.

وقد تسأل هل يستطيع الأصم أن يسمع الأصوات؟ إنه لو سار في الطريق لدعمته السيارات من الخلف وهو غير سميع.

فالسمع، ضرورى "لمعرفة" الأصوات. "والبصر" ضرورى "لمعرفة" الضوء والألوان والأشكال.

وسنفرد بابًا خاصًا لهذه المعرفة التي تعقب السمع والبصر.... إلخ. وهو باب الإدراك الحسي.

أما هذا السمع "الضروري" للمعرفة، وهذا البصر "الضروري" للمعرفة..... إلخ، فهو الذي نسميه الإحساس.

ويعرفون الإحساس بأنه الظاهرة الأولية في الحياة العقلية، التي تنشأ عن أثر الضوء أو الصوت أو الحرارة... ألخ في أعضاء الحس[1].

وأغلب إحساساتنا تنشأ عن تأثير العالم الخارجي في الحواس المختلفة. ولكن هناك إحساسات أخرى أسبابها باطنة، كالإحساس بالجهود حين نحرك عضلاتنا، أو الإحساس بالجوع والعطش.

(1) Nouv. Traité de psych. Dumns Tome II page 83.

ويمر الإحساس في مراحل ثلاث:

1- مرحلة فيزيقية[1]:

وهي المؤثرات الفيزيقية، كالضوء، والصوت، والحرارة، والتيارات الكهربائية... إلخ، التي تنبعث عن الأشياء الخارجية، وتصل إلى أعضاء الحس.

٢- مرحلة فسيولوجية:

ويتم في هذه المرحلة تأثر أعضاء الحس، ثم انفعال أعصاب الحس العامة، أو الخاصة، ووصول الأثر إلى المراكز العصبية.

3- مرحلة نفسية:

هي الشعور بهذا الأثر. ولا يتم الإحساس إلا في هذه المرحلة، لأن جميع الظواهر التي سبقت الإحساس، بما فيها التغيير الذي حدث في المخ، ذات طبيعة فسيولوجية[2].

وقد فطن الناس من قديم إلى الحواس الخمس، وذلك تبعًا لأعضاء الحس وهي البصر والسمع والشم والذوق واللمس، ولكننا الآن بفضل الأبحاث الفسيولوجية، قد توصلنا إلى معرفة أنواع أخرى من الإحساسات. وسنذكر فيما يلى أنواع الحواس.

1- الحواس الباطنة:

وهي الحواس المتصلة بكثير من العضلات والأعصاب والأجهزة المختلفة، كالجهاز التنفسي والهضمي والدموى... إلخ. وهذه الإحساسات هي الإحساس بالتعب، والإحساس بالثقل أو الخفة، بالضيق، بالجوع، بالعطش.... إلخ.

٢- حاسة اللمس:

وهي التي تحس بالخشونة والنعومة والصلابة واللين، وعضو هذه الحاسة هو

---

(١) Physique

(٢)المرجع السابق صفحة ٨٣.

سطح الجلد. ويحدث الإحساس من تهيج الأعصاب التي تنتهي إلى سطح الجلد وهناك بعض أجزاء الجلد تكون أكثر تأثرًا من غيرها بالملمس، فأطراف اليد– وهي الأصابع– أكثر مواضع الجلد إحساسًا باللمس. كذلك الذراع أكثر إحساسًا من الظهر. والواقع أن للمران أثرًا في حدة اللمس، فاليد اليمنى أفضل من اليسرى في إحساسها.

وحاسة اللمس هي أعم الحواس وأشملها، وربما كانت هي الحاسة الفطرية الأصلية، وليست سائر الحواس إلا فروعة منها تميزت واختصت؛ فالبصر إن هو إلا لمس يتأثر بالموجات الضوئية، والسمع لم يتأثر بالموجات الصوتية.

3- الإحساس بالحرارة:

ظل الناس طويلًا يخلطون بين اللمس وبين الإحساس بالحرارة، وقد ظهر أخيرًا اختلافهما. قد تبين من التجارب الحديثة أن مواضع سطح الجلد التي تتأثر بالضغط أو باللمس، غير التي تتأثر بالبرودة أو الحرارة. وهذه الحاسة قد تكون باطنة كالإحساس بالحمى أو الرعشة، وقد تكون ظاهرة نتيجة الاتصال بالوسط الخارجي؛ وهذا الإحساس نسبي، فإذا كان الجسم المتصل بسطح الجلد يماثل في حرارته حرارة الجسم، لم يميز الإنسان الإحساس.

٤- الإحساس العضلي:

وهو الإحساس بالضغط والمقاومة والمجهود... إلخ. ويختلف العلماء في تحديد عضوه، هل هو من احتكاك العضلات بعضها ببعض؟ أو نتيجة احتكاك العضلات بأعصاب الحس؟ أو هو من عمل أعصاب الحركة وبذل أي مجهود؟

هذه الحواس السابقة يشترط فيها تماس الوتر الخارجي وعضو الحس حتى تم عملية الإحساس.

٥- حاسة التوازن:

وهي الإحساس بأوضاع الجسم أو أعضاء الجسم المختلفة في الفضاء.

فالإحساس بالوقوف أو الجلوس أو الاضطجاع، أو بحركة الذراع أو القدم، كل هذا هو ما نسميه حاسة التوازن.

٦- حاسة الاتجاه:

وهي حاسة لم تكشف إلا حديثًا، وهي إحساس باتجاه الجسم إلى المين أو اليسار أو الأمام أو الخلف، وعضو الحاسة هو القنوات الهلالية في الأذن، وهذه القنوات مملوءة بسائل يتمايل كلما تمايل الجسم.

٧- الذوق والشم:

وهما حاستان أكثر تعيينًا مما سبقهما، وعضو الأولى اللسان والثانية الأنف، ويجتمعان معًا تحت نوع واحد من الحواس، لأنهما يتأثران تأثرًا كميائيًا، ويتصلان ببعض صلة كبيرة، كما يحدث حين يصاب الإنسان بزكام، فيضعف الشم والذوق في وقت واحد. ويتأثر الذوق بالحلو والمالح والحامض والمر. أما الشم فهو إحساس عن بعد، إذ تخرج رائحة من الجسم يحملها الهواء وتتصل بالأنف فيتم الإحساس. ونحن نصف الشمومات بالمصدر الآتية منه، فنقول رائحة ورد أو بنفسج.

8- حاسة السمع:

وهي الإحساس بالأصوات والأنام؛ ويسمع الشخص عن طريق تأثر السائل الذي يجري داخل الأذن من تذبذبات الهواء، وتحصل الأنغام من الذبذبات المتساوية في الطول، مثل ضربات الموسيقى أو أى إيقاع منظم. أما الأصوات العادية أو الدوي، فهي نتيجة عدم انتظام الذبذبات الأثيرية بين الطول والقصر وعدم تجانسها. ويستطيع الإنسان التمييز بين الأصوات فيما بينها، وذلك تبعًا للسلم الموسيقي الذي يشمل سبع درجات. فهذه الحاسة إذن أدق عند الإنسان من حاستي الشم والذوق، لأننا لا نستطيع التفرقة بين المشمومات من نوع واحد إلا في صعوبة. ومن ناحية أخرى يستطيع الإنسان أن يميز الأصوات في ذاتها لا عن المصدر الذي صدرت عنه.

٩- حاسة البصر.

وهي الإحساس بالمرئيات بما فيها من أضواء وألوان وأشكال. وعضو هذه الحاسة هو العين. والبصر والسمع والشر من الحواس التي يكون مؤثرها بعيدة عن الإنسان، ولذا نحن نرى الأشياء عن بعد. وللعين خاصة تركيز الصور التي تراها في بؤرة واضحة على العدسة، أي المكان الذي تكون فيه الصورة أوضح ما تكون، وهو بالقرب من عصب الإبصار.

وهذه الحاسة أكثر مما سبقها تعيين وتمييزًا لما تستقبله من مؤثرات، فلها القدرة على تمييز الألوان السبعة المعروفة، ولها أكثر من هذا القدرة على الإحساس الدرجات المتعددة التي يحتوي عليها اللون الواحد.

هذه هي حواس الإنسان، التي يتعرف بها العالم الخارجي، وبدونها لاتتم له أي معرفة خارجية. فالأعمى الذي ولد كذلك، لا يعرف ما الألوان وما الأنوار؟ ولو تصورت إنسانًا خالية من الحواس جميعًا، السمع والبصر واللمس والذوق والشم وسائر الحواس، لكان هذا الإنسان أقرب إلى النبات منه إلى الإنسان.

وليست جميع الحواس بالنسبة للإنسان ذات أهمية واحدة. وإذا رجعنا إلى أنفسنا نستقرىء أي الحواس أكثر استعمالًا وأكبر فائدة، لكانت حاسة البصر في مقدمتها، ويتلوها السمع. وليست الحواس بمثل هذا الترتيب وهذه الأهمية عند جميع الحيوانات، إذ أن أول وأهم حاسة يستعملها الكتاب ويستفيد منها، هي الشم. هذا وكلما كثر استعمال الحاسة تحددت وأصبحت لها القدرة على تمييز المؤثرات الخارجية، ولذا تجد البصر– لأن الإنسان يستعمل هذه الحاسة أكثر من غيرها– قد وصلت إلى هذه الدرجة. ويلى حاسة البصر في أهميتها حاسة السمع. ويخيل إلينا أن هاتين الحاستين، البصر أولًا والسمع ثانيًا، هما أكثر الحواس استعمالًا وفائدة للإنسان، من حيث هو عامل، ولذا كان البصر أكثر الحواس اكتسابًا للمعلومات. ذلك أنه قد ثبت بالتجارب أن أغلب الناس يفهمون عن طريق القراءة، أي عن طريق البصر، أكثر مما إذا سمعوا ما يقرأ عليهم.

والخلاصة أن الإحساس يمر في هذه الأدوار:

١- وجود ""مؤثر"[1] خارجي يؤثر في عضو الحس.

٢- انفعال عضو الحس، وتأثر أعصاب الحس، ونقل "الأثر"[2] إلى المراكز العصبية.

٣- الإحساس، أي الشعور بالأثر الذي أحدثه المؤثر.

فإذا رأيت شخصا، فالإحساس الذي حصل ينقسم إلى ثلاث مراحل، الأولى وجود الشخص وهو المؤثر الخارجي، إذ لو لم يكن موجودة لما رأيته؛ والثانية تأثر العين بصورة الشخص الخارجية، والتي وصلت إلى العين في هيئة موجات ضوئية، ثم انفعال عصب الإبصار وانتقال هذا الأمر إلى المخ، والثالثة الشعور بالأتر.

كذلك حين تسمع مدفع الظهر، يكون هذا دليلا على انطلاق المدفع الذي يحدث الصوت، ودليلا على أن هذا الصوت قد وصل إلى الأذن وتأثرت به، وعلى أن أعصاب السمع قد نقلته إلى الخ، ثم على الشعور بوجود الصوت.

الادراك الحسي

{فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (سورة الحج: ٤٥)

ضربنا في الفصل السابق المثل بالمار في الطريق الذي يسمع صوت السيارة فيتجنبها، وقلنا إن هذا السلوك رد على مؤثر خارجى، ووجدنا أن "معرفة" الأثر الخارجي تتم أولًا عن طريق الإحساس.

والواقع أن تقسيم العمل إلى إحساس، وإلى معرفة تعقب الإحساس، هو قسم صناعي. ولكننا لسهولة البحث فصلنا الإحساس ودرسناه على حدة. أما المعرفة بالأشياء الخارجية في كل لا يتجزأ.

---

(١) Excitant.

(٢) Excitation.

ولست تجد الإحساس الخالص الخالي من المعرفة، إلا في النادر، عند الطفل الحديث الولادة، فهو يرى ويسمع، ولكنه لا يعرف مايري وما يسمع[١].

هذه المعرفة التي تعقب الإحساس تسمى الإدراك الحسي[٢].

وينبغي أن نجعل في بالنا أن هناك شرطين[٣] يتوفران في كل إدراك حسي:

(١) كل إدراك حسي هو في أول الأمر رد من الكائن جملة، على مجموعة من المؤثرات.

(٢) كل إدراك حسي عبارة عن رد على هذه المجموعة من المؤثرات صادر عن شخص له ذكرياته، وعاداته، واتجاهاته الفكرية والوجدانية.

وتعود بعد ذلك إلى تحليل عملية الإدراك الحسي.

الانتباه:

قبل أن ندرك شيئًا ما، يجب أن تحضر أنفسنا ونهيئ عقولنا لإدراكه. والواقع أن كل عمل أو سلوك يحتاج إلى الهيئة والانصراف إليه والاستعداد له قبل القيام به. فالكاتب إذا أراد الكتابة يحضر نفسه، ويبعد عنه جميع المشاغل الأخرى، وينصرف عن التأثر، أو قال إنه يتعمد الانصراف عن التأثر بأي شاغل يحيط به، ليفرغ نفسه ويستعد للكتابة. هذا الاستعداد هو ما نسميه الانتباه؛ وهو يتطلب أن يتخذ الشخص هيئة خاصة تلائم ما يريد أن ينصرف إليه، وأن يرهف الحواس التي يحتاج إليها في درك ما يريد أن يدركه، كالشخص الذي يستمع إلى مغن، فإنه يجلس جلسة معينة متوجهًا إلى المغني، ثم يفتح أذنيه وعينيه لتلقي الأغاني وتتبع الحركات والإشارات، حتى لا تفوته آهة أو تفلت منه إشارة. وهو في وضع جسمه يكون متطلعًا إلى الأمام مشرئبًا بعنقه، مصوبًا عينيه، مرهفًا أذنيه، حتى يتلقى كل شيء،

---

(١) Woodworth p. 312

(٢) Perception

(٣) Psych. par, Guillaume p. 144

وفي البصر تجد العين مركزة على الشيء الذي يريد الشخص أن يراه، حتى ترتكز الصورة التي يراها في بؤرة واضحة على العدسة كي يحسن الإبصار، وإذا كان الشيء متحركًا تتبعه بكل دقة وتركيز، حتى يكون الإحساس كاملًا دقيقًا.

هذا هو الانتباه المتعمد الذي يقصد صاحبه أن يبلغ به إلى معرفة الأشياء الخارجية. وكثيرًا ما يكون هناك دواع تجذب الإنسان وتدفعه إلى أن ينتبه رغمًا عنه. وفي هذه الحالة يتخذ هيئة الانتباه التي ذكرنا سابقًا. وتختلف العوامل التي تدفعنا إلى الانتباه، وتختلف من شخص إلى آخر، وتختلف بحسب الظروف والأحوال وبحسب الميول الموجودة عند كل شخص. فإذا ذهب عدة أشخاص إلى ملعب كرة القدم مثلًا، فقد يلتفت أحدهم إلى اللاعبين، وقد ينتبه آخر إلى المتفرجين، وثالث إلى العصب نفسه... إلخ، وذلك حسب ما يدعو إلى الانتباه عند كل منهم.

الإدراك الحسي:

بعد أن يحضر الإنسان نفسه للادراك عن طريق الانتباه، سواء في ذلك ماكان معتمدًا أو غير معتمد، كيف يتم الإدراك بعد ذلك؟

أمامك كتاب فكيف تدرك أن هذا الشيء كتاب؟ سمعت صوتًا فكيف تدرك أن هذا الصوت صوت سيارة ؟ دخلت في الظلام حجرة لتحضر طربوشًا فكيف تدرك الطربوش حين تلمسه؟ مررت بمنزل فشممت رائحة خاصة فكيف تدرك أنها رائحة لحم يشوى؟ تذوقت شرابًا فكيف تدرك أنه شراب البرتقال أو الليمون.

كل هذه الأمثلة مدركات حسية قائمة على الإحساس، فكيف وصل الإنسان إلى معرفة الكتاب أو السيارة أو الطربوش أو الشراء أو الشراب؟ لنأخذ مثل الكتاب الذي تراه أمامك وتعلل كيف وصلت إلى إدراكه على أنه كتاب، فهناك:

١- مؤثر خارجي، وهو هذا الكتاب.

٢- الحاسة، وهي الواسطة بين المؤثر الخارج والمخ، وهى هنا العين.

٣- انفعال العصب البصري، ونقل هذا الأثر إلى مركز الإبصار في الجزء الخلفي من

المخ.

وإلى هنا تتم عملية الإحساس التي شرحنا سابقًا.

٤- استقبال العقل للإحساس، فيشعر بوجوده، ثم يؤوله ويخلع عليه معنى مفهومًا.

فالإدراك الحسي هو شعور الشخص بالإحساس أو مجموعة الإحساسات التي تصل إليه عن طريق حاسة أو مجموعة من الحواس، ثم تأويل ما يشعر به فينتج عن ذلك معرفة الأشياء الخارجية.

الشعور بالإحساس:

من الصعب التفرقة بين الإدراك والإحساس، إذ أنك لا تجد في الواقع- إلا في الأحوال النادرة- إحساسًا لا يعقبه إدراك. فالطفل الحديث الولادة يتأثر بشتى الإحساسات، ولكنه لا يدرك منها شيئًا، أي لا يكون لها معنى صحيحًا في ذهنه، وبعبارة أخرى لا يستطيع أن يلائم بين نفسه وبين مقتضيات الإحساسات التي تصل إليه، فهو يخطيء ويتعثر حين يرد على المؤثرات الخارجية، لهذا السبب فإنه يرى القمر فلا يستطيع أن يدرك أنه من البعد بحيث لا يمكن الوصول إليه، ولذلك يحاول الإمساك به. ثم لا يلبث أن يميز بين الإحساسات المختلفة، كالسمع والبصر مثلًا. وإذا وخزه دبوس بكي لأنه يشعر بالألم، ولكنه لا يدرك مصدر الإحساس.

ومن الأمثلة التي نعثر فيها على إحساس خالص مثل الشخص المستغرق في النوم، الذي يستيقظ فجأة لسماع صوت مزعج، فإنه يرى ويسمع ولكنه يظل عدة لحظات لا يدرك ما يرى وما يسمع، إذ هذه الإحساسات لم تميز في عقله، ولو أنه يشعر بها. أما في حالة النوم العميق أو التخدير مثلًا فإنه لا يشعر بها ولا يدركها.

أو كالمسافر في قطار السكة الحديدية، يجلس في مقعده يسمع دويًا مزعج وضجيجًا مستمرًا، عنده إحساس بهذه الأصوات، ثم يشعر ويميز هذا الدوي وهذا الضجيج حتى إذا ما انصرف ذهنه إلى شيء آخر كأن ينهمك في قراءة جريدة في يده، لم يدرك من هذا الصخب شيئًا، ولم يشعر به، ولكن الصوت يصل إلى أذنيه،

وتتأثر به أعصاب الحس، فعنده إذن إحساس دون أن يكون عنده إدراك.

أوكلاعب الشطرنج الذي يمسك لفافة التبغ بين أصابعه يدخنها، ثم ينصرف إلى اللعب والتفكير فيه، فتحترق اللفافة حتى تصل إلى يده وتلسعها، فلا يدرك الألم الذي يحدث بأصابعه، ولا يشعر به. فالشعور بالإحساس أمر ضرورى لإدراك الأشياء. والإدراك الحسي هو الشعور المباشر لشيء أو موقف خارجي تتأثر به حاسة واحدة أو مجموعة من الحواس ويصل إلينا عن طريق الإحساس.

تأويل العقل الإحساس:

تبين لنا أن الإحساس الخالص غير موجود إلا في النادر، ولا بد من إضافة الإدراك إلى الإحساس حتى تتم المعرفة بالأشياء الخارجية.

والإحساس التي يصل إلى أذهان عدة أشخاص من شيء خارجى واحد، يكون واحدًا عند الجميع، لأن التركيب الفسيولوجي للشخص العادي متفق عند جميع الناس. فإذا كنا في حجرة مقفلة وسمعنا صوتًا عاليًا، فإن هذا الصوت عبارة عن موجات هوائية ذات طول مخصوص، تتأثر بها آذاننا جميعًا، وتنقلها أعصاب الحس إلى مركز السمع في المخ، فالإحساس بهذا الصوت واحد عندنا جميعًا، فهل يكون إدراكنا له متفق؟ قد تختلف في إدراكه، فأحدنا يقول إنه صوت طلقة نارية وآخر صوت باب يقفل. وثالث صوت فرقعة عجلة سيارة.... فإدرا كنا للشيء الواحد يختلف من شخص إلى آخر، ويختلف عند الشخص الواحد باختلاف الزمان، فيم يقع هذا الخلاف في الإدراك؟ بل كيف ندرك الإحساس الذي يصل إلى الذهن؟ ذلك أننا قد نرى جميع شجرة أو شخصًا أو منزلًا أو أي شيء آخر، ثم نتفق على إدراك ذلك الشيء بشكل واحد، فهناك أحوال نتفق فيها على الإدراك، وأحوال أخرى تختلف فيها، ويستمد ذلك من عدة عوامل نشرحها فيما يأتي:

1- الشيء الخارجي.

يتوقف الإدراك الحسي إلى درجة كبيرة على طبيعة الشيء الخارجي. فهناك أشياء

مألوفة تقع تحت بصرنا وسمعنا كل يوم، واتفقنا على تسميتها ومعرفة فائدتها وهناك أشياء جديدة نراها لأول مرة.

والإدراك الحسي هو اكتساب حقيقة خارجية، تصبح معرفة بانتقالها إلى العقل، ومتى وصل الشيء الخارجي إلى الذهن نحاول أن نؤوله، وإلا بقى غامضًا لامعنى له. فالأشياء التي نتفق جميعًا على إدراكها ومعرفتها بشكل واحد، تكون في الواقع أشياء مألوفة سبق لنا إدراكها، وإذا نظرت إلى الطفل الصغير تجد أنه يخطىء في إدراك الكتاب أو الشجرة، كما تخطىء نحن في إدراك الأشياء التي نراها لأول مرة.

والشيء الخارجي يكون مركبًا عادة من عناصر مختلفة، أو صفات متعددة، ولكننا في الواقع ندركه في "مجموعه"، بحيث تصل صورته كاملة إلى الذهن. فالكتاب له صفات كثيرة، شكله وحجمه ولونه... إلخ. وإذا فرضنا أن الشيء الخارجي، عبارة عن حجرة فيها أثاث مركب من كراسى ومكتب ومناضد، فإدراكنا الحسي لها هو انطباع هذه الصورة مجموعتها في الذهن ما هي عليه. أما إذا أدركت الملاقات الموجودة بين الكراسي، أو النظام الموجود عليه الأثاث، أو أن الكرسي في ذاته شيء صالح الجلوس عليه، فلا يسمى هذا إدراكًا حسيًا. وبعد وصول هذه الأشياء إلى الذهن يحاول العقل إعطاءها معنى، وهذه طبيعة من طبائع العقل، لأن الإنسان على حسب المعنى أو الصفات التي يدركها من الأشياء يكون تصرفه بازائها.

٢- التأويل.

يتوقف الإدراك الحسي على ناحيتين، ناحية موضوعية في الشيء الخارجي نفسه، وناحية شخصية تتوقف على أنفسنا. واختلاف الإدراك ينشأ من الطريقة التي ننظر بها إلى الأشياء، وكيف نوجه انتباهنا إليها، ويتوقف على عدة عوامل أخرى. فإذا رأيت شيئًا مستديرًا أحمر تقول تفاحة، وإذا سمعت صوت وصغيرة تقول قطار، أو سمعت بوقًا تقول سيارة، وإذا شممت رائحة طيبة تقول هذا ورد.... إلخ. ومع ذلك فإنك لم تر القطار نفسه ولم تنظر الوردة. وهناك عوامل كثيرة تتدخل في تفسير ما يصل إلينا من إحساس، نجملها فيما يلى:

(أ) **الترابط.**

تتكون التفاحة مثلًا حين إدراكها من جملة إحساسات، شكلها وطعمها وحجمها ورائحتها وملمسها. وأغلب الأشياء التي ندركها إدرا كًا حسيًا، يشترك في إدراكها جملة حواس. فنحن حين ندرك التفاحة ربط في الذهن شكلها براحتها بطعمها بملمسها بحجمها، ولو لم يوجد هذا الربط لا ختلط علينا التفاح الحقيق بالتفاح الصناعي الذي يشبهه في شكله وحجمه قط.

و إذا أدركت شيئًا لأول مرة لا نستطيع أن توجه انتباهك إلى كل جزء من أجزائه دفعة واحدة. وإذا كان حقًا أن المجموع يكون كله موجود بالذهن فإنه يكون غامضًا، ولا تعرف منه على وجه الدقة إلا الجزء الذي تركز فيه انتباهك. إذا رأيت الشيء مرة ثانية تكون قد عرفت ذلك الجزء الذي اهتممت به وأدركته فتنصرف من جديد إلى جزء آخر، ثم تترابط الأجزاء بعضها ببعض.

إذا نظرت إلى التقويم الذي يعلق بالحائط، تجده مركبًا من "لوحة" من ورق "الكرتون" وبهذه اللوحة صورة أو إعلان أو زخرف، ثم في أسفلها التقويم نفسه به تاريخ اليوم باللغة العربية والأجنبية، من هذه المجموعة التي تبصرها لا تدرك في الواقع إلا شيئًا واحدًا هو الذي يتركز فيه انتباهك، إلا إذا انتقلت بصرك وانتباهك من جزء إلى آخر بسرعة. فإذا فرضت شخصًا لم يسبق له إدراك مثل هذا التقويم فإنه لن يعرفه لأول مرة، ولكنه قد يدرك الصورة أو الزخرف فقط لأنه يعرفه قبل ذلك، ثم يربط بعد ذلك التقويم بتلك الصورة، ثم يربط التقويم بالتاريخ. فأنت تدرك الشيء بأكمله مع أنك لا تدرك إلا جزء منه، لأن أجزاءه مرتبطة في ذهنك. وهكذا كلا تكرر الإدراك، وضح وزاد المعني.

(ب) **التجارب السابقة.**

تقوم المعرفة على التعلم والكسب والخبرة السابقة. وتلعب الذاكرة دورًا كبيرًا في هذا الشأن، إذ يتذكر الإنسان ما يمر به من خبرة، فيصبح الجديد قديمة، والجمهول

معروفًا. ثم إن معرفة الأشياء لا تتم دفعة واحدة، بل تتدرج في الوضوح كما طال عهد الإنسان بها، وهذا نتيجة الذاكرة. وبدون الخبرة السابقة تكون المعرفة ناقصة غامضة، فالشخص الذي يعرف السجاد لأنه رأي بعضًا منه في المنازل، غير هواة السجاد الذين يميزون أصنافه المختلفة، وقد يخلط الجاهل بين السجاد وبين أنواع أخرى لا تمت إليه بصلة. والسيارات في نظر الشخص العادي متقاربة، أما صاحب السيارة فإنه يميز أنواعها المختلفة. والواقع أن الأشياء تكتسب المعنى الذي تخلعه عليها لا من صفاتها قط، بل من فوائدها واستعمالها أيضًا. كذلك الخبرة المباشرة بالأشياء أفضل من المعرفة عن طريق الغير، أو على حد المثل المشهور "ليس الخبر كالعيان". لذلك كان العمل النظري في الأمور العملية لا يفيد فائدة الخبرة في كسب المعرفة وتحديدها، فالطبيب الذي يدرس تشريح الجسم في الكتب لا تتضح في ذهنه هذه الحقائق مثل ما إذا شرحه بيده.

فعلى قدر الخبرة السابقة يكون الإدراك. ولذا كان الطفل أقل إدراكًا وفهمًا الحسات من الشخص البالغ، ويرجع ذلك إلى قلة تجار به عن الأشياء الخارجية، وكما تقدمت السن بالطفل زاد إدراكه.

(ح) **الاتجاه العقلى.**

اقرأ هذه الكلمات بصوت عال وبسرعة.

ضرير– غدير– أمير– جير– بير– دير

أغلب الناس يقرأون الكلمة الأخيرة وهي "دير" بإعطائها حركة الكلمات التي سبقتها، وذلك لأن الذهن قد توجه وجهة خاصة، ولذا يصعب أن يغيرها، كالسيارة التي تنطلق في الطريق فيصعب على قائدها أن يغير اتجاهها فجأة. ومن هذا القبيل مثال الشخص الذي يكون جالسًا على مقهى في انتظار صديق له فيرى شبحًا من بعيد، فيدرك أنه ذلك الصديق، لأن ذهنه متجه هذه الوجهة.

والحالة النفسية التي تسود الإنسان وقت الإدراك، أثر كبير في إدرا كه. ويختلف

التأويل باختلاف تلك الحالة. فإذا كان الشخص في حالة حب أدرك الأشياء المحيطة به على نقيض ما إذا كان في حالة كره، ولذا قال الشاعر.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

والأم الفياضة بالحنان نحو ابنها تفزع إليه عند سماعها أي حركة، وتستيقظ من نوعها العميق خوفًا عليه. وكالذي يلدغة الثعبان مرة، فيرى الحبل فيخاله حية تسعي.

خداع الحواس

قد رأيت أن الدرك الحسي، أي الصورة التي تدركها في الذهن عن شيء خارجى بواسطة الحواس، هو مجموعة صفات هذا الشيء التي تصل إلى الذهن. فالشجرة الموجودة أمامك، لا تعرفها في ذاتها، وإنما تعرف ظواهرها فقط. وقد تقول إن كل الناس يتفقون على أنها شجرة، وهذا صحيح لأن العقول الإنسانية واحدة وطبيعتها من نوع واحد، فما يراه إنسان، يراه جميع الناس الاعتيادين متفقًا، وهذا المدرك الحسي نصل إليه عن طريق التجارب السابقة التي نضيفها بعضها إلى بعض فيتكون هذا المدرك. وكثيرًا ما يكون هناك من الأسباب ما يدعو إلى الخطأ في خلع المعني على الشيء، وفي هذه الحال لن يطابق الإدراك الحقيقة، وهذا ما يسمى الخداع. ونحن في حاجة إلى الدقة في اكتساب المدركات لأن الخطأ فيها قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، كالصيدلي الذي يزن المقادير التي ركب منها الأيوية يحتاج إلى الدقة الشديدة في إدراك الموازين. كذلك إدراك الزمان يحدث فيه خداع كبير، قد تمر عليك دقيقة فيخيل إليك أنها مدة طويلة والعكس، وذلك حسب الحالة النفسية التي تكون موجودة فيها. ولذلك إذا احتجت في أمر من الأمور إلى استعمال الزمان استعمالًا دقيقًا، فينبغي أن تستعين بالساعة حتى تضمن الدقة، كالذي يريد أن يسافر في قطار السكة الحديديه الذي يتحرك في مواعيد موقوتة.

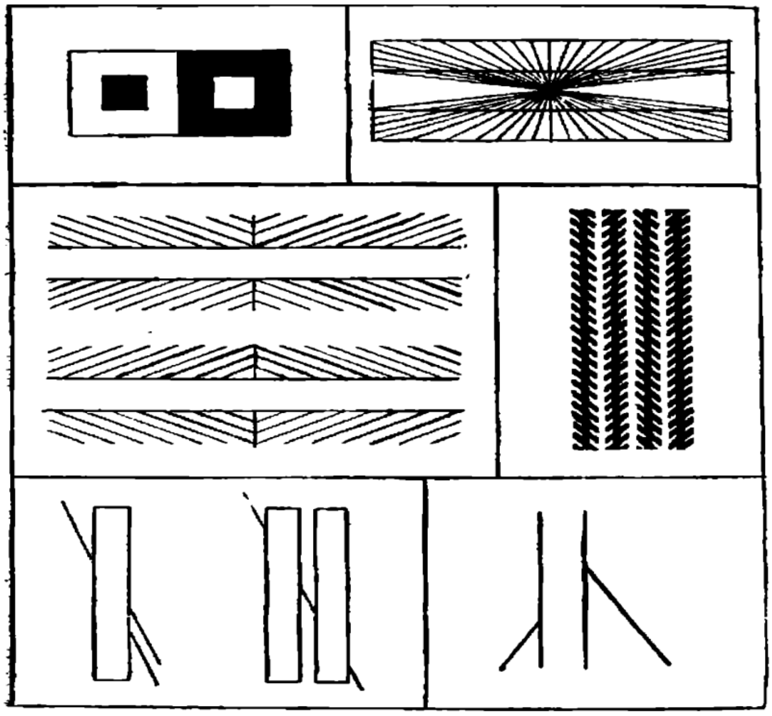
وللبحث عن سبب الخطأ في الإدراك، ينبغي أن ترجع إلى مراحل الإدراك مها نجد أسس هذا الخداع. والإدراك الحسي هو نتيجة وجود الأشياء الخارجية ثم وجود

الحواس ثم العقل. فالخطأ ينشأ عن هذه النواحي الثلاث: طبيعة الأشياء أوضعف الحواس، أو الخطأ في تأويل العقل.

قد يرجع خداع الحواس إلى طبيعة الشيء نفسه، إذ يكون مضللًا بطبيعته، مثل العصا الموضوعة في الماء فإنها تظهر منكسرة، لأن طبيعة الأشعة تجعلها كذلك.

ومن هذا النوع الخداع الذي ينشأ عند رؤية الأشكال الهندسية التي تخدع حتما في إدراكها، مثل الخطين المتوازيين الذين يظهران خلاف ذلك، والخطوط المتوازية التي تظهر غير متوازية (انظر شكل ٩). ويعلل الخداع هنا بأن الشكل عبارة عن مجموعة واحدة، يضطر الناظر إليه أن يراه بأكمله، ولا يستطيع أن يجرد جزءًا منه. فالمجموعة لها في إدراكنا صفة مختلفة عن كل جزء على حدة. وتستطيع أن نستغل هذا الخداع في الحياة العملية، مثال ذلك الشخص القصير القامة يحسن أن يلبس حلة منسوجها مخطط خطوط طولية حتى يبدو طويلًا.

وقد يكون الخطأ نتيجة عدم دقة الحواس، ويبدو ذلك فيمن عنده قصر نظر أو ضعف في السمع أوعمى لونى خاص، فيرى اللون الأحمر أسود بطبيعة العين. وإذا كنا في حجرة دافئة وخرجنا إلى الشارع، فإننا ندرك البرودة الموجودة أكثر مما هي عليه في الواقع، وذلك نتيجة ضعف الإحساس الجلدي عن إدراك الفارق الفجائي.



(شكل ٦) خداع البصر

هاتان الناحيتان: ضعف الحواس، وطبيعة الأشياء، لا دخل للإنسان فيهما. طبيعة الأشياء واحدة بالنسبة لكل الناس، ولذلك نستطيع أن نقول إن ما يظهر لنا مخالفًا للواقع إنما هو الحال الطبيعي.

أما الناحية التي تهمنا من الوجهة النفسية، فهي الخطأ الذي ينشأ عن تأويل العقل الإحساس.

وإدراك الشيء في الواقع لا يكون نتيجة إحساس كامل بجميع أجزائه، بل ما يصل إلى ذهنك هو جزء منه فقط. فأنت تكتفي بجزء من الإحساس ثم تضيف إليه من نفسك، مثال ذلك إذا سمعت اسمك ينادى به، وتبينت تتم هذا الصوت، فإنك تؤول هذا النغم على أنه صوت صديق لك.

فعند الناس تهالك وسبق إلى الإدراك مكتفين ببعض الإحساس. والحقيقة أن الإنسان لا يدرك جميع أجزاء الشيء، وإنما يدرك بوضوح بعض أجزائه وهى التي يركز فيها انتباهه، ثم يبني الإدراك على هذا الجزء. مثال ذلك إذا نظرت إلى بقعة من الحبر لم تقصد منها شكلًا معينًا، ثم طلبت إلى عدة أشخاص أن يدركوا هذا الشكل، فإنهم يختلفون في إدرا كه، كل شخص حسب الأجزاء التي يركز فيها بصره، وحسب خبرته واتجاه عقله.

ينتج عن هذا الاستباق في الإدراك أن يقع الإنسان في الخطأ والخداع. فكثيرًا ما تتصفح كتابًا فتقرأ كلمة غير موجودة بدل أخرى، كأن تكون الكلمة غريبة عن موضعها، أو غير منتظر وجودها، أو لم نتعودها في هذا الموضع. فالعين تتعود إبصار الكلمات متصلة في الجمل، فإذا رأيت غيرها مشابهة لها في الرسم والطول، نطقت بالأولى التي تعودتها.

وإنمـــا الأمـــم الأخـــلاق بقيـــت　　　　فـإن همـوا ذهبـت أخلاقهـم ذهبـوا

هل فطنت حين قرأت هذا البيت إلى النقص الموجود به؟ أغلب الذين يقرأون هذا البيت، يضيفون من عندهم الكلمة الناقصة وهي "ما" بعد كلة "الأخلاق" فما هو السبب في هذا؟ السر هنا أن القراءة لا تكون لكل حرف وكلمة على حدة، ولكن للجملة بأكملها، تعني بما يجري فيها من معنى قبل أن تلتفت إلى اللفظ الشارد. وأنت قد تعودت سماع هذا البيت، لذلك تكتفي منه بالإحساس البصرى ببعض الكلمات، ثم تضيف الباقي من عندك.

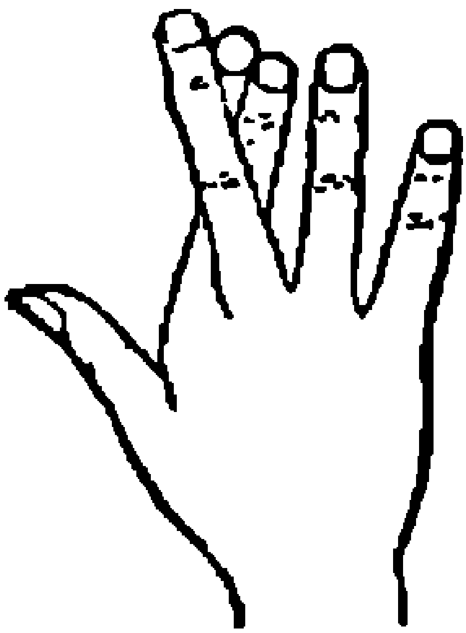
وأكثر من يقع في مثل هذا الخطأ أولئك الذين يصححون تجارب أو"بروفات" المطابع، فكثيرًا ما تمر عليهم الكلمة الخاطئة دون أن يفطنوا إليها، وذلك لمالكهم على الإدراك من غير أن يتم لهم الإدراك الكامل بما يقرأون، إذ يستعيرون من معلوماتهم السابقة وتجاربهم الماضية، أساسًا يؤولون به الإحساس.

هذا الخطأ أو الخداع قابل للإصلاح في بعض الحالات، وغير قابل في حالات

أخرى. فإذا استطعت أن تتحقق الشيء بنفسك أصلحت خطأك، وتفطن إلى هذا الإصلاح أثر الاختلاف في النتيجة التي تتوقعها. فإذا قرأت كلمة تخالف الواقع وكانت هذه القراءة مما يغير المعنى، فإنك تفطن إلى هذا التغير ثم ترجع إلى الجملة تصححها، فتفطن إلى الكلمة التي أدركتها خداعًا. كذلك إذا أدركت شخصًا على أنه صديقك، تذهب إليه وتهم بتحيته، وحينئذ تتحقق خطأك.

أما إذا كان الشيء غير قابل للتحقيق، ففي كثير من الأحيان تصر على ما أدركته خطأ.

ومن أمثال الخطأ المبني على التجربة السابقة والعادة، أنك إذا وضعت قطعة من الطباشير على صفحة يدك، ثم مررت عليها بأصبعيك السبابة والأوسط معقودين، فإنه يخيل إليك وجود قطعتين من الطباشير. وهي تجربة معروفة من قديم، ذكرها أرسطو وسميت "خداع أرسطو".



(شكل ١٠)

وهناك من العوامل ما يزيد في الخداع والخطأ، وأهمها الاتجاه النفسي. فإذا كنت على ميعاد مع صديق تنتظر مجيئه، فإن كل صوت تسمعه تعتقد أنه صوت صديقك، وكل إنسان تراه من بعيد تدرك أنه هو؛ فوجودك في حالة خاصة غير الحال الإعتيادية هو ما ينتج الخداع.

ويهمنا في هذا الشأن تصحيح الخداع، ويكون هذا إذا أزلنا أسبابه. فينبغي أن يتحقق الإنسان من الأشياء التي يدركها إدراكًا حسيًا، بألا يسرع في الإدراك، وألا يدع نفسه فريسة الحالات النفسية التي توجهه وتجعله متحيزًا في إدراكه.

الفصل العاشر

التصور

تصل الأشياء الخارجية إلى الذهن ممثلة في مجموع صفاتها، ويسمى هذا المجموع المدرك الحسي. هذا المدرك الحسي[١] هو أقرب شيء إلى الحقيقة، وإلى الشيء الخارجي الموجود في الواقع، لأنه يصل إليك عن طريق الحواس، وأنت منتبه إليه، مثل إدراكك الكتاب الذي تقرأ فيه الآن، وصلت منه أشعة ضوئية تحدد شكله وحجمه ولونه ووقعت على العين، ونقلها عصيب الإبصار إلى منطقة الإبصار في المخ فعرفت أنه كتاب. ولكنك تستطيع أن تصرف النظر عن هذا الشيء الخارجي الموجود أمامك في الواقع، ثم تستحضره في ذهنك على هيئة "صورة" ليس إلا. ذلك أنك تخزن في العقل المدرك الحسي، ثم تخرجه إذا شئت دون أن يكون الشيء موجودًا، وهذا ما نسميه "الصورة"[٢].

وليست جميع الصور من ناحية نوعها، ومن ناحية سهولة أو صعوبة استحضارها، ومن ناحية مكانها في الترتيب واحدة. فالصور البصرية في تلك التي نستحضرها عن طريق البصر. وأكثر الناس بصريون، بمعنى أن تصورهم للأشياء يكون عن طريق البصر لا عن طريق الحواس الأخرى. والأشخاص الذين هم من هذا الطراز يتذكرون ما مر بهم من قراءات باستحضار الصفحات المطبوع فيها الكلام. كذلك يترجون الكلام إلى صور بصرية إذا كان ذلك مستطاعة، والقانون في نظرهم قاضي يلبس رداء القضاء. والبصريون أقسام منهم من يتصور الأشكال، ومنهم من يتصور الألوان، ومنهم من يتصور الأبعاد الهندسية. فلاعب الشطرنج يتصور في ذهنه حركة

---

(١) Percept.

(٢) Image.

القطعة التي سينقلها والموضع الذي ستصل إليه، والصورة هنا بصرية حركية في آن واحد.

والصورة السمعية هي تلك التي تستحضرها في الذهن عن طريق السمع. فإذا سمعت نتم بوق السيارة ثم اختفى النغم، تستطيع أن تستحضر صورة هذا الصوت في ذهنك فيخيل لك أنك تسمعه. كذلك إذا سمعت النت الموسيقي فإنك تستحضر صورته في الذهن بعد سماعه. والسمعي حين يريد أن يستعيد درس حفظه يستحضره عن طريق السمع لا عن طريق البصر، كأنه يسمعه، وإذا أراد أن يجمع عددين فإنه يتم بشفتيه أرقام هذين العددين. والموسيقيون سمعيون، فقد كان "بيتهوفن" يردد صدى مقطوعاته الخالدة في باطن نفسه، حتى بعد أن أصيب بالصم. والقدرة على التصور السمعي أقل من التصور البصري سواء عند الناس على وجه العموم أم عند الشخص الواحد.

والصورة الحركية هي تصور الأشياء المتحركة، مثل تصور سيارة تجري، أو رجل يمشي، أو حركة الذراع في الهواء. وهناك صور شمية وذوقية ولمسية، وهذه جميعًا أصعب في استحضارها بل نادرة.

وأغلب الناس أوساط، بمعنى أنهم لا يختصون بنوع واحد من هذه الأنواع السابقة وهي البصرية والسمعية والحركية، بل لهم القدرة على استحضار الصور السابقة كلها.

وليس شك في أن الصورة تكون أقل دقة ووضوحًا من إدراك الأشياء نفسها، إذ ينسى المتصور كثيرًا من التفاصيل، بل كثيرًا ما يضيف من عنده أشياء لم تكن موجودة. وهناك تجربة قال بها "السير فرانس جالتون" حين توجه إلى العلماء أن يسترجعوا الصور المتعددة عن مائدة طعام الإفطار، بما عليها من شاى ولبن وجبن وبيض وصحون وملاعق... إلخ مع التفصيل الدقيق من حجم وشكل ولون. وتستطيع أن تجرى هذه التجربة على نفسك الآن. فهل تستطيع أن تسترجع طعم ورائحة اللبن أو القهوة أو البيض أو الفول أو الجبن؟ هل تستطيع أن تسترجع خشونة

الخبز أو نعومته؟

وإذا وازنا بين الصورة والإحساس فإننا نجد أنهما يؤديان إلى نفس النتائج الفسيولوجية والنفسية؛ فالشره حين يجلس إلى المائدة، ويتصور أطباق الطعام واللذة التي سيحصل عليها، يسيل لعابه مقدمًا. والطفل الذي تهدده بالعقاب، يتصور ألم العصا فيبكي.

التصور والأدب

مما يجعل للآثار الأدبية قيمة ولذة، وبهاء ورونقًا، أن نستحضر في الذهن الصور الحسية لما نقرأ، بصرية أو سمعية أو حركية أو أي نوع آخر، فيتضح الأثر الأدب في الذهن، ونستمتع به أكبر الاستمتاع. فإذا قرأت نظر أمير الشعر المرحوم أحمد شوقي مثلًا، وهو يصف الجسر الواصل بين ضفتي البوسفور، واستحضرت الصور الحركية والبصرية الموجودة فيها، فإنك بهذا التصور تملؤها حياة:

أمـــير المـــؤمنين رأيـــت جســـرًا ... أمـــر علـــى الصـــراط ولا عليـــه
لــه خشــب يجــوع الســوس فيــه ... وتمضـــــي الفـــــأر لا تأوي إليـــــه
ولا يتكلــــف المنشــــار فيــــه ... ســــوى مــــر الفطــــيم بســــاعديه
ويبلــى نعــل مــن يمشــي عليــه ... وقبــــل النعــــل يــــدمي أخمصــــيه

التخيل

التصور كالإدراك الحسي. هو نوع من معرفة الأشياء الخارجية، مع الفوارق التي ذكرنا سابقًا.

ولكن هناك نوعًا من الخيال نبتعد فيه عن الواقع كما هو عليه، ونخرج به إلى مستوى أعلى، للعقل فيه أثر كبير. ذلك أننا لا نتصور صورًا بمفردها أو مجموعة من الصور دفعة واحدة، ولكن الصور تتجمع متسلسلة متماسكة، بينها كثير من

العلاقات المختلفة التي تؤلف معنى جديدًا، وهذا ما يسمى التخيل[1] فالصورة واقعة واحدة، والتخيل وقائع متعددة ترتبط بعضها ببعض، وتسير متتابعة كشريط الخيالة. وللتخيل أنواع متعددة.

١- من طبيعة كل شخص أن يبصر إلى حد ما مستقبل الأعمال التي يؤديها وقد يكون هذا التنبؤ قريبًا وقد يكون بعيدًا، ويقوم التنبؤ على الاستنتاج أو الأمل أو الحلم أو الخوف أو الرجم، فالاستنباء بالمستقبل أثر من آثار التخيل، كذلك كل مشروع جديد هو نتيجة الخيال، فرجال الأعمال ينفذون بخيالهم إلى تصرفات الناس. والحضارة نفسها تحمل بين طياتها عنصر النظر إلى المستقبل.

٢- لا يمد الإدراك الحسي الإنسان إلا بجزء محدود جدًا من العالم الخارجي، وكذلك الذاكرة لا تستحضر إلا جزءًا من الماضي. وهنا يتدخل الخيال ليستكمل هذه المساحات المحدودة، ويوسع آفاقها المخبوءة البعيدة.

٣- ومن وظيفة الخيال تفسير حقائق العالم، وقد يكون هذا التفسير جزئيًا تعلل به حقيقة بسيطة محدودة بذاتها، كوقوع سرقة أو ضياع شيء أو رسوب طالب في الامتحان. وقد يكون عامًا كالقوانين الطبيعية التي تفسر حقائق الكون مثل قانون الجاذبية، أو كالنظم الفلسفية والدينية.

٤- واللعب نوع من الخيال الخالي من الغرض، حيث يسعى الإنسان إلى اللهو دون النفعة. فالطفل يركب العصا ويبعث فيها الحياة فيتخيل أنها حصان حقيقي. ولعب الكبار قد ينصرف إلى الفن، فالرسم والموسيقى والتصوير وإنشاء الروايات خروج عن الواقع لإرضاء شهوة الخيال.

٥- والأوهام المختلفة كالهذيان وأحلام اليقظة والأحلام، إن هي إلا تخيل خرج عن حدوده وتفكك واكتسب هذه الصفة، ويوصف التخيل في هذه الحالة بالضرر، ويعد هذا من أمراض الخيال.

---

[1] Imagination.

والخيال أثر كبير في درس التاريخ، لأنه يقرب الأشياء إلى الذهن، ويبعث فيها الروعة واللذة والحياة، ويمنع عنها السأم والملل. فإذا كنت تقرأ في تاريخ "محمد على باشا"، دعوته للماليك في القلعة، وهم خصومه الأقوياء، وأصحاب الشأن في البلاد من زمن، ثم إجهازه عليهم في مذبحة سالت فيها الدماء وقضى عليهم وهم عزل من السلاح على أيسر سبيل، وقد بلغ عددهم حول الخمسمائة أو يزيد، فأراح نفسه وأراح المصريين من شرهم المستطير.... هذا التخيل هو الذي يبعث الحياة في المشاهد التي لم تقع تحت الحياة، ولم تدخل في تجربتنا، وإنما نقرأ ونسمع عنها قط.

ليس في هذا النوع من التخيل جدة أو إبداع أو خروج عن الواقع، بل هو محاولة استعادة الصور على نسق ما يعرفه الإنسان، والأم عندنا هو بحث "التخيل الابتدع" الذي يؤلف صاحبه شيئًا لم يكن موجودة من قبل كما سنفصل ذلك الآن.

الاختراع[1]

العامل المبتدع هو الذي يخترع وسائل يخرج بها إنتاجا أكبر بمجهود أقل والتاجر المبتدع هو الذي يعرف كيف يبتكر الإعلان الطريف، ويرتب بضاعته الترتيب اللطيف، ويقدم للمشتري الصنف الجديد. والكاتب المبتدع أو القصصي البارع هو الذي يصور الشخصيات ويلون الحوادث، بحيث لا تكون نسخة من الحقيقة، ولكنها حية معقولة تأخذ بمجامع القلوب، هذا الخيال هو الذي يستطيع الإنسان بواسطته أن يؤلف ويربط الأفكار والصور بطريقة جديدة مبتكرة، بحيث يخلق الإنسان شيئًا جديدًا لم يكن معهودًا من قبل.

الاختراع والسن:

يختلف التخيل المبتدع باختلاف السن، فالخيال عند الطفل مرن مرونة شديدة، إذ يطفر من أفكار وصور وأحلام إلى غيرها. وللخيلة عنده قدرة عجيبة على قلب الأشياء ووضعها في ثوب روائي، فهو يجد في الريح التي تهب خارج الحجرة، وفي

---

(1) Citation, Covention

الأصوات التي يسمعها صادرة عن الشارع، أغرب الوجوه وأعجب الأصوات. واللعب البسيطة التي يتناولها بيديه هي شخصيات حقيقية، يعيش معها كما نعيش نحن في عالم الأحياء، "فدمية" الطفلة بنت تجرى فيها الدماء، وترى وتسمع وتتكلم ولذلك تحركها وتخاطبها كأنها شخص حي.

وللطفل ميل خاص إلى تهويل الأحجام، وتكبير قوى الإنسان، وتجسيم الأشياء. أما الرجل فالحقائق تصدمه، والواقع يحد من خياله، فلا يستطيع أن يسبح في عالم الخيال إلى ذلك الحد من الوهم والتهويل كالطفل. لأن العقل يضع سدًا يحول دون جموح الخيال. فالطفل لا يعرف من الحقيقة إلا معارف ضئيلة يخلطها بأحلامه، ويضيفها إلى أوهامه، وهو لا يدري إلى أي حد تمتزج الحقيقة بالخيال، أما الرجل فذهنه مملوء بالحقائق التي تكبح جماح التخيل، وتمنعه أن يذهب إلى غير حد.

عوامل الإبداع:

يعتقد كثير من الناس أن الخيال المبتدع لما كان صورة غير حقيقية، فهو غير حقيقي في كل شيء. ولكن الواقع خلاف ذلك، لأن التخيل المبتدع لا يخلق المادة التي يتكون منها الخيال، إذ أن هذه المادة موجودة. أما الصفات التي يمتاز بها كل اختراع فإنها ترجع إلى صفتين أساسيتين، الصفة الأولى هي: "الجدة" وهي التي بها يتميز الابتكار عن الأشياء التي سبق أن مرت بنا والتي نتذكرها، والصفة الثانية هي: أن كل اختراع مهما كان بسيطًا، فإنه يحتوى على أسلوب من "النظام"[١].

فالاختراع هو تأليف العناصر المألوفة المعهودة بشكل جديد.

والذاكرة الجيدة ضرورة من ضرورات الابتكار، لأن كل شيء جديد لابد أن يقوم على الذكريات الماضية، والمعلومات السابقة. وليس من الضرورى أن يتكون التخيل من الصور العقلية فحسب، بل الأغلب أن نلجأ إلى المعاني الجزئية والكلية، والمعنى أو الفكرة يختلف اختلافًا بينًا عن الصورة، لأن المعني يحتاج في دركه إلى استجماع

Système.(١)

عدة قوى عقلية كالحكم والعقيدة والاستدلال والمنطق وإدراك العلاقات بين الأشياء. وعلى العكس من ذلك فإن الذاكرة الصماء، الشديدة الحفظ في ناحية من النواحي، تصبح معطلة للاختراع، لأنها تقيد صاحبها فلا يملك تغيير ما حفظ، بينما الابتكار جدة، والجدة تغير.

ولا بد للمخترع أن يحيط علما بأطراف الموضوع الذي يريد أن يبتكر فيه، لأن العقل لا يخترع إلا على حساب المعلومات السابقة، وعلى ذلك فالذاكرة ضرورة من ضرورات الاختراع.

والنزعات الغريزية والفطرية من أهم عوامل الاختراع. وفي المثل المشهور "الحاجة أم الاختراع ". "فالمودات" الجديدة التي تقصد إلى الزينة في أثر من آثار حب الظهور، والمكتشفات والمخترعات والعلوم نتيجة غريزة حب الاستطلاع، وقديما اخترع الإنسان البدائي السلاح من الحجر المسنون والحديد المشحوذ لحاجة الدفاع عن النفس.

ويجب ألا تنسي أثر الوسط الاجتماعي في بعث المخترعات، فالمحاكاة تؤدي إلى انتقال الأفكار وشيوع الأعمال، حيث تنتقل الفكرة من شخص إلى آخر، ومن شعب إلى شعب، ثم يعمل المخترع على تحسينها وكمالها. وقد تشيع الأفكار الجديدة في جيل جديد بعينه مع بعد الشقة، لأن الظروف الاجتماعية وأسباب الحضارة تؤدي إلى ذلك، ففي الوقت الذي كان "دارون" يمهد لنظرية التطور في إنجلترا كان "لامارك" يذيعها في فرنسا.

ويتم الاختراع في ثلاث مراحل أساسية: تحليل وتركيب وإلهام[١].

١- التحليل:

لأجل أن نؤلف بين العناصر الموجودة الحقيقية تأليفًا جديدًا نسميه اختراعًا يجب أن نحلل أولًا الأشياء إلى عناصرها. والتحليل هو نتيجة التخيل المبتدع، فأنت إذا

---

(١) Adalyse, synthèse, inspiration

دخلت حديقة، قسمتها إلى ستة أجزاء مثلًا فهذا حوض الزهر، وهنا مجموعة الشجيرات... إلى غير ذلك. فتحليلك الحديقة هذا التحليل هو نوع من الخيال. والعالم في نظر الطفل أو الرجل الجاهل شيء واحد أو مركب من أشياء لا عدد لها، أما في نظر الشخص المتعب فالعالم يتركب من ثلاث مواد، صلب وسائل وغاز. فهذا التحليل نتيجة الإبداع.

٢- التركيب:

بعد تحليل الشيء إلى عناصره تؤلف بين هذه العناصر تأليفًا جديدًا غير موجود في الحقيقة. ففي الحديقة التي حلتها إلى أقسام تستطيع أن تؤلف بينها تأليفًا جديدًا تتخيل الزهر يتدلى من الدوح والطير ينبت من الدوح..... إلى غير ذلك. وعندنا "طاليس" الفيلسوف اليوناني تخيل أن الماء هو أصل الأشياء، لأنه يتجمد تارة فيكون صلبًا، ويصبح بالحرارة بخارًا تارة أخرى. والمصورون الذين لم يشاهدوا الملائكة، يمثلونهم في صورة بشر لهم أجنحة. والموسيقى البارع لا يفعل أكثر من التأليف بين الأصوات السبعة المعروفة فيخرج لنا لحنًا جديدًا شجيًا.

٣- الإلهام:

هذا التركيب الجديد يكون في الواقع نتيجة إلهام لاندرى كيف يحدث، ولم يستطع العلماء حتى الآن أن يعرفوا كنه هذه الهبة التي توجد عند بعض الناس وإليك مثلًا يبدو فيه أثر الإلهام واضحًا. كان "نيوتن" نائمًا ذات يوم تحت شجرة فوقعت عليه منها تفاحة، فتخيل أن سبب وقوع التفاحة هو "جاذبية" الأرض لها، وكانت هذه الحادثة البسيطة سببًا في كشف قانون من أكبر قوانين العالم، فكيف تخيل نيوتن قانون الجاذبية؟ فقد رأى الإنسان من آلاف السنين الأشياء تقع أمام بصره، ورأى نيوتن نفسه آلاف الأشياء تقع أمامه،

لماذا لم ينتبه إلى هذا الفرض إلا في تلك اللحظة ؟ لا شك أن هذا التخيل هو نوع من الإلهام أو الوحي، أو هو قبس من النور بيطرأ على العقل فجأة فينير ظلمته.

ويمتاز الإلهام بصفة "المفاجأة" إذ يظل الإنسان حائرًا لايدرى كيف يفعل فيما يريد أن يبتكر، وإذا بالفكرة الجديدة تأتي إلى الذهن فجأة، أو كما يعبر الشاعر "الفريد دى موسيه" "كمجهول يهمس في آذاننا"(١).

والحقيقة أن الإنسان إذا كان لا يشعر كيف يصل إلى الاختراع، فإن عقله الباطن أو اللاشعور يظل يعمل في الخفاء وينظر الأمور، حتى تهيأ النتيجة الأخيرة عنها فتطفو إلى مستوى الشعور، ويلهم بها صاحبها.

ولنضرب مثلًا بسيطًا يتضح فيه التحليل والتركيب والإلهام. هبك تحل تمرين هندسة فإن أول شيء تعمله هو تحليل هذا التمرين وتفكيكه، ثم تظل ساعة لاتهتدى إلى الحل، وإذا بك تصل إليه فجأة، لا تدري كيف كان ذلك وإنما هو الإلهام ساعدك على تركيب العناصر التي حلتها، وعلى تركيبها تركيبًا جديدًا هداك إلى الحل والصواب.

الاختراع النافع:

لأجل أن يكون الاختراع مفيدًا ينبغي أن يكون للإنسان غرض يسعى إليه أولًا، ونظام يخطه لتحقيق ذلك الغرض ثانيًا، وأن يكون كلا الغرض والنظام في حدود الإمكان ثالثًا. وفي هذه الحالة يصبح الاختراع مفيدًا في كل مرافق الحياة, في الحياة العادية العملية, في العلوم والمخترعات وفي الفنون.

ينبغي أن يكون الغرض ممكن التحقيق, فكثير من الناس يفرضون لأنفسهم غايات هي شبه المستحيل, كالتاجر الذي يكسب عشرة جنيهات في الشهر, فيطمع في ربح قدره ألف في الشهر التالي. هذه قصور تبني على الماء؛ ومثل القوم الذين يطمعون في هذه الأغراض, مثل الطفل الذي يتصور إمكان الإمساك بالقمر.

فإذا وضعت لنفسك الغرض المعقول, كالطالب الذي يتطلع إلى النجاح بتفوق في الامتحان, أو التاجر الذي يربح خمس عشرة جنيها في الشهر بدل عشرة, وجب

(١) Comme un inconnu qui nous parle à l'oreille.

أن ترسم خطة محكمة الوضع للوصول إلى الغرض. هذا النظام في الخطة لا ينشأ إلا عن دراسة الموضوع الذي تعمل له دراسة وافية علمية قائمة على أساس من الحقيقة والواقع والمعرفة. نرى كثيرًا من الناس يعنون بوضع قصص أو روايات ويتألمون لأنها لم تنجح, والسر في سقوطها وسقوطهم هو أن القصة أو الرواية فن يحتاج إلى دراسة وإلى معرفة أصول الروايات وحبكها ولغتها وحوارها... وقد فطن العالم المتحضر إلى هذه الحقيقة تقيد المهن المختلفة– خصوصًا ما كان منها ذا خطر على حياة الإنسان– بقيود الشهادات العلمية, حتى لا يعمل صاحب المهنة جزافًا بل يعمل على أساس. وهذا حق, لأننا لا نستطيع أن نفهم أن يقوم شخص لم يتعلم صناعة التماثيل والنحت والتصوير, فيعمل تمثالًا كتمثال نهضة مصر, أو أن جاهلًا يخترع جهازًا كهربائيًا مفيدًا.

فلأجل أن يكون الخيال مفيدًا ينبغي أن يكون لك غرض مفيد ممكن التحقيق, ثم يجب أن ترسم خطة أو نظامًا تسير وفقه في تخيلك, وتضع حدودًا تقف عندها ولا تتخطاها. للكون سنن يجري عليها, قال الله تعالى "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون". فإذا خرج الخيال عن النظام الموضوع القيد بالواقع والحقيقة, وسبح الإنسان في الفضاء, ينتقل من فكرة إلى فكرة دون غاية ودون رابطة معقولة بين الأفكار كان التخيل ضارًا بصاحبه. وسنضرب الأمثلة على فائدة التخيل في جميع مرافق الحياة:

١- في الحياة العامة:

فأنت في كل لحظة من لحظات حياتك الخاصة تستفيد من التخيل المبتدع, فمسكنك في منزل خاص يطل على حديقة غناء, وترتيب حجراته بنظام مخصوص هو نتيجة الإبداع. ثم انتقاؤك الملابس والأحذية بحيث تكون ذات ألوان منسقة بديعة, كل هذا من عمل الابتكار. كذلك التاجر الذي يصنف "واجهة دكانه" والصحفي الذي يرتب جريدته والطالب الذي يصف الكتب في القمطر... إلى غير ذلك, كلهم يعملون على أساس التخيل المبتدع.

وله غير ذلك أثر عظيم في خلق المثل الأعلى الذي هو ضروري لنا جميعًا, ذلك أن الإنسان مثله مثل كل كائن حي يسعى إلى غاية, هذه الغاية قد ركبت في الحيوان بالغريزة, فهو يسعى إليها دون أن يعرف ذلك أو يشعر بها, ولكن الإنسان قد تركت له الحرية في اختيار غاياته أو مثله العليا, وهذا الانتخاب نتيجة الاختراع.

٢- في الفنون:

الفنون الجميلة نوع من التعبير بالرموز والاستمارات كالرسم والموسيقى والنحت والشعر والقصص... إلخ, عن المعاني والمواطن التي تجول في ذهن صاحبها. ومنطق الفن مستمد من العواطف والمشاعر الباطنة. وهو شخصي(١). وتمثل في الغالب في صور حسية حية. وللإلهام أثر كبير في بعث هذه الآثار الفنية, وللفنانين فضل كبير في إبراز المعاني الخفية الغامضة التي تخفي عن أعين العامة من الناس, فروايات "شكسبير" الخالدة تجلى لنا العواطف الإنسانية كالغيرة والبخل والشرف إلى غير ذلك بحيث نفسها بأيدينا. والفنون الجميلة جميمًا هي أثر من روائع الخيال.

٣- في العلوم والمخترعات:

ويمتاز العمل عن الفن بأنه مشترك بين جميع الناس, أي موضوعي(٢), على العكس من الفن فإنه شخصي. وجميع المكتشفات العلمية والنظريات والقوانين إن هي إلا أثر التخيل المبتدع. فقانون الجاذبية, وقاعدة أرشميدس, ودوران الأرض وكرويتها, كلها فروض هي نتيجة الابتداع. ولم يصل المخترعون إلى ما وصلوا إليه, حيث تقدموا بالعلم والحضارة, إلا بخيالهم الخصب المنتج.

أحلام اليقظة(٣)

كثيرًا ما ترى شخصًا قد شرد عن الانتباه إلى ما يحيط به, وذهب مع نفسه

(١) Subjective.

(٢) Objective.

(٣) Reveries.

يسبح في عالم الخيال, فيصبح في حالة من شرود الفكر وتشتت الانتباه, وفي الحالة التي يطلق عليها العامة لفظ "السرحان". هذا الشخص الذي يفقد صلته بالعالم الخارجي, يعيش بينه وبين نفسه, فهو كالنائم ولكنه ليس بنائم. إنها حالة بين اليقظة والنوم, تري ما هي هذه الخواطر التي تجول في ذهن هذا الشخص؟ كل منا تمر به هذه الحالة, فهي أمر طبيعي, ولا يعد ذلك مرضًا إلا إذا كثر شرود الشخص إلى درجة تؤرق منامه وتعطل أحواله. وكل منا يتجه في أوهامه حسب ميوله ورغباته وظروفه, وفي المثل "كل يغني على ليلاه", فالطالب يذهب به الخيال إلى مرحلة الامتحان, ثم يتصور بعد ذلك أنه جاز الامتحان بنجاح عظيم, ثم هيأت له الظروف عملًا عظيمًا في إحدى الشركات يدر عليه الربح الوفير فيلبس فاخر الثياب, ويقتني السيارات الحديثة... وهذا شخص أنيق الملبس حسن القوام, يتخيل أن الخيالة لم تخلق إلا ليكون ممثلًا بها, وأن الحظ أخطأه حتى الآن, ولكن الزمن سيقبل عليه وسيصبح بعد حين كبير الممثلين. وهذا تاجر كاسد الحال يتصور أن الصفقة المقبلة ستكون خيرًا وبركة, ثم يمتلئ بالمال, فيقضى ما عليه من دين, ويوسع تجارته.

فالا يستطيع الإنسان أن يحقه في عالم الواقع, لا يجد سبيلًا إلى تحقيقه إلا في عالم الخيال. والباعث على ذلك أن الإنسان يحب دائمًا تحقيق رغباته, كالحصول على المال والمركز والزواج والأولاد والأسفار إلى غير ذلك, وكثيرًا ما تقوم عقبات كثيرة في طريق هذه الرغبات تحول دون تحقيقها, فيعمد صاحبها إلى أحلام اليقظة يسرى فيها عن نفسه, ويحقق رغباته المختلفة.

الأحلام(١)

يصحب النوم ظهور الأحلام. والحلم من طبيعة الإنسان, بمعنى أنه عام عند جميع الأشخاص. ويعزو العامة إلى الأحلام قيمة كبيرة, فيحاولون بها التعبير عن المستقبل, وليس الأمر كذلك لأن العلم لا يؤمن بالكشف عن الغيب, أما ما يؤثر عن تعبير

(١) Reves.

الرؤيا بحيث تنبئ عن المستقبل, مثل ما حدث ليوسف الصديق في أرض مصر, فهو من باب المعجزات الدينية, والخوارق التي يختص بها الدين دون العلم.

وترجع أسباب الأحلام إلى اثنين: فسيولوجي ونفساني. أما السبب الأول فهو أن النائم لا يدرك شيئًا لانعدام الانتباه والشعور, فإذا حدث بداية ليقظة, أمكن أن تصل الإحساسات إلى العقل, لكنه لا يدركها على حقيقتها, فيحدث نوع من الخداع. ثم يجسم النائم هذه الإحساسات ويركب منها ما يشاء من أحلام. فإذا سمع وقع رذاذ المطر على الشباك, تخيل أنه قصف المدافع في حومة الحرب, وإذا وخزته بعوضة توهم أنها طعنة سيف من عدو لدود. وللحواس الباطنة مثل هذا الأثر, فإذا أكل الإنسان أكلة دسمة تتألم لها المعدة, فإنه يظن أنه واقع في مخالب وحش مفترس هائل, وهذا الحلم نسميه عادة "الكابوس".

وأغلب الناس ينسون الحلم تمامًا حين الصحو من النوم, وقد لا يذكرون منه إلا طرفًا يسيرًا؛ ولكن الغريب أن بعض هذه الأحلام يتذكرها الإنسان تفاصيلها الدقيقة, ومنها ما لا ينساها صاحبها طول الحياة.

والصور في الحلم تكون غريبة عن المألوف مقلوبة الأوضاع, وينعدم فيها المنطق والتسلسل المعقول, ولا يحسب للزمن حساب. وعلة ذلك أن الإنسان لا يدرك ولا يعي ما يحلم, وتنعدم الرقابة العقلية التي ترغم الإنسان على التفكير في حدود الواقع والحقيقة. وكثيرًا ما يخرج الحالم في الحلم على الحدود الخلقية والشرف الموضوع, وسبب ذلك أن الإنسان يعود إلى الفطرة الأولى, وإلى الغرائز الطبيعية الكامنة التي تنطلق على سجيتها دون رقابة من المجتمع أو التقاليد أو العرف أو الدين.

ومن أسباب بعض الأحلام أن الإحساسات التي تؤثر فينا في النهار, لا تزول ولا يمحى أثرها, بل تستمر وتظهر في صورة الأحلام في الليل, وليست كل الإحساسات تبعث على ذلك, بل الإحساسات الغريبة التي تنشأ عن المناظر غير المألوفة التي يراها الإنسان لأول مرة ويعجب لها. وهذه أحلام عارضة, غالبًا ما ينساها صاحبها سريعًا.

ونظرية "فرويد" في الأحلام مشهوره, وخلاصتها أن الحلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها أن يحققها. وأحلام الأطفال واضحة الدلالة في تأييد هذه النظرية, وأحلامهم بسيطة وتفسيرها يسير, لأن حياتهم لا تعقيد فيها, وهي تدل دائمًا على الرغبات التي يودونها في أثناء النهار كاللعب والحلوى... إلخ.

ويقصد "فرويد" عن نفسه أنه حلم أنه عطش عطشًا شديدًا, فأحضرت له زوجته الماء في "زهرية" زجاجية كان قد أحضرها معه من رحلة في إيطاليا. ولكن الماء حين شرب منه كان شديد الملح فازداد عطشًا, ثم صحا من النوم, فوجد نفسه ظامئًا. وتفسير هذا الحلم هو رغبة صاحبه في الشرب, أما ظهور الزهرية فسببه أنها كانت ثمينة ولكنها فقدت, فهو يرغب في عودتها.

ولا تجرى جميع الأحلام على هذا النسق, بل منها ما يظهر في صورة ألم شديد, وتظهر كذلك رموز رهيبة مخيفة, كالأفاعي والحشرات السامة. وهذه تعبر عن الآلام التي تصيب الإنسان, وعن المخاوف الكثيرة التي تحيط به, كالخوف من الفقر, والعار, والفضيحة, والجريمة, والسجن. وكثيرًا ما تكون هنالك عقد نفسية مكبوتة في اللاشعور, ولا يستطيع صاحبها أن يظهرها, فيبعثها اللاشعور وتظهر في الحلم.

الفصل الحادي عشر

تداعى الخواطر وترابطها[1]

تجرى الخواطر في الذهن, بحيث يشعر بها صاحبها, أو تهبط إلى هامش الشعور, أو تصدر عن اللاشعور, وهي في جميع هذه الحالات تتصل بعضها ببعض ويتبع أحدهما الآخر طبقًا لنظام وترتيب, فالخواطر النفسية لا تظهر في مجري الشعور عفوًا دون نظام أو ترتيب, بل لوجود حالة نفسية تتبعها حالة نفسية أخرى بالذات, سبب من الأسباب. فورود الخواطر في الذهن يتلو بعضها بعضًا يسمي تداعى الخواطر.

فهذا رجل قد جلس إلى مقهى في الطريق يرقب المارة, وهو برى السيارات تجرى والناس يمشون, والباعة ينادون على بضاعتهم, وإذا بطفل يعدو عابرًا الطريق قد ارتبك في حركته وأقبلت عليه سيارة أوشكت أن تدعمه, وأدرك صاحبنا الخطر المحيق بالطفل, فتأثر وخشى عليه من الاصطدام, ومال إلى مساعدته, ولكنه خاف أن يدهم مثله فتردد, ثم عاد ضميره يؤنبه, ودفعته المروءة أن يقوم في سرعة لإنقاذه, في هذه اللحظة تصور أولاده لو كانوا في هذه الحالة, وتصور نفسه لو دهمته السيارة وأودت بحياته.

هذا التتابع في الحالات النفسية هو ما يسمى التداعي, فصورة الطفل "تدعو" به في ذهن ذلك الرجل صورة أولاده, وإدراك الخطر يدعو إلى الخوف, والخوف يدعو إلى النكوص... وهكذا.

وإذا كانت الحالة النفسية تدعو حالة أخرى, فذلك لأن بين الحالتين صلة ورابطة, وقد تكون الصلة الموجودة بين الأشياء ضرورية, مستمدة من طبيعة الشيء

---

(١) Association dea idees.

مثل صلة العلة بالمعلول, والوسيلة بالغاية, والجزء بالكل.... إلخ مثل الصلة بين المطر والسحاب, وبين النهار وطلوع الشمس, وبين الشعور بالخطر والخوف, والإحساس بالعطش وطلب الماء. فالترابط هو الصلة التي تربط الحالات النفسية بعضها ببعض, والتداعي هو ميل الشخص إلى إيراد الخواطر متتالية الواحد بعد الآخر. لهذا السبب كان الشيء الواحد مصدرًا لإثارة خواطر مختلفة في ذهن أشخاص كثيرين. فلو أن شخصًا آخر شهد ذلك المنظر السابق فإن الخواطر تجري في ذهنه على نسق يختلف عن الأول.

ويحدث التداعي بين فكرة وفكرة مثل التداعي بين لفظ نهر ولفظ النيل أو بين صورة صديقك الفوتوغرافية والشخص نفسه. وقد يحدث بين حالة وجدانية وأخرى مثلها, فالاستغراب من شيء قد يدعو إلى الإعجاب به, أو بين حركة وحركة, كما يدعو إمساكك بالقل أن تكتب به؟

وقد تنتج هيئة الجسم الحالة الوجدانية التي تصاحبها, فالسجود والركوع يحدثان عاطفة دينية, أو العكس تؤدي الحالة الوجدانية إلى الحركة, فالخشوع الديني يدعو الشخص إلى الركوع, كذلك يكفي أن ترسم على وجهك ملامح الحزن, حتى تجد نفسك حزينًا بالفعل, وقد رأينا ذلك واضحًا عند الكلام على الانفعالات.

قوانين التداعي الأساسية:

سنجري الآن تجربة تعرف باسم "التداعي المقيد", وهي أن يضع المجرب في الجدول الآتي الكلمة التي ترد في ذهنه مباشرة بعد قراءة الكلمة الموضوعة, مثال ذلك إذا قرأت كلمة (نهر) فإن ما يرد في ذهني بعدها مثلًا هي كلمة (النيل).

لا تتوقف ولا تتردد واذكر أول كلمه ترد في ذهنك.

ترعة		غاندي	
مدرسة		الجامع	
أبيض		ليل	
موز		طفل	

غني		شارع	
تمثال		قميص	
الهند		يابس	
غواصة		امرأة	
سعد		قطن	
كبير		شهر	

إذا بحثنا الكلمات التي نحصل عليها من هذه التجربة, نجد أن هناك رابطة تصل بين كل كلمتين. هذه الروابط الأساسية هي التلازم والتشابه والتضاد. وقد وصل القدماء إلى كشف هذه القوانين العقلية ووصفها "أرسطو" وعلى النحو الذي نذكره الآن.

١- التلازم.

إن وقوع حالتين نفسيتين متلازمتين باستمرار في مجرى الشعور, يكون سببًا في تتابعهما في الظهور, إذا ظهرت إحداهما. وقد يكون هذا التلازم لفظيًا مثل نهر النيل والجامع الأزهر, فإننا تعودنا سماع الكلمتين متجاورتين باستمرار. وقد يكون التلازم في الزمان مثل الظهر والعصر. وقد يقع التلازم في المكان مثل مكة والمدينة.

٢- التشابه.

من الأسباب القوية التي تربط الأشياء بعضها ببعض تماثلها من أي ناحية من النواحي, كالتشابه في الشكل أو اللون أو المعنى. فالصورة تدعو إلى التفكير في صاحبها, ورؤيتك الآن تبعث إلى التفكير في والده وذلك لمجرد وجود تشابه في الخلقة أو في نبرات الصوت. ونلاحظ أنه كلما أخذ التشابه يضعف, قل الميل إلى التداعي أيضًا.

٣- التضاد:

كذلك الخاطر قد يدعو في الذهن ما يضاده, فإذا خطر لك الغني استرسلت إلى الفقر, أو الليل يدعو إلى النهار, وفكرة البياض تدعو إلى فكرة السواد, أو كالمسافر

في البحر ينظر إلى الماء فيخطر في ذهنه اليابسة لتضاد الفكرتين.

التلازم والتشابه والتضاد من القوانين الأولية التي نبه إليها أفلاطون وأرسطو قديمًا, وقد وجهت الاعتراضات إلى قصر الحياة العقلية على هذه القوانين الثلاثة. وقيل إنه يجب أن تضاف إليها الارتباطات المنطقية, أي الصلة الضرورية بين المعاني أو بين الأشياء, مثل الترابط بين المبدأ والنتيجة, العلة والمعلول, الوسيلة والغاية, الجنس والنوع. فالطبيب حين يشاهد على المريض أعراضًا خاصة يتجه ذهنه إلى نوع من المرض, فهذه علاقة العلة بالمعلول, ثم يفكر في أسلوب من العلاج, والعلاقة بين العلاج والشفاء هي علاقة وسيلة بغاية. والرياضي حين يلاحظ تساوي زاويتين في مثلثين محصورتين بين ضلعين متساويين في كل منهما, يتجه ذهنه إلى انطباقهما, وهذه علاقة النتيجة بالمبدأ.

القوانين الثانوية:

هناك قوانين أخرى ثانوية هي التي تدعو إلى تسلسل المعاني والخواطر في الذهن, ويحسن إجراء التجربة الآتية لتستبين منها هذه القواعد, وهذه التجربة تسمي "التداعي المطلق". والفرق بينها وبين التداعي المقيد, أن الأخيرة كانت كل كلمة مقيدة بكلمة تسبقها, فتلزمك أن تبدأ بها في التفكير؛ أما في التداعي المطلق فإنك تبدأ بكلمة واحدة ثم تترك نفسك لخواطرك تنساب فيها, بعد أن تستمد بدايتها من هذا الأصل. وينبغي أن يبتعد المجرب عن جميع المؤثرات وأن يجلس في مكان هادي, ثم يطلق لفكره العنان ولا يحاول أن يوقف مجراه. وقد أجريت التجربة التالية على أحد الأشخاص في يوم الثلاثاء الذي يوافق عشرين من شهر أكتوبر سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين بالقاهرة وكانت النتيجة كالآتي:

شارع– طريق– قهوة– مُحَمَّد– حسين– سينما– تمثيل – سهر – معاهدة– محالفة– استقلال– جيش– حرب– خوف– موت– غلاء– فقر– غنى– راحة– موسيقى– غناء– أناشيد...

إذا درسنا هذه الكلمات نجد فيها مجموعات متصلة مثل (سينما- تمثيل- سهر) ومجموعة أخرى مثل (معاهدة- محالفة - استقلال- جيش) ومجموعة ثالثة هي (حرب- خوف- موت) ومجموعة رابعة هي (غلاء - فقر- غني) ومجموعة خامسة هي (راحة- موسيقى- غناء- نشيد).

والصلة بين هذه المجموعات, وبين كلمات هذه المجموعات بعضها وبعض, ترجع في كثير من الأحيان إلى قوانين التداعي الأساسية التي ذكرناها, كما هو واضح. ولكن هناك أسبابًا أخرى هي التي تبعث الإنسان إلى ذكر بعض المعاني, وهي التي توجهه وجهة معينة, مثال ذلك ذكر "المعاهدة" فهو نتيجة الحوادث السياسية الشاغلة للأذهان في مصر وقت إجراء التجربة, وهي معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وإنجلترا. وأهم هذه القوانين أربعة:

١- الشيوع:

فهناك أشياء تشيع في بعض الأوقات, وتصبح حديث المجالس, ومضغة الأفواه, كالأمور السياسية التي تجرى في وقتها, والاختراعات الحديثة التي تبدأ في الذيوع والانتشار مثل "الراديو" في مبدا أمره. وقد يصدر أحد كبار الكتاب مؤلفًا جديدًا فيصبح مصدر مناقشة أدبية بين أهل العلم مدة من الزمان. هذه الأمور الشائعة التي تتردد على ألسنتنا ونذكرها في كل وقت وفي كل زمان, توجه الذهن وتبعث الخواطر التي تجري فيه.

٢- الجدة:

والجدة مصدر جديد. وقصد بالجدة أن الحادث الجديد يلفت النظر ويجذب الانتباه, ويقطع سلسلة التداعي الماضية, ويكون بداية سلسلة جديدة. فإذا كنت تقرأ في جريدة, ثم وقع بصرك على نبأ موت صديق - وهذا هو النبأ الجديد- فإنك تبدأ في سلسلة من التداعي مصدرها ذلك الخبر؛ وإذا كنت في حجرة مقفلة, تجلس فيها منفردًا تفكر في هدوء, ثم فتح باب الغرفة ودخل عليك منه شخص, فإنك

تقطع سلسلة تفكيرك الهادئة, وتشرع في التفكير بشكل جديد.

٣- الميل الغالب:

كل شخص مركب من مزيج من الميول والأهواء, هي التي توجهه وتسيره في الحياة, هذه الميول تشغل نفس صاحبها, وتملك عليه كل تفكيره, كما ذكرنا عند الكلام على العاطفة فقلنا إن البخيل تدور حياته على المال والعالم على العلم. فالشخص الذي يميل إلى ارتياد دور الخيالة نجد أحاديثه مملوءة بها, والعالم لا ينفك عن التفكير في العلم.

٤- الاتجاه العقلي:

ونعني بنك حالة العقل التي يكون عليها في الوقت الذي تتسلسل فيه الخواطر. فالحقيقة أن الإنسان لا يظل على حالة واحدة طول الحياة, بل يتنقل في حالات شتى متباينة, فساعة يكون منقبضًا, وساعة منشرحًا, وتجده متشائمًا حينًا, ومتفائلًا حينًا آخر, ويكون تعبًا في وقت من الأوقات, مستريحًا في وقت آخر, ويكون هادئًا رزينًا زمانًا, وتأثر الأعصاب ينظر إلى العالم بمنظار أسود زمنًا آخر. هذه الحالة النفسية التي تسود الإنسان ساعة التداعي, تؤثر فيه, ويخرج تفكيره مصطبغًا بذلك اللون.

قيمة التداعي:

تداعي المعاني أساس أغلب العمليات النفسية. فقد رأينا أن معظم سلوك الإنسان أعمال آلية, يكتسبها بالتعلم خلال الحياة. والتعلم الحركي مثلًا يفرض تعدد كثير من الحركات تتصل ببعض عن طريق الروابط التي ذكرناها. بل حياة الحيوان تقوم على قوانين الترابط, وقد أمكن العلماء أن يصلوا بتدريب الحيوان إلى تحقيق هذه النظرية. فالكلب الذي يسيل لعابه حين يسمع دقات الناقوس قد تعلم أن يربط في ذهنه صوت الناقوس بحضور الطعام, فأصبح يكفي أن يسمع الصوت حتى يسيل لعابه. فالأفعال المنعكسة المعدلة تقوم على الترابط.

وعملية التذكر تقوم على أساس الترابط كما سنذكر فيها بعد. فالإنسان حين

يريد أن يتذكر اسم صديق نسيه, يستحضر في ذهنه صورته أو صورة منزله أو أسماء أصدقائه الذين يتشابهون معه في مخارج الحروف.

والتداعي أساس كثير من المعتقدات الفاسدة التي لا تستند إلى حقيقة, فالتشاؤم من العدد ١٣ نشأ من أن أناسًا– كما يقولون– كانوا جلوسًا إلى مائدة واحدة وعددهم ثلاثة عشر, فحصل أن أصاب بعضهم نكبات محزنة, فاقترن حصول النكبات بالعدد ١٣, والحقيقة أن حصولها لم يكن نتيجة ذلك العدد:

وتستطيع أن تستغل قوانين التداعي في قراءة الفكر, لأنك عرفت أن الخواطر تجري في الذهن بنظام خاص طبقًا لقوانين معروفة, فإذا أضفت إلى ذلك معرفتك بميول الشخص الذي تحدثه, والحالة النفسية التي تسوده, والحوادث الطارئة التي تحصل في ذلك الوقت, وتكون مثيرة لاهتمامه, استطعت بسهولة أن تستنتج ما يدور في خلده من فكر.

والتداعي كذلك أساس التحليل النفساني الذي نعالج به كثيرًا من الأمراض العصبية, وكثير من هذه الأمراض نتيجة العقد النفسية المكبوتة. ولعلك تتساءل كيف نستطيع الوصول إلى هذه العقد المكبوتة الخفية التي يضع عليها المريض ستارًا كثيفًا يمنع من ظهورها؟ ذلك أن الرقابة التي يضعها العقل لإخفاء هذه العقد في اللاشعور تجوز عليها الحيل, فتظهر لنا آثار من هذه العقد في صور رمزية, وفي فلتات اللسان. فالعالم الماهر هو الذي يفطن إلى هذه الرموز أو الفلتات, ويمسك بها أول الخيط الذي يستدل به على تلك العقد النفسية.

الفصل الثاني عشر

الذاكرة

قيمة الذاكرة:

للذاكرة أثر كبير في الحياة النفسية. فالإدراك الحسي– وهو أساس المعرفة– لا يقوم إلا على التجارب السابقة, وهذه التجارب لا تظهر إلا بتذكرها. والاختراع يقوم على الصور العقلية, وعلى المعاني المكتسبة والخبرة السابقة. والعادات التي تشغل أغلب حياة الإنسان إن هي إلا نوع من التعلم والتدريب.

وللذاكرة أثر كبير في حياة كل شخص, لاسيما عند أولئك الذين يعملون أعمالًا عقلية. والذين يشكون من ضعف الذاكرة كثيرًا ما يطمعون في إصلاحها حياة الطالب قائمة على الذاكرة, لأنه في حاجة إلى اكتساب المعلومات والمعارف ويحتاج المحامي أن تكون مواد القانون, والأحكام التي صدرت عن مختلف المحاكم وشروح الشراح, حاضرة في ذهنه حتى يحسن الدفاع. ولابد للتاجر أن تكون البضائع وأماكنها وأثمانها, وأوقات هبوطها وارتفاعها, ووجوه العملاء, كل ذلك موجود في صفحة ذهنه حتى يتمكن من الوقوف على قدميه في الأسواق الكثيرة التقلب.

وليس في تعريف الذاكرة صوبة, فالتذكر هو استرجاع ما حدث في الماضي إلى الحاضر. هذه العملية تشتمل على خمس مراحل: هي الحفظ والوعي والاسترجاع والتعرف والتحديد.

الحفظ

الحفظ هو اكتساب المعلومات التي يجهلها الإنسان, ووصولها إلى الذهن.

والحفظ إما أن يكون متعمدًا, بمعني وجود نية الحفظ حتى يتذكر الشخص فيما

بعد الشيء الذي يحفظه, كالذي يجلس لحفظ قصيدة من الشعر, أو كالشيخ الذي يحفظ القرآن, والممثل الذي يحفظ دوره ليلعبه على خشبة المسرح. وقد يحفظ الإنسان عن غير قصد, دون أن تكون عنده النية لحفظ ما يقع أمامه, كالذي يذهب إلى دار الخيالة, ثم يروي لك ما رآه. والحقيقة أن كل ما يقع تحت حس الإنسان, وكل ما يدخل في خبرته, عن طريق البصر أو السمع أو أي حاسة أخرى, يعد جزءًا من محفوظات الإنسان, فهو دائم الاكتساب لكل ما يقع عليه بصره.

الحواس:

تنفذ المعلومات التي نكتسبها– سواء عن قصد أو عن غير قصد– عن طريق الحواس بالطبع, كما سبق أن بحثنا ذلك في الإدراك الحسي. وليس جميع الناس بدرجة واحدة من ناحية إدراكهم للأشياء, كذلك من الصعب أن يتذكر لإنسان المحسات كلها بدرجة واحدة, ولذا يقسمون الناس عادة بأنهم بصريون وسمعيون أو حركيون, وقد سبق الكلام على هذه التفرقة في باب التصور.

فالبصري هو الذي يسهل عليه تذكر الأشياء التي تأتي إليه عن طريق لبصر كالألوان والأشكال, فإذا تذكر صديقًا له فإنه يستحضر صورة وجهه لا يستحضر صوته, وإذا أراد أن يتذكر شيئًا قرأه في كتاب, فإنه يستحضر رسم لحروف والصفحة التي قرأها, ولا يستحضر صوت هذه الحروف. وأكثر الناس بصريون أي يتذكرون الأشياء التي وصلت إليهم عن طريق البصر.

والسمعي هو الذي يسهل عليه تذكر الأشياء عن طريق السمع, فإذا أراد أن يتذكر صديقه, فإنه يستحضر نغم صوته ولا يستحضر صوته, وإذا شاء أن يتذكر سيارة صديقه, يستحضر نغم بوقها دون شكلها ولونها.

والحركي هو الشخص الذي يتذكر الإحساس الحركي, أي الأشياء في حال حركتها. ومثل ذلك الشخص إذا شاء أن يتذكر بيتًا من الشعر, لا يكفي أن يتصور رسمه المكتوب, أو بتصور سماعه, ولكن يحاول كتابته. وحين يتذكر الإنسان مباراة كرة

القدم, فإنه يستعيد حركة اللاعبين كأنها تجري أمامه. وكثيرًا ما نلجأ إلى مثل هذه الذاكرة, حين يخوننا تذكر هجاء كلمة, فنحاول كتابتها.

وأغلب الناس– كما ذكرنا– أوساط, أي يجمعون بين البصر والسمع والحركة.

الصورة التي نتذكرها قد تكون واضحة في بعض الأحيان وقد تكون غير واضحة. وقد تتضح عند بعض الناس حتى تقترب من الحقيقة.

وصحة الحواس ضرورية لجودة التذكر, لأنها الأساس الأول الذي تنفذ منه المعلومات إلينا, وهي المنظار الذي في العالم الخارجي من خلاله, فإذا كان المنظار سليمًا رائقًا صافيًا, وصلت المعلومات سليمة كذلك. ومن الخطأ أن يحفظ السمعي عن طريق القراءة الصامتة, ولا يجب على البصري أن يحفظ شيئًا عن طريق السمع.

الحفظ المعتمد:

للبحث في مقدرة الشخص على الحفظ, يحتاج الأمر إلى استعمال مادة لا عهد للحافظ بها, حتى نضمن جدتها المطلقة, وحتى نعرف مقدرته على الحفظ الخالص. ولهذا السبب يلجأ علماء النفس في تجاربهم إلى استعمال المقاطع التي لا معنى لها. وهنا يجب أن يعرف الإنسان نفسه, أو يدرس نفسه من هذه النواحي: مدى الحفظ, وكيفية ربط المعلومات.

ما هو المدي التي تستطيع أن تحفظه؟ إليك تجربة بسيطة, وهي سلسلة من الأعداد كل منها مكون من عدة أرقام, فكم رقمًا تحفظه بعد قراءة واحدة؟

٦ ٢ ٧

٩ ٨ ٧ ٤

٢ ٥ ١ ٨ ٣

٢ ٦ ١ ٠ ٣ ٨

٤ ١ ٣ ٥ ٩ ٤ ٧

٩ ٠ ٧ ٦ ٣ ٥ ٨ ٢

٥ ٣ ٢ ٩ ٤ ٥ ١ ٠ ٣

٩ ٢ ٧ ٥ ٧ ٨ ٣ ١ ٤ ٦

٥ ٦ ١ ٨ ٤ ٩ ٣ ١ ٢ ٧ ٢

٣ ٨ ٧ ٢ ٦ ٧ ١ ٥ ٤ ٠ ٣ ٨

يجد الإنسان أنه من السهل حفظ الأعداد المكونة من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أرقام, ولكن الأعداد الطويلة يجد عناء في حفظها. ومتوسط مدى ذاكرة الطفل الذي تبلغ سنه ست سنوات أربعة أرقام, والشخص البالغ سبعة أرقام.

هذا هو المدى المباشر للحفظ, وهو في الأشياء القصيرة سهل, ولذلك تكتسبها في يسر. أما إذا كانت المادة التي تريد حفظها طويلة, فإنك تلاقي صعوبة كبيرة, ولذلك تتغلب على عدم الحفظ بالتكرار. ولكن لنفرض أنك تحفظ مباشرة عددًا مكونًا من ثمانية أرقام, فلماذا لا تقسم العدد إذا كان مكونًا من ستة عشر رقمًا إلى قسمين ثم تحفظ كل قسم على حدة؟ لو رجعت إلى الثمانية الأولى تجد أنك قد نسيتها, ذلك أن الجديد ينسي القديم ويحجزه ويغطى عليه. هذا إلى أن العدد حين نقسمه قسمين, فالواقع هنا أننا أمام ثلاث عمليات: وهي حفظ الجزء الأول, والجزء الثاني, ثم ربط الجزأين, ولهذا لا تتغلب على ما تحفظ إلا بكثرة التكرار.

وفي هذه الحال يتشبث الحافظ بدعائم يقيمها في المادة الطويلة التي يحفظها, حتى يقبض عليها ولا يدعها تفلت من ذاكرته.

الروابط:

احفظ هذه المقاطع التي لا معنى لها, ثم حلل كيف وصلت إلى حفظها. صعل– ظمس– بزج– هقع– طبم– وطح– يدط– ندف – لاب–كدل.

هنا يلاحظ الحافظ المشابهات والمباينات, ويخلق الروابط بين المقاطع, ويصل

المقاطع بأسماء يعرفها, ويضمها في مجموعات. وللإيقاع الموسيقى أثر كبير في مساعدة الحفظ. هذا وفي مبدأ الأمر يحفظ الإنسان الشيء لارتباطه بشيء آخر بأي نوع من الرابطة, ولكن فيما بعد يضرب الذهن صفحًا عن هذه العلاقات ويتذكر الأشياء مباشرة.

هذه الأرقام والمقاطع التي لا معنى لها, يجد الشخص صعوبة كبيرة في حفظها ويحتاج إلى تكرارها مرات عدة, وهو في الواقع يحفظها عن طريق التلازم, وهو القانون الأول من قوانين الترابط. وكلما ربط الإنسان ما يحفظ بالروابط المنطقية وبطريق التشابه والتباين كان الحفظ أسهل, فإذا كان ما تحفظه له معنى مفهوم, وذلك نتيجة اتصال الأفكار وتسلسلها, فإن الحفظ يسهل كثيرًا, وتستطيع أن تبين ذلك من هاتين التجربتين: اقرأ هذه الكلمات ثم تذكر ما تحفظه منها, ووازن بين هذا وبين حفظك للمقاطع التي لا معنى لها:

مدير– نشيد– إبريق– مقطم– بيت– قروش– عنب – قطار– طالب– حصان– غيط– فراش– كنيسة– حديقة– بدلة– تل– ريشة– مركوب– جراح– كرسي.

اقرأ هذه الكلمات ثم تذكر ما تحفظه منها:

مريض– السم– خطر – تليفون– سماعة– طبيب– سيارة– قلق– دواء– صيدلية– راحة– سهر– صباح– زوار– تهنئة– خروج– بستان – هواء– شفاء– صحة.

إذا قطنت في التجربة الثانية إلى أنها مركبة من سلسلة واحدة لها معنى يسير من أولها إلى آخرها, فإنك قد تحفظ المجموعة بأكملها من مرة واحدة, دون أن تنسى منها شيئًا.

والنتيجة التي نستخرجها من جميع هذه التجارب, هو أن إدراك المعنى, أي إدراك العلاقات والروابط والصلات الموجودة بين الأشياء, يؤدي إلى سهولة الحفظ وسرعته.

الاقتصاد في طرق الحفظ:

يحفظ الإنسان عن طريق "التكرار" كما هو معلوم, ولا بد أن يصل الإنسان إلى الحفظ إذا استمر على التكرار. ولكن اتباع طرق غير صحيحة في الحفظ, تضطر الإنسان أن يكثر من التكرار دون فائدة, فيضيع عليه كثير من الوقت, يضاف إلى ذلك أن اتباع الطرق غير الصحيحة في الحفظ, يؤدي إلى سرعة النسيان. وهناك طرق أساسية تؤدي إلى الاقتصاد في الحفظ نجملها فيما يلي:

١- التسميع:

قصد بالتسميع أن يسمع الإنسان ما يحفظه لنفسه, صامتًا أو بصوت عالٍ. ذلك أن الحافظ بعد تكرار ما يحفظ مرة أو مرتين, بدل أن يستمر في الحفظ, يحسن به أن يراجع نفسه ليري إلى أي حد وصل به الحفظ, وفي أثناء ذلك يصحح حفظه بالاستعانة بالمادة نفسها الموجودة أمامه, لأن الحفظ عملية تقوم بها مستعينًا بمساعدة المادة نفسها, على أن تستغني عن معونة الكتاب فيما بعد.

وقد ثبت بالتجربة أن طريقة التسميع تقتصد في الوقت. والسر في هذا أنك حين تعرف أنك ستسمع لنفسك, يكون أمامك غرض واحد هو الحفظ, وحينئذ يقوى الباعث عليه, وكذلك يستحثك التسميع إلى أن تستغني عن معونة الكتاب, ويعلمك أن تعتمد على نفسك بدونه.

٢- التكرار الوزع بدل المستمر:

هل يحسن أن تكرر ما تحفظ دون انقطاع, أم تقطع الحفظ على فترات؟ وإلى أي حد تطول الفترة؟

الواقع أن الحفظ الموزع على فترات أفضل. وفي تجربة أجراها "بييرون" وجد أن شخصًا احتاج إلى تكرار قدره إحدى عشرة مرة, بين كل مرة وأخرى نصف دقيقة, في حفظ قائمة مركبة من عشرين عددًا, بينما احتاج إلى ست مرات فقط, بين المرة والأخرى خمس دقائق لحفظ قائمة تماثلها.

كذلك الحفظ الموزع يثبت المعلومات. ومن المعروف أن الحفظ قبل الامتحان مباشرة, أقل قيمة مما إذا سبق الامتحان المدرسي بفترة طويلة.

وإليك نتيجة إحدى التجارب في حفظ مقاطع لامعنى لها (عن جوست Jost):

توزيع ال ٣٤ قراءة	مجموع ما حفظه زيد	مجموع ما حفظه عمرو
٨ قراءات يوميًا لمدة ٣ أيام	١٨	٨
٦ " " " ٤ "	٣٩	٣١
٢ " " " ١٢ "	٥٣	٥٥

ومن هذه النتيجة نجد أن التوزيع الطويل أخرج نتائج حسنة جدًا.

٣- الطريقة الكلية بدل الجزئية:

الطريقة الجزئية هي التي تجزئ بها المادة التي تريد حفظها إلى أجزاء, ثم تحفظ كل جزء على حدة, على عكس الطريقة الكلية التي تحفظ بها المادة دفعة واحدة دون أن تقسمها. ولكل من الطريقتين مزايا ومساوئ نبينها فيما يلي:

لنفرض أنك تريد أن تحفظ قصيدة من الشعر تبلغ عشرين بيتًا, فتقسمها إلى خمسة أجزاء, كل جزء أربعة أبيات, وهذه هي الطريقة التي يتبعها أكثر التلاميذ عندنا, وذلك أولًا لسهولتها, وثانيًا لأن الطالب يستطيع حفظها على أيام عدة, ثم هي بعد ذلك الطريقة الطبيعية للأطفال, لأن مدى عقولهم أصغر من أن يسيطر على كمية كبيرة من المادة, ولأنهم يميلون دائمًا إلى اختبار أنفسهم, لعدم صبرهم ولعدم وثوقهم بأنفسهم, فهم يراجعون دائمًا كل جزء, ولذا تجد محفوظات الأطفال ضئيلة الكم. أما مساوئها فهي أن القصيدة لن تكون وحدة مرتبطة, بل كل جزء يكون منفصلًا عن الباق, بمعنى أنه لا يكون هناك ترابط بين آخر الجزء الأول ومستهل الجزء الثاني, ولهذا السبب نجد من يحفظ على هذه الطريقة, يندفع في تسميع القطعة, حتى ينتهي الجزء ثم يقف تمامًا, فإذا ما لقنته أول كلمة من الجزء التالي, استمر في

تلاوته بسهولة, هذا فضلًا عن انقطاع سيل المعنى الذي يسود القصيدة وهو ما لا يجب عمله, لما للمعنى من أثر كبير في الحفظ كما ذكرنا, وذلك يرجع لعدم وجود الترابط.

أما الطريقة الكلية, فإنها تتلافى المساوي السابقة, فتكون القصيدة وحدة متماسكة مترابطة يسير فيها المعنى من أولها إلى آخرها في انسجام. ولكنها مع ذلك تكون صعبة الحفظ لطولها من ناحية, ولأن الحافظ إذا ما وصل إلى آخرها يكون نسي أولها من ناحية أخرى؛ وسبب ذلك أن العقل لا يستطيع أن يلم دفعة واحدة بتفاصيل متعددة, ولكنها من جهة أخرى تكون أقرب إلى صورة الحياة الطبيعية لأن الحياة وحدة لا أجزاء فيها. هذا وقد ثبت بالتجربة أن الطريقة الكلية أفضل من الجزئية.

وإليك نتيجة تجربة أجراها شخص على نفسه في حفظ قطعتين من الشعر طول كل واحدة ٢٤٠ بيتًا من قصيدة واحدة, حفظ الأولى مجزأة والثانية من غير تجزئة:

طريقة الحفظ	مدة الأيام التي استغرقتها	عدد الدقائق التي استنفذتها
٣٠ بيتا كل يوم ثم استعادتها حتى يستطيع تسميعها.	١٢	٤٣١
ثلاث قراءات للجميع يوميًا حتى يصل إلى تسميعها	١٠	٣٤٨

٤- التثبيت:

تثبت المعلومات التي يحفظها الشخص بالتكرار أولًا, لأننا رأينا أن الخواطر تداعي عن طريق التلازم, وهو تجاور الأشياء, فكثرة التكرار تؤدي إلى التثبيت.

كذلك صحة المخ لها أثر كبير, وإذا حدث أي ارتجاج في المخ, نتج عن ذلك

فقدان الذاكرة. وصحة الأعصاب لها أثر كبير في تثبيت المعلومات, ولذا كانت الحمي أو المخدرات مما يضعف الذاكرة. ويؤدي سوء الجهاز الهضمي إلى مثل ذلك.

ومن العوامل المهمة في التثبيت الراحة بعد الحفظ, لأنك إذا حفظت شيئًا جديدًا مباشرة بعد شيء قديم, فإن الجديد يغطي على القديم كما ذكرنا سابقًا. وللراحة أهمية أخرى أيضًا, ذلك أن ما حفظه يستمر ويتردد في الذهن بواسطة الصور العقلية, فإذا سمعت نغمًا موسيقية وانقطع النغم, فإنه يخيل إليك أنك لا تزال تسمعه, فاستعادة ما تحفظه في الذهن, وتصوره, يدعو ذلك إلى تثبيته.

الحفظ غير المتعمد:

إرادة الحفظ, لها أثر كبير في الحفظ. وأغلب العلماء يؤكدون أهمية هذا العامل, قد حدث في أحد معامل علم النفس في سويسرا, أن طالبًا كان المفروض أن يحفظ مقاطع لا معنى لها بعد عرضها عليه, وبعد انتهاء مدة العرض المقررة لم يتذكر منها شيئًا, لأنه لم يتعمد حفظها حيث لم يطلبوا منه ذلك, ولهذا فإنه كان يتأمل في هذه المقاطع, دون أن يحاول حفظها.

فليس شك في أن نية الحفظ تؤدي إلى الحفظ.

ولكن إذا فرضنا أن حادثة وقت أمام الإنسان, وليس عنده نية حفظ ما وقع, فإنه يتذكر مع ذلك كثيرًا من التفاصيل. وقد نسمع نغمًا فنردده دون أن تكون عندك نية حفظه. والطفل يحفظ عن طريق اللعب والتسلية أكثر مما, يحفظ عن طريق الإرادة؛ والسر في هذا أن كل ما يثير الاهتمام, ويتوجه إليه الإنسان, ويكون عنده ميل إليه, فإنه يركز فيه انتباهه, ويحصر له ذهنه. والحفظ على وجه العموم يتطلب الانتباه التام, واليقظة العقلية. وفي الحفظ المتعمد يكون الانتباه إراديًا, وفي غير المتعمد يجذب انتباه الشخص على الرغم منه, إما عن ميل, وإما عن أي سبب آخر.

والميل ضرورة من ضرورات جودة التذكر. فالشخص الذي يميل إلى دراسة التاريخ, يشتغل ذهنه به وينصرف إلى قراءته ويجد في درسه لذة كبيرة, ومثل هذا

الشخص يكفي أن يقرأ كتابًا في التاريخ مرة واحدة حتى يحفظه.

الوعي والنسيان

بعد أن يحفظ الإنسان المعارف, يحتفظ الذهن بها ويخزنها ويستبقيها, حتى إذا شاء أن يسترجعها بعد ذلك وجدها حاضرة في الذهن. ومعنى الاحتفاظ بالمعلومات هو عدم نسيانها.

وليس الوعي نشاطًا بل هو حالة ركود.

والنسيان ظاهرة طبيعية لا بد أن تأخذ مجراها الطبيعي عند كل إنسان, ومثل المعلومات التي تصل إلى الذهن, ثم تخف آثارها أو تمحى, مثل الحائط الذي يطلى بالدهان, فيكون في أول أمره براقًا ثابت الطلاء, ثم لا يلبث ذلك الطلاء أن يمحى بالتدريج حتى يزول تمامًا.

فالمعلومات تزول بعدم الاستعمال.

ولكن هل إغفال المعلومات, وإهمالها يجعلنا ننساها تمامًا؟ هناك من يقول بأن كل ما يدخل الذهن يبقى فيه بحيث لا ينسى أبدًا, فهو موجود ولكننا لا نستطيع أن نستحضره, بدليل ظهور بعض الذكريات فجأة, كما يحدث لبعض الناس الذين تعلموا لغة أجنبية في الصغر ثم نسوها تمامًا, ولسبب من الأسباب يتكلمون بها فجأة ويتذكرونها. ولكن هذا الرأي فيه كثير من الغلو.

ومع ذلك فإن الإنسان لا ينسى تمامًا, فإنك إذا حفظت قصيدة من الشعر ثم نسيتها تمامًا, ثم رجعت بعد ذلك تحاول حفظها, فإنك تجد ذلك أسهل.

ونلاحظ أن معلومات الإنسان بعد وصولها إلى الذهن مباشرة , تكون أسرع نسيانًا مما إذا تركت برهة من الزمن تستقر في الذهن, وتقدر هذه المدة التي تستغرقها المعلومات في النسيان من يوم كامل إلى ثلاثة أيام. لذا يجب على كل شخص أن يكشف في نفسه عن المدة التي يستنفذها في النسيان, ويبدأ بعدها أن يتذكر. ويختلف الناس في سرعة نسيانهم, وهذا ناشئ عن اختلاف في الطبائع.

وهناك بعض الناس لهم القدرة الغريبة على حفظ كل شيء وعدم نسيانه, وهؤلاء شواذ لم يستطع العلم تعطيل السر في ذلك. ومما يروى في باب هذه الغرائب ما قيل من أن "أبا العلاء المعري" كان يصلى بالمسجد وإذا به يسمع أجنبيين بتشادان باللغة اليونانية ثم اختلفا وذهبا إلى القاضي, الذي طلب شهود الحادث, فقالا له لم يكن بالمكان إلا شيخ أعمى, فأحضر بين يدي القاضي, فروي الحديث الذي دار بينهما بتمامه, وهو يجهل هذه اللغة كل الجهل.

وللسن أثر في النسيان, فالإنسان في صغره يكون أكثر حفظًا وأقل نسيانًا.

ثم إذا حفظ الإنسان شيئًا بتثبت, وكرره كثيرًا, فإن نسيانه يكون بطيئًا. كذلك الأشياء التي تحفظها بعد فهمها, وبالطريقة الكلية, تكون أسهل حفظًا وأبطأ نسيانًا.

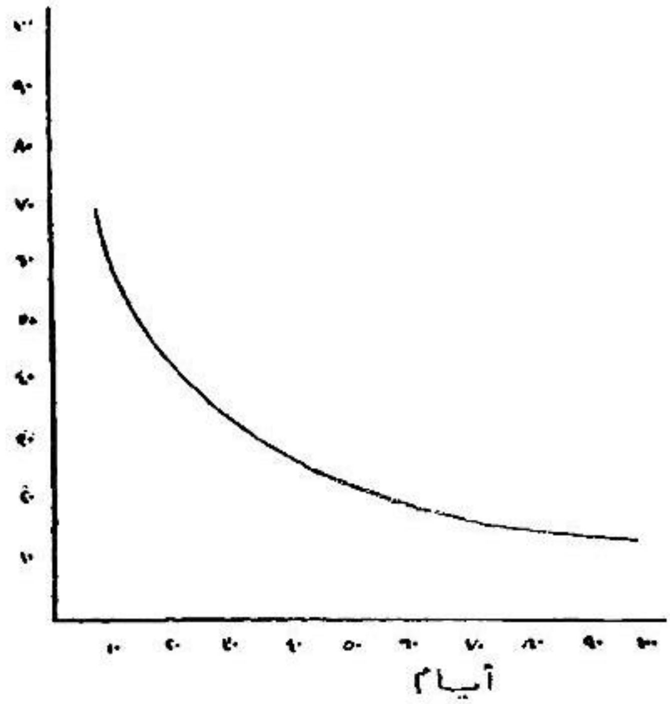
وقد أجرى العلماء تجارب على النسيان, وأخرجوا ما نسميه "خط النسيان" وهو خط بياني يتضح من سرعة النسيان في الأيام الأولى التي تلى الحفظ, ثم وقوف النسيان بعد ذلك, والاحتفاظ ببعض الأشياء التي لا تنسى (انظر شكل ١١).

وللعمل على الاحتفاظ بالمعلومات, يجب أن يتبع الحافظ الطرق السابقة الصحيحة التي ذكرناها في الحفظ, وهي حسن استعمال الحواس, وفهم المعنى, وربط المعلومات, والتسميع, والتكرار الموزع, واستعمال الطريقة الكلية, وتثبيت المعلومات, ثم يراجع الحافظ بد ذلك ما حفظه بين الحين والآخر, لأن ذلك يساعد على بقائه وعدم نسيانه.

الاسترجاع

الاسترجاع هو استحضار ما حفظه الإنسان في الماضي إلى الحاضر.

وفي كثير من الأحيان يصعب على المرء الاسترجاع, ولو أنه يحفظ تمامًا ما يريد أن يسترجعه, ولذلك أسباب عدة, أهمها وجود عوامل تقسية عارضة



(شكل ١١) خط النسيان

تمنع من الاسترجاع, وتبعث على الاضطراب كالاتصالات الشديدة؛ فالطالب الذي يدخل قلبه الخوف في وقت الامتحان يضطرب ولا يستطيع أن يتذكر شيئًا, وعلاج هذا الأمر هو الثقة بالنفس والطمأنينة.

ومنها ظهور فكرتين في آن واحد, فتتصادم الفكرتان وتمنع إحداها الأخرى من الظهور, كالذي يريد أن يتذكر رقم تليفون فيظهر في ذهنه في نفس الوقت رقم تليفون صديق آخر, وفي هذه الحالة يجب أن تترك الأمر أصلًا وتعود إليه بعد مدة وجيزة.

ويجب أن تعلم أنه لا يوجد فرق أساسي بين الحفظ والاسترجاع, لأنك تسترجع نفس ما حفظت, ولكن في الحفظ يجرى الإنسان علية ملاحظة ينتبه فيها ليكتسب

المعلومات, أما في الاسترجاع فنحن نستعيدها فقط.

ولأجل أن تسهل عملية الاسترجاع, يجب أن تربط ما تريد أن تتذكره وأنت تحفظ, بأشياء تعرفها ويسهل عليك استرجاعها, فقوانين الترابط لها الأثر الأكبر في الاسترجاع, ويجب أن تعمل دائمًا على ربط المعاني بغيرها مما يكون معهودًا لديك, ويكون شائقًا جذابًا بحيث لا تنساه. وهذا هو السر في تسمية الناس أصدقائهم بأسماء مستعارة, يكون الغرض منها الفكاهة, وتكون في الغالب مطابقة للشخص تمام المطابقة بحيث تلبسه وتشبهه, فتكون أقرب إلى الترابط بين الشخص وبين هذا الاسم المستعار. وإذا شئت أن تتذكر التاريخ الجاف, الذي تجد صعوبة في حفظه, فما عليك إلا أن تربطه بتواريخ معروفة لديك, أو بقصة تاريخية مشوقة تقع في نفس ذلك العصر.

التعرف

التعرف هو معرفة أن ما نسترجعه سبق أن مر بنا حقيقة. والتعرف أسهل من الاسترجاع, قد تجد كثيرًا من الصعوبة في استحضار ما حفظته, ولكن إذا عرض عليك الشيء فإنك تتعرف عليه, وتؤكد أنه جزء من تجاربك الماضية. والتجارب العلمية التي تجري على التعرف يكون أغلبها على المشمومات, لأنها أدق وأصعب في تمييزها من المرئيات والسمعيات.

وقد يكون التعرف جزئيًا, فكثيرًا ما ترى شخصًا فتحدثك نفسك أنك تعرفه, أو تشعر بنوع من الألفة بينك وبينه, كأن تكون قد قابلته, أو اشتريت منه شيئًا, أو صادفته في مكان ما, ولكنك لا تستطيع التأكد من الذكر على وجه التحقيق. وعلة ذلك أن معرفته الأولى متصلة بكثير من الأحاسيس كالشوق والفرح والغضب, ومتصلة بكثير من الحوادث, فيكون من العسير استخلاص هذه الذكرى العينة من بين تلك الأخلاط الغامضة من الأحداث, ويخرج تذكرك ناقصًا جزئيًا.

وعملية التذكر الكاملة يشترط فيها التعرف, إذ لا يكفي أن تستحضر ما

حفظته, بل يجب أن تعرف أنه هو وليس غيره. وكثيرًا ما يصحب التذكر نوع من التردد أو الشك فيما نسترجعه بحيث لا يثق الإنسان بهذه الذكريات, أرقعت حقًا أم هي وهم من اختراع الخيال؟ وفي كثير من الأحيان تستحضر في ذهنك أحداثًا على أنها وقت لك, ولكنها في الواقع لم تحصل بتاتًا, وهذا نوع من الخداع. وقد تدخل منزلًا لأول مرة فيخيل إليك أنك دخلت هذا المنزل قبل ذلك, وأنك تعرفه, وحقيقة الأمر أنك لم تعرفه, وسبب ذلك يرجع في الغالب إلى وجود تشابه بين هذا المنزل ومنزل آخر تعرفه.

التحديد

تكمل عملية التذكر بتحديد المكان أو الزمان الذي وقعت فيه الأشياء التي نتذكرها. والتاريخ تحديد زماني للحوادث, ولذلك يأخذون حادثة معينة يصطلحون عليها كبداية للتاريخ, وترتب الحوادث بحسب وقوعها بعد هذا الزمن أو قبله؛ فميلاد المسيح مبدأ التاريخ الميلادي, والهجرة النبوية بداية التاريخ الهجري. ويتخذ الناس حوادثهم الخاصة لتحديد أزمنة حياتهم. وتحدد الأشياء أيضًا بنسبتها إلى المكان, فتقول إنك عرفت فلانًا في الإسكندرية على شاطئ البحر, أو قرأت هذا الشعر في الصفحة اليمني من كتاب من كتب الأدب. وهذا التحديد يتطلب تذكر الصلة بين ما تسترجعه وبين الأشياء التي ترتبط بها. فتذكر الروابط المختلفة كالتلازم أو التشابه أو التضاد أو الروابط المنطقية, أساس التحديد. وقد تحدد ما تذكره لاتصاله بانفعالات وجدانية حدثت معه, كألم أو فرح أو خوف.

ولا يعد عدم تحديد الشيء الذي تستعيده نقصًا في عملية التذكر, ولا عدم التعرف, إذ يكفي أن تسترجع ما تحفظه دون أن تحدد مكانه أو زمانه أو تتعرف عليه, هل وقع حقًا أم لا؟ والغالب أننا لا نستطيع تحديد الذكريات إلا بصعوبة شديدة, أما الشك في التعرف فيعد مرضًا من أمراض الذاكرة.

الفصل الثالث عشر

إدراك الكلى

يكتسب العقل المعرفة الأولية عن طريق الحواس, ثم تكوين المدركات الحسية, ثم يستطيع أن يستغني عن المدركات الحسية الموجودة في الخارج, ويتذكرها عن طريق الصور العقلية. فالطفل الصغير يقدم إليه كوب اللبن أو قطعة الحلوى ويتذوقهما ويدرك شكلهما وطعمهما, ثم تشتهي نفسه ما ارتاحت إليه, فيطلب ذلك اللبن أو تلك الحلوى اللذين تذوقهما, في ذهنه صورتهما كما جربهما, بمعنى أنه يطلب ذلك اللبن الذي شربه, موضوعًا في نفس الإناء الذى رآه, مصحوبًا بنفس الحرارة التي كان عليها, وفي المكان الذي تذوقه فيه. فالمدرك الحسي معرفة لشيء خارجي محدود جزئي خاص, والصورة العقلية استرجاع ذلك الشيء الخارجي المحدود الخاص.

وللعقل القدرة على إدراك المعاني الكلية العامة, التي تنطبق على كثير من الجزئيات المحدودة, فيدرك معنى اللبن إطلاقًا, أو الحلوى إطلاقًا, دون أن يقصر ذلك المعنى على اللبن الذي شربه, والذي كان موضوعًا في إناء رآه, والذي كان مصحوبًا بحرارة معينة, والذي تناوله في مكان معين, بل اللبن عامة, كثيرًا كان أم قليلًا, ساخنًا أم باردًا, في أي مكان من الأمكنة, وفي أي وعاء.

فالمدركات الحسية جزئية, تحد بالأشياء ذاتها التي نمسها ولا تتعداها, بينما المعنى الكلى, معنى مجرد عام, مجرد لأنه يشتمل على صفات منتزعة عن مشخصاتها, وعام لأنه ينطبق على أفراد كثيرين من نوعه. فالمعاني الكلية تصل إليها بالتجريد والتعميم.

التجريد:

إن ما يصل إلى الذهن من الشيء الخارجي هو عدة صفات لهذا الشيء ليس إلا, أما الشيء نفسه فموجود في الخارج وله حقيقة في ذاتها لا ندركها. والمدرك

الحسي عبارة عن مجموع صفات هذا الشيء التي تصل إلى الذهن. فإذا رأيت شخصًا, فما يصل إلى ذهنك منه, هو اللون والشكل الخارجي والحجم, ولكن هذه الصفات لا تنفصل فهذا الشخص بصفاته كل لا يتجزأ عن المدرك الحسي. من بين هذه الصفات أن له شعرًا "ذهبي اللون" فهو في الذهن شعر لونه ذهبي. الشعر واللون لا ينفصلان في الواقع, لأنك لا تجد شعرًا لا لون له, بل يجب أن يكون أسود أو أبيض أو من أي لون آخر. ومن ناحية أخرى لا تجد لونًا لا يقع في مادة من المواد, كاللون في قطعة الخشب أو الشعر أو القماش أو الحائط... ولكننا بواسطة العقل نستطيع أن نتصور اللون فقط بدون المادة الموجود فيها, والتي يجب أن يكون موجودًا فيها, ولا يكون فيها إلا بالفعل؛ فإذا أدركت شجرة لون أوراقها أخضر, فإنك تتصور- من المدرك الحسي للشجرة - اللون الأخضر فقط, أي تستبقى في ذهنك اللون الأخضر فقط, بينها اللون لا ينفصل في الواقع عن ورقة الشجرة الموجود فيها. إذا هناك صورة مدركة حسية في الذهن, هي عبارة عن ورقة الشجرة مضافًا إليها اللون الأخضر, وشكل الورقة ولونها الأخضر لا ينفصلان في الخارج أو الحقيقة, فأنت في الذهن استطعت أن تفصل اللون عن ورقة الشجرة وتستبقيه بمفرده. هذه العملية العقلية التي استطعت بها أن تفصل اللون عن ورقة الشجرة تسمى: التجريد. فالتجريد هو انتزاع صفة من صفات المدرك على حدة, منفصلة عن باقي الصفات. فالورقة التي تقرأ فيها الآن, ذات لون أبيض, وشكل مستطيل, وسمك معين, ولكنك تستطيع أن تجرد اللون الأبيض من الورقة التي تقرأ فيها, وأن تنتزع شكلها المستطيل, وأن تدرك سمكها فقط... ونحن في الواقع لا ندرك البياض بمفرده, بل ندرك الورقة وقد اجتمعت فيها جميع الصفات التي ذكرناها.

وهناك فرق بين التجزيء, والتحليل والتجريد. فالتجزيء هو تقسيم الشيء الواحد إلى عدة أجزاء, مثل تجزئ الكتاب إلى مائة ورقة, والرغيف إلى نصفين. والتحليل هو الوصول إلى عناصر الموضوع أو المواد التي يتركب منها مثل تحليل الهواء إلى أكسجين وأزوت. ولا يكون التجريد تجزيئًا, ولكنه قد يقترب من التحليل, ومع

ذلك فبينهما فروق, إذ ليس من الضروري في التجريد أن يعني الذهن بالبحث عن جميع العناصر التي يتحلل إليها الشيء.

وهناك ثلاثة أنواع من التجريد, فقد تجرد الكيف أو الكم أو العلاقة. فانتزاع صفة اللون من الورقة هو تجريد الكيف, وتجريد عدد صفحات الكتاب وحجمه هو تجريد الكم, وتصور النسبة بين الكتاب والمنضدة الموضوع فوقها هو تجريد العلاقة.

وسواء كنا نجرد صفة أم كمًا أم علاقة, فالعقل يبذل جهدًا, "وينزع" إلى أداء هذا العمل, فالتجريد بداية لنزوع, بل هو حركة عقلية. فمعنى "الجاذبية" أنها المجهود التي نبذله لنقرب منا أو نبعد عنا شيئًا يقاوم القوة التي بها نقارب أو نباعد.

وللصفات التي ندركها أثر فينا, فنعجب بها أو نحتقرها أو نقبل عليها أو نبتعد عنها؛ فهذه وردة أدرك رائحتها الجميلة, فجمال رائحتها يجعلني أشتاق إليها وأطلبها. وصفات الأشياء تنتج فينا نوعًا من النزوع أو النشاط لكسبها.

فإذا أعجبتني الصفة, فإني أركز فيها "انتباهي" لأن هذه الصفة ستكون موضع العمل مني, وعلى ذلك فالتجريد يتطلب الانتباه أولًا.

وتتفاوت المعاني المجردة, فبياض هذه الورقة أقل تجريدًا من معنى البياض إطلاقًا, والبياض أقل تجريدًا من معنى اللون, واللون أقل في درجة التجريد من معنى الصفة...

كيف نصل إلى التجريد؟

هناك ثلاث نظريات يفسر بها التجريد, ولكل منها وجه من أوجه النقص, ونحن نسوقها فيما يلي:

١- النظرية التي تقول بأن الحواس هي آلات التجريد. فكل حاسة تختص باكتساب نوع من الصفات تمتاز به ولا تشاركها فيه غيرها, وذلك حين ندرك المحسوسات. فالعين تدرك الألوان, والأذن الأصوات, والأنف الروائح, واللسان الطعوم, وسطح الجلد الملموسات, فالإنسان يوزع الصفات ويقسمها, تبعًا لتقسيم الحواس الطبيعي, فالجسم آلة خلقت للتجريد, والحواس مضطرة إلى التجريد بفطرتها,

وإذا لم يكن الأمر كذلك لاختلطت الأشياء بعضها ببعض, حتى لتدرك السمين الوان والطعوم والمشمومات والأصوات كما تدرك الألوان.

ولا تصلح هذه النظرية لتفسير التجريد إطلاقًا, فالحواس تفصل صفات الكيف فقط, وليست كل المعاني المجرده كيفيات, فهناك معان كثيرة ليست بصفات, مثل معنى السببية, والتبعية, والجاذبية, والعددية, وهذه العلاقات المختلفة لا تستمد من الحواس. كذلك العين لا ترى اللون فقط, بل تري شكلًا بمجموعة, يحتوي على حجم ولون وسطح وشكل, وليس من طبيعة العين انتزاع اللون فقط منفصلًا عن الشكل. فإذا صلحت الحواس لتفسير بعض أنواع التجريد الأولية, فإنها لا تفسر لنا باقي أنواع التجريد.

٢- النظرية الثانية هي التي تقول بأن الانتباه, وهو المجهود العقلي الذي يبذله الإنسان حين الإدراك, أو هو حصر الفكر في جزء من الحقيقة الخارجية, بينما تظل باقي الأجزاء مهملة لا يوجه إليها الملاحظ نظره, هذا الانتباه الذي يضيق دائرة الشعور هو الذي يؤدي إلى التجريد.

والاعتراض على هذه النظرية يقع في سببين, الأول أننا إذا كنا نوجه الانتباه نحو فصل جزء من الحقيقة, وتقطيعها لأنها أكبر من أن تدرك, فليس التجزئ, تجريدًا, فإذا فصلت يد الشخص عن الجسم, فليست اليد إلا جزءًا من الجسم, ولا تعد معنى من معاني الجسمية أو الإنسانية. والسبب الثاني أننا إذا قلنا إن الانتباه يؤدي إلى تحليل الشيء إلى عناصره الأولى, كالنمو بالنسبة لجسم الإنسان, فيكون الانتباه مرادفًا إذًا للتجريد, أو تكون هناك قوة للانتباه, وقوة أخرى للتجريد, بينما الجهود المعقلى واحد.

٣- النظرية الثالثة أن أصل التجريد لا يكون في المدرك الحسي فقط, ولا في قوة الانتباه فقط, بل في القدرة على الموازنة. وذلك أن العقل لا يفعل شيئًا أمام الشيء "الواحد" الواقع تحت حسه, ولكن العقل إذا أدرك شيئًا آخر يماثل الأول, وثالثًا

يماثلهما, فإنه يلحظ اشتراكها في صفة واحدة, وينتزعها منها جميعًا, عن طريق الموازنة بينها. والموازنة هي انتقال الانتباه من شيء إلى آخر لكشف بعض أوجه الشبه.

ولكن انتزاع الصفة المشتركة بين عدة أفراد متشابهين, يفرض أن الشيء الذي ندركه يتكون من عدة صفات منفصلة, وبذلك يتيسر للعقل أن يلحظ هذه الصفات, وأن يوازن بين الأشياء فيدرك وجه الشبه في كل منها. والواقع يخالف ذلك, لأن إدراكنا للشيء الواحد يكون كاملًا, بحيث تجتمع صفاته كلها دفعة واحدة, دون أن تكون هذه الصفات منفصلة, فنحن حين ندرك الصفة الكائنة في شيء على أنها مماثلة لصفة أخرى في شيء آخر وثالث ورابع, يتجه عقلنا إلى أن هذه الصفة "عامة" في الجميع, فعملية التجريد لا تفهم بواسطة الحواس أو الانتباه أو الموازنة فقط, بل لا بد من إضافة عملية التعميم إليها.

التعميم:

المعني الكلي[١] هو المعنى العام الذي ينطبق على أفراد كثيرين, مثل شجرة فإنها تنطبق على آلاف الأشياء الخارجية المعروفة بهذا الاسم, ومثل إنسان لأنه ينطبق على جميع الناس.

ولأجل أن يطبق العقل المعنى الواحد على عدة أفراد, يجب أن يلحظ بينهم صفات مشتركة هي التي تجعله يدرج هؤلاء الأفراد تحت معنى واحد. فالمعنى الكلى يدل على صفات مشتركة أولًا, وعلى صلاحية أفراد كثيرين للاشتراك في هذا المعني. فن الناحية الأولى تسمى هذه الصفات مفهوم[٢] المعني ومن الناحية الثانية يسمى الأفراد الذين ينطبق عليهم هذا المعنى الماصدقات[٣]. وهذا هو تقسيم المناطقة للمعنى الكلى, فله مفهوم وما صدق. فمفهوم الإنسان الحيوانية والنطق, وما

(١) Concept.

(٢) Comprehension.

(٣) Extension.

صدقات الإنسان هم جميع أفراد النوع الإنساني.

كيف نصل إلى تكوين المعني الكلي؟

يحسن قبل أن نبحث في تكوين المعنى الكلى, أن تفرق بينه وبين الصورة المركبة[1] التي أراد بعض علماء النفس مثل جالتون أن يوازنوا بينهما. والصورة المركبة هي صورة نحصل عليها من تأمل عدة صور مختلفة لشيء واحد, فيخرج لنا من جماعها صورة تمثلها جميعًا؛ مثال ذلك أن حالتون صور الإسكندر بعد رؤيته ست مداليات موجودة في المتحف البريطاني تمثل الإسكندر في أعمار مختلفة من حياته. هذه الصورة تحصل عليها بانتزاع الصفات البارزة المشتركة في عدة مدركات حسية, ولكنها لا تتعدى هذه المدركات الخاصة, بحيث إذا أضيف مدرك حسي جديد اضطررنا إلى تغيير الصورة المركبة, وتعديلها بما يوافق الشيء الجديد. فالصورة المركبة لا تنطبق إلا على العدد المحدود من المحسات المنتزعة منها.

ولكن المعنى الكلى يخالف ذلك, فعني "إنسان" ينطبق على أفراد لا نهاية لهم, على أفراد الإنسان في الماضي والحاضر والمستقبل.

نعود إلى السؤال مرة أخرى, كيف يتكون المعنى الكلى؟ إن معارفنا تبدأ في الأصل بالمدركات الحسية الجزئية, التي تترك وراءها صورًا ذهنية. فنحن نرى هذه الشجرة وتلك وتلك, وكل واحدة منها تترك في الذهن صورة لها, فكل معرفة كانت في الأصل معرفة الجزئيات, وبين هذه الجزئيات خلاف في الأعراض, فشجرة طويلة وأخرى قصيرة, وثالثة مورقة, ورابعة مخضرة, وخامسة مثمرة... فكيف نخرج من هذا التعدد إلى الوحدة, ومن الخلاف إلى الاتفاق؟

أجاب هاملتون عن هذا السؤال بنظريته المعروفة, فهو يميز خمس خطوات في تكوين المعنى الكلى:

١– الأولى الإدراك الحسي للأشياء الخارجية المتكثرة المتعددة.

---

(١) L'Image composite.

٢- الثانية الموازنة بين هذه الأشياء الخارجية لمعرفة الصفات العامة المشتركة بينها.

٣- الثالثة توجيه الانتباه الذي يركز الذهن في الصفات التي لحظة الإنسان اشتراكها, وتجريدها من غيرها.

٤- الرابعة التأليف بين هذه الصفات المشتركة.

٥- الخامسة التسمية, أي وضع اسم هذه المجموعة المشتركة من الصفات.

وللاسم الذي يتصل بالمعنى أهمية كبيرة في الخطوات التي تعمل على تكوينه وسنبين هذه الأهمية وقيمة اللغة في الإدراك الكلى فيما بعد.

ويبين هاملتون هنا أننا نصل إلى التجريد بالموازنة, وقد اتضح لنا قصور هذه العملية عن الوصول الكامل إلى التجريد. وإذا قلنا إننا ننتزع الصفات المشتركة من بين عدة مدركات حسية, فالمعنى المنتزع لن يكون إلا "صورة مركبة" محدودة بهذه المدركات الحسية قط؛ فنحن في حاجة إلى تفسير عملية التعميم بغير هذه الخطوات.

والحقيقة أن مشكلة التجريد لا تحل بمفردها, بل هي عملية لا تنفصل عن التعميم. فالمعاني الكلية معان مجردة, وكل معنى مجرد هو معني عام. وبيان ذلك أن كل معنى عام هو معنى مجرد, لأنه لإدراك أن من خصائص المعني الانطباق

على عدد لا نهاية له من الأفراد, يجب أن ينتزع أو مجرد هذا المعنى من المحسات التي تشمل صفات مشتركة, والعكس لا تجريد بغير تعميم. وقد يكون عند الحيوان شيء من هذا, ولكن بصورة محدودة عما هو موجود عند الإنسان, فالفيل الذي يدرب على حمل الأثقال, قد تنشأ في ذهنه فكرة الثقل, ولكنه لا يستطيع أن يمتد في تطبيق هذه الفكرة على الأشياء التي لا يتصل بها ولا تهمه. بينما الإنسان عنده القدرة على التجريد والتعميم في آن واحد. فإذا جردت اللون الأبيض من هذه الورقة فقط دون أن أفكر في أن اللون الأبيض قد يوجد في أشياء أخرى, فإن هذا التجريد لا يعدو الحقيقة الجزئية, ولا يعلو كثيرًا فوق الحس, إذ أن هذه الصفة تظل متصلة بمجموعة الصفات المستمدة من ذلك الشيء.

والحقيقة أيضًا أن العقل لا يقف موقفًا سلبيًا من الأشياء التي يجردها, ولكنه يميل إلى النشاط, ويتجه إلى أن يكون بداية لعمل. ذلك أننا نرد دائمًا على مطالب الحياة, ونحاول أن نسلك دائمًا أمام المواقف المختلفة التي تقدمها لنا الظروف الخارجية, وليس الأصل في الإنسان أن يعمل لكسب المعرفة المجردة الخالصة. فنحن ندرك الأشياء التي نجد فيها فائدة لنا, ولذلك كان الإدراك الحسي باعثًا إلى النزوع والميل إلى العمل. إذا طلبت من شخص أن يصف لك كوب الماء الذي كان يشرب منه, أو السكين التي كان يستعملها في تناول الطعام, أو الأطباق التي كان الطعام موجودة فيها, فإنك تدهش لعدم مقدرته على وصفها؛ ذلك أن الشخص لم يدرك الكوب إلا على أنه يحوى الماء, ولم يدرك الأطباق إلا على أنها أوعية الطعام, ولذلك يعرف الإنسان الأشياء أولًا لفائدتها وصلاحيتها للاستعمال, ولا يبدأ الإنسان في تمييز الصفات المجردة الذاتية المقومة لطبيعة الشيء إلا فما بعد. ونحن لا نقف من الطبيعة موقف المتفرج دون اهتمام, بل ننظر إلى الطبيعة بمنظار الحاجة والمنفعة, ونحاول دائمًا أن نطبق سلوكنًا, الذي أفادنا في موقف, في الظروف الأخرى المشابهة. فالجسم يسلك نفس السلوك في الظروف المتشابهة التي قد تختلف في بعض التفاصيل, فالإنسان حين يرى وحشًا قد أفلت من قفصه, ليكن هذا الوحش أسدًا أو نمرًا أو أي حيوان مفترس, فإن الإنسان يتخذ وسيلة الهرب, وفي هذا السلوك الغريزي يجرد الإنسان معنى الخطر, وهو في نفس الوقت يعمم هذا المعنى, لأن الخطر سواء أكان عن أسد أو نمر, فهو خطر بالنسبة له. فمن هذا المثال يتضح لنا تمامًا أن "فكرة الخطر" جردت وعممت في آن واحد.

فهو تجريد وتعميم مستمدان بالطبيعة, وسابقان على كل تفكير. ولكن الإنسان لا يقنع بما تقدمه له الطبيعة, فهو يفكر ويتأمل, ويشعر فائدة هذه المجردات الطبيعية, فيحاول أن ينسج على منوالها, مقالًا في ذلك الطبيعة, وأكبر عون له في هذا التعميم, هي الألفاظ التي اخترعها الإنسان ليثبت فيها هذه المعاني المجردة.

اللغة والمعنى الكلي:

اللفظ هو رمز نضعه في الاصطلاح لمعنى من المعاني. هذه الرموز ضرورية لوضع أساس الاستقرار في التقدم العقلي, وذلك لتركيز كل خطوة من سير الذهن, حتى نستطيع أن نتقدم في ذلك السير. قد يغزو الجيش بقعة من الأرض وينتصر عليها وينتشر فوق أديمها, ولكنه لا يملكها إلا حين ينشئ فوقها الحصون, الألفاظ حصون الفكر. ولنضرب مثلًا آخر, فإنك تعرف دون شك أن الأنفاق التي تحفر في أرض رملية, لا تستقيم إلا إذا بنيت عقود من الحجر على مسافات لتمنع انهيار الرمل, فاللغة بالنسبة إلى العقل كالعقود بالنسبة للاتفاق.

فالمعنى يظل حائرًا في الذهن, حتى يستقر في اللفظة المناسبة, فيثبت ويتركز ويتحدد. واللغة ضرورية للفكر, حتى للتفكير الشخصي, فالإنسان بينه وبين نفسه يفكر في أثواب من اللغة. قال صاحب البصائر النصيرية[1]: "أما إذا جرى التعليم فيه [يعني المنطق] على سبيل المخاطبة والمحاورة ولم يكن ذلك إلا بألفاظ, صارت الألفاظ أيضًا منظورًا فيها بالضرورة, خصوصًا وفكر الإنسان قلمًا ينفك عن تخيل ألفاظ معها, حتى أن الإنسان يناجي نفسه بألفاظ متخيلة إذا أخذ في التروي والتفكر".

وقد نسأل أنفسنا ما هي الحاجة التي دفعت الإنسان إلى اختراع اللغة, التي أفادتنا هذه الفائدة الكبرى في تركيز المعاني المجردة العامة, والجواب عن هذا يسير, فهذه الحاجة تمتد أصولها إلى المجتمع. أما الحيوان لأنه يستغرق في الأنانية, ولأنه يعيش ليشبع رغبات الحس فحسب, ولأنه يعمل لفائدته الشخصية, فإنه يعيش لنفسه. فآكل العشب يعرف الأعشاب ويميزها ويدركها ليأكلها, ولكنه لا يبدي ميلًا إلى نقل هذه المعرفة لغيره من أقرانه. ففكره ينعكس على جسمه, وينعكس على شهواته التي تملي عليه طريق العمل. فالحيوان عبد لشهواته الجسمية, ولذلك كانت هذه الأنانية

---

(١) البصائر النصيرية, ص٦.

البعيدة الغور مانعة من ابتكار اللغة. ولكن الإنسان لحاجته إلى نقل الفكر من شخص إلى آخر, اضطر إلى استعمال اللغة. واللغات في أول أمرها بدأت بالأسماء والصفات دون الأفعال, فكثير من لغات الشعوب الهمجية لا أفعال فيها.

ولأجل أن ينقل الإنسان فكره إلى غيره, يجب أن يتخذ وجهة نظر ذلك الغير, ولذلك فهو يلغي من تفكيره المدركات الشخصية البحتة, ويستبقي المدركات العامة التي يفهمها هو وغيره. فإذا رأى الإنسان شجرة ذات فروع كثيرة مورقة خضراء, ويحاول أن ينقل هذا المعنى المحسوس المتصل الصفات الكثير التفاصيل, فإنه ينبغي أن يلغي التفاصيل الجزئية الخاصة من هذا الشكل, ثم يضم في لفظ واحد ما يتمثل للجميع؛ فاللفظ "شجرة" يدل على هذا الشكل جملة, هذه الشجرة التي ليست بقصيرة أو طويلة, مورقة أو جرداء, خضراء أو يابسة, في حقل أو في حديقة, إلى اليمين أو إلى اليسار, ثم يضيف العقل إلى هذا المعنى أو الاسم صفة تحدد ما يطلب الإنسان من فكر, فيقول شجرة خضراء.

الفصل الرابع عشر

التفكير

كثيرًا ما يخطئ عامة الناس في معنى التفكير, فيطلقون هذا الاصطلاح على كل ما يجول بخاطر الإنسان. فإذا أدرك شكلًا, كالذي يسير في حديقة فيقع بصره على أشجارها وأزهارها, فإنه يقول إن ما يدركه تفكير, وهذا في الواقع إدراك حسي. وقد يسبح في الخيال فتتابع الصور في ذهنه, وهذا تخيل. وقد يسترجع من الماضي أحداثًا وقعت له, ويسمى هذا تذكرًا.

أما التفكير الكامل وفي أرقي درجاته, فلا يكون إلا إذا وقف الإنسان موقفًا جديدًا لا يعهده, ولا يدري كيف يسلك للخروج من هذا الموقف الجديد إذ يجد أمامه أوجهًا كثيرة للسلوك, يتردد في اختيار أفضلها, ويستعرض أمامه المسالك المختلفة قبل أن يستقر رأيه على طريق منها.

فالإنسان أمام الخطر الداهم , يلجأ إلى الهرب, وهذا سلوك غريزي, والطالب يذهب من البيت إلى المدرسة في طريق معينة لا يغيرها, لأنه ألفها بالعادة. وأغلب أعمال الإنسان آلية, يكون في الحقيقة مسوقًا إلى عملها. وذلك عن طريق الفعل المنعكس, أو الفعل للمنعكس التعلق بشرط, أو بالغريزة, أو بالعادة أو بسلطان الإيحاء أو التقليد. والحقيقة أن اللحظات التي يتخلص فيها الإنسان من سلطان هذه الآلية, ويشعر بالحرية في العمل, حيث يفكر التفكير الصحيح, هي لحظات قصيرة بالنسبة لحياة الإنسان. فالتفكير الصحيح يتطلب أن يشعر الإنسان بوجود مشكلة هي في طريقه, وتحتاج إلى الحل, فيصبح حل هذه المشكلة "الغرض" الذي يسعى الإنسان إلى تحقيقه, ويشبه "ديوي" عملية التفكير بالمسافر الذي يقطع طريقًا مستويًا لا منعرج فيه, فهو ليس في حاجة إلى تفكير للسير في هذا الطريق, فإذا

فرضنا أن الطريق انشق في المنتصف إلى ناحيتين, إحداهما فقط هي التي تؤدي إلى النهاية المطلوبة, حينئذ يتروى المسافر عند مفترق الطرق, ويفكر أي الطريقين يسلك.

ويتكون التفكير من عدة عناصر هي: المعنى, والحكم, والاستدلال. وقد تكلمنا عن المعاني وتكوينها وصلتها باللغة في الفصل السابق.

الحكم(١):

الحكم نسبة معنى إلى معنى إما بإيجاب وإثبات أو سلب ونفي(٢).

ولا نريد أن نبحث الحكم من ناحية المنطق, فهذا شأن المناطقة. أما من الناحية النفسية فالحكم إثبات أو نفي, بمعنى أنك تثبت شيئًا لشيء, أو تنفيه عنه, فتقول "محمد تلميذ أو غير تلميذ" فإما أن تثبت طلب العلم إلى محمد, أو تنفي هذه الصفة عنه.

والحكم يتضمن التصديق(٣), وعكس الاعتقاد هو الشك لا النفي. والنفي نوع من الإثبات, لأنك تثبت أن هذه الصفة لا تصلح هذا المعنى؛ والعقل في حالة النفي أو الإثبات يتعرض للخطأ.

والبحث في طبيعة الأحكام, هو البحث في مقدرة العقل على الإثبات أو النفي. والمعاني لا تستطيع أن تقف في الذهن بمفردها بل لا بد من إضافة صفات لها, وأبسط مظاهر الأحكام هي الأحكام الصامتة, فإذا كنت تستريض في حقل, ثم ساقتك قدماك إلى حافة ترعة تريد أن تعبرها فإنك "تقدر" اتساعها, ثم "تقيس" مجهودك لتصل إلى الجانب الآخر, فتقدير المسافة, وقياس المجهود حكم, ولكنه حكم صامت, دار في خلدك, دون أن تبرزه في ثوب من اللغة. ومع ذلك فاللغة ضرورية

---

(١) Jugement.

(٢) البصائر النصيرية في علم المنطق, ص٤٦.

(٣) Croyance.

للحكم, لأنك إذا لم تفكر بصوت عال, فلا تستطيع إلا أن تفكر في ثوب من اللغة الباطنة, فتحدث نفسك. ومع ذلك فإذا كان الإنسان في كامل تكوينه يستعين دائمًا باللغة, فهو في طفولته الأولى كان يفكر بدونها, ومع ذلك فالطفل الصغير أعماله كلها أحكام, فهو إذا صاح, فإنه يحكم على نفسه بالتألم, وإذا ابتسم لرؤية أبيه, فإنه يحكم على نفسه بالغبطة لهذه الرؤية. فإذا بدأ في الكلام, وهو في أيامه الأولى لا ينطق إلا ببعض ألفاظ ضئيلة, فإن اللفظة الواحدة التي ينطق بها تدل على حكم, فإذا قال "بابا" فإنه يريد أن يقول "هذا بابا" فهو يثبت الأبوة لهذا الإنسان الشاخص أمامه.

ليست المعاني إذن أساس التفكير, بل الأحكام, والحكم يسبق المعنى الكلى, فالمعنى "شجرة", هو إثبات مجموعة من الصفات لعدد من الأفراد التي تشترك في نوع الشجرة. والإدراك الحسي يتضمن الحكم, لأنك تعتقد في حقيقة هذا الشيء الخارجي الذي تدركه, فالإدراك الحسي إثبات وجود الشيء الخارجي.

والحكم نسبة– كما يقول المناطقة– بين موضوع ومحمول[١]. فمن طبيعة العقل أن يحمل على الموضوع صفة من الصفات يثبتها أو ينفيها عنه. فالعقل يضع العلاقات المختلفة بين الأشياء, ولا يستطيع أن يعقل المعاني منفصلة, فنحن ندرك الأشياء بعلاقتها مع غيرها, فالوقود غذاء النار, والكتب للقراءة, والمدرسة للتعليم, والآلة البخارية لجر القاطرات.... فأنت ترى هنا المعاني أزواجًا أزواجًا, لا تفهم إلا بعلاقتها مع شيء آخر, فإذا قلت الوقود وسكت, فلا يستدل من هذا المعنى على شيء, إلا إذا اتصل بصفة من الصفات, فالوقود للتدفئة, أو للطهى, أو لتوليد البخار, أو للحريق...

فالأحكام هي العناصر الأولى التي يتكون منها التفكير.

(١) Sujet et attribut.

الاستدلال[1]:

الاستدلال هو تسلسل عدة أحكام مترتبة بعضها على بعض, بحيث يتوقف الأخير منها على سابقاها بالضرورة. ونحن نستدل على ترتب الأحكام بعضها على بعض, كما نستدل للوصول إلى إيضاح حقيقة مجهولة.

وقد جرى بعض العلماء على تعريف الاستدلال بأنه حركة الذهن التي توصل من قضايا معلومة إلى قضية مجهولة, وفي هذا التعريف نقص, لأن الكشف مثلًا لا يقوم على الترتيب المنطقي وحسب, بل يتوقف على الابتكار, حيث أن كشف المجهول نوع من الاختراع, والاختراع أثر من آثار الخيال والإلهام, كما ذكرنا في باب التخيل؛ ذلك أن الذين يشتغل فيما يكشف عنه في اللاشعور,, ثم تطفو الفكرة الجديدة فجأة في مستوى الشعور.

والتفكير إما أن يكون نقيلًا[2], وإما أن يكون منظمًا[3]. فإذا انتقل الإنسان من معنى إلى معنى دون نظام كما يتفق له, فهذا تفكير تقيل, بينما حل مشكلة محدودة يقتضي نظامًا, ويقتضي الرجوع إلى الاستدلال لحل هذه المشكلة. الاستدلال هو مظهر التفكير الصحيح.

وكل استدلال فهو انتقال من حكم إلى آخر.

فنحن في الاستدلال نحاول أن نبسط معارفنا لنطبقها على حالات تماثل حالات نعرفها. وأبسط أنواع الاستدلال هو النوع الرياضي, فإذا قلنا أ = ب, ب = حـ, حـ = ء , ء = هـ, فإن العقل يعرف بداهة أن جميع هذه الحدود متساوية, فنقول مثلًا إن أ = هـ.

---

(١) Raisonnement

(٢) vagabonde– في المصباح المنير "نقلته" نقلًا حولته من موضع إلى موضع ونقلته بالتشديد مبالغة وتكثير فيه.

(٣) disciplinee.

كذلك إذا قلنا إن القاهرة أكبر من الإسكندرية, والإسكندرية أكبر طنطا, فنستطيع أن "نستبدل" طنطا بالإسكندرية في القضية الأولى, فنقول القاهرة أكبر من طنطا. فالاستدلال هو استبدال حكم بحكم, أو الانتقال من حكم إلى حكم.

فإذا حللنا العقل وهو ينتقل بهذا الشكل, نجد أنه يقوم بعملية "الموازنة" بين الأحكام, ليرى هل من حقه أن ينتقل من حالة إلى حالة أخرى تنطبق عليها أم لا, فالعقل بوازن بين هذه الحدود الثلاثة: القاهرة والإسكندرية وطنطا, فيرى أنها متدرجة في الكبر, فينتقل بالموازنة من أن القاهرة أكبر من الإسكندرية, إلى أن القاهرة أكبر من طنطا.

ولا بد في الاستدلال من وجود "حد أوسط"(١) يكون واسطة الانتقال بين حدين. فالإسكندرية في الحد الأوسط بين القاهرة وطنطا, اشتركت تارة مع القاهرة, ومع طنطا تارة أخرى. والحد الأوسط كما يوجد في القياس, يوجد في الاستقراء. فنحن في الاستقراء نبدأ بملاحظة ظواهر الطبيعة ونخرج منها أو نستدل منها على قانون عام, فنحن نلاحظ أن حجم الغاز يتغير تغيرًا عكسيًا مع الضغط, وهو قانون تمدد الغازات, فالحد الأوسط هنا هو "العلاقة الدائمة" بين الضغط وتمدد الغاز, هذه العلاقة الدائمة هي التي سمحت لنا بالانتقال من الملاحظات الجزئية إلى القانون العام.

القياس والاستقراء والتمثيل:

يقسم المناطقة الاستدلال عادة إلى ثلاثة أنواع. القياس والاستقراء والتمثيل. وفي ذلك يقول ابن سينا(٢) "الحجة العقلية ثلاثة أنواع: القياس والاستقراء والتمثيل, وذلك لأنه إما أن يحكم على الجزئي لثبوت ذلك الحكم في الكلى وهو القياس, أو يحكم على الكلى لثبوته في الجزئي وهو الاستقراء, أو يحكم على الجزئي لثبوت الحكم في جزئي آخر وهو التمثيل.... وأما القياس فهو العمدة وهو قول مؤلف من أقوال

(١) Moyen terune.

(٢) لباب الإشارات ص٣٢, ٣٣.

إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر ....".

فالقياس[١] استنتاج نتيجة خاصة موجودة في مقدمات عامة أوسع منها وأكبر, وهذه المقدمات معروفة لنا, والنتيجة مستمدة من المقدمات, فنحن لن كشف شيئًا جديدًا. مثال ذلك:

كل معدن موصل جيد للحرارة.

الذهب معدن.

إذًا الذهب موصل جيد للحرارة.

فهذه النتيجة وهي أن الذهب موصل جيد للحرارة, موجودة بنفسها في مقدمات هذا القياس, فالنتيجة غير جديدة, بل هي جزء من المقدمة, وعلى ذلك فالاستدلال القياسي جذب لا يخصب معرفة جديدة[٢].

ولكن القياس إذا كان لا يقدم شيئًا جديدًا خالصًا, فإنه يؤدي إلى نتائج جديدة من حيث صورها وشكلها. فالنجار لا يبتدع خشبًا, ولكنه يخرج من الخشب أثاثًا يختلف عن مادة الخشب في شكلها القديم , والخباز لا يخترع أو ينشئ قمحًا, ولكنه يشكل القمح في صورة خبز لم نكن نعهده من قبل. كذلك القياس فإنه صناعة عقلية تشكل المعلومات التي نعرفها في صور جديدة نحن في حاجة إليها, وتفيدنا فائدة جديدة. فالنتيجة التي نصل إليها, ولو أنها جزء من القدمة, إلا أنها كانت خافية عنا, ومختبئة في ثنايا المقدمة, فتبرز لنا, ونلقي عليها ضوءً جديدًا.

أما الاستقراء[٣] فهو ملاحظة ظواهر الطبيعة, والارتفاع منها إلى قانون عام ويتخلل ذلك محاولة "تفسير" الحقائق العامة التي نجمعها بالمشاهدات, ويكون ذلك

---

(١) deduction.

(٢) Manuel de Philosophie Par Luquet P. 39, 40.

(٣) Inductin.

بواسطة "فرض"[١] إذا تحقق يسمى قانونًا. فقد لاحظ الإنسان من قديم أن بعض الأجسام الخشب تطفو على وجه الماء, ثم علل ذلك بأسباب كثيرة, إلى أن وصل أرشميدس إلى الفرض الذي أصبح قاعدة تطبق في جميع الحالات وهو أن "كل جسم يغمر في سائل يدفع من أسفل إلى أعلى بقوة تساوي وزن حجم السائل المزاغ".

فالمهم في الاستقراء هو الانتقال من ميدان الحقائق المحسوسة إلى مرحلة التفسير والفرض, وهذا الانتقال يحتاج إلى الابتكار والإلهام, ولذلك كان الاستقراء موصلًا إلى كشف القوانين العامة, ولا يمتاز الاستقراء عن القياس من الناحية العقلية في شيء, فكلاهما في حاجة إلى كشف الحد الأوسط الذي يوصل إلى النتيجة, ولكننا في القياس نبدأ بالقانون, ونستمد منه حقيقة جزئية, وفي الاستقراء نبدأ بالجزئيات وتنتهي إلى القانون. والإنسان في تفكيره في حاجة إلى كلا الطريقتين معًا, فبالاستقراء نصل إلى القوانين العامة, وبالقياس نثبت صحة هذه القوانين, ونطبقها من جديد لمعرفة الحقائق الجزئية أو نتائج التجربة.

والقياس والاستقراء يقطعان طريقًا واحدًا ولكن في اتجاه مضاد, ذلك أنه إذا كان الطريق مجهولًا لم يطرق من قبل, يفضل العقل أن يقطعه في اتجاه الاستقراء, بمعنى أنه يبدأ من ملاحظة الظواهر متجهًا نحو الفروض العامة. أما إذا كان الطريق معروفًا مرتادًا, فإن العقل يجرؤ في ذلك الوقت أن يرتكز على هذه الفروض العامة ويهبط منها إلى التجارب الجزئية.

أما التمثيل[٢] فهو بداية الاستقراء, وهو عبارة عن الحكم على شيء بأنه يطابق شيئًا آخر لوجود تشابه بينهما من بعض النواحي, فيتخذ العقل هذه المشابهات الجزئية على أنها دليل تشابه أكمل وأعمق وأتم. ولذا كان هذا النوع من الاستدلال, لا يؤدي إلى نتائج موثوقة يقينية. ومن أمثلة التمثيل أن نقول إن جو المريخ يشبه جو

---

(١) hypothese.

(٢) Raisonnement par analogie.

الأرض, ولما كانت الأرض مسكونة, فالمريخ كذلك مسكون.

وقد حلل ديوي[١] في كتابه "كيف نفكر" في الفصل السابع التفكير إلى خمس مراحل, نلحقها فيما يلي:

١- وجود مشكلة.

إذ لا يمكن أن يفكر الإنسان في لا شيء, بل لابد أن يكون هناك موضوع التفكير فيه, وهذا الموضوع هو مشكلة تشعر بوجودها وضرورة حلها. والمثال الذي ضربه في هذا الصدد, هو أن طالبًا يفكر هل يستمر في التدخين أو يضرب عنه؟

٢- تحديد المشكلة.

ذلك أن المشكلة تكون متعددة الجوانب, فإذا نظرت إليها تارة من جانب, وتارة من جانب آخر, فقد يؤدي هذا إلى اللبس والتشعب والغموض, فلا بد من تعريف المشكلة وحدها, وإيضاحها, حتى يستقر في الذهن غرض واحد. ففي المثال السابق نستطيع أن نفكر في المشكلة من الناحية الاقتصادية, أو الصحية, أو الخلقية, أو النفسية... إلخ. ولنحدد المشكلة كما يأتي: هل التدخين يساعد أم يعطل التكوين الكامل الجسمي والعقلي للطالب وهو في هذه السن, وهل يؤدي إلى النجاح في الحاضر والمستقبل؟

٣- الحلول المحتملة وتكوين فرض.

بعد تحديد المشكلة على هذا النحو, يشرع العقل في استعراض الحلول المختلفة, حتى يصل إلى حل يسمى في ذلك الوقت فرضًا. وهنا ينقب عن الحقائق والمشاهدات التي تفيد في الوصول إلى الحل, فيلاحظ هذا الطالب أن فريقًا من أقرانه يدخن وفريقًا لا يدخن, ومن بين الفريقين بعض الطلاب أكثر نشاطًا وقوة وصحة واحتمالًا, وبعضهم أذكي عقلًا, وأكثر تحصيلًا في الدرس, وأسبق درجة في العمل. ولتفسير هذه الظواهر المختلفة من جهة المشكلة التي نحن بصددها, يفرض الطالب

---

(١) Dewey.

هذا الفرض: وهو أن التدخين معطل النمو الجسماني, مؤخر للصحة والنجاح.

٤- قيمة الفرض.

بعد الوصول إلى الفرض نبحث في صحته, وفي صلته بالجهات المختلفة من الموقف, فنقول: إنه إذا كان حقًا أن التدخين معطل للنمو وللصحة والنجاح, فإنه يجب أن يكون المدخنون أبطأ في نموهم وأضعف في قوتهم البدنية, وأقل احتمالًا من غير المدخنين. كذلك فإنهم لا يستطيعون مباراة غيرهم في الرياضة البدنية وفي تحصيل الدروس. فإذا كانت نظريتنا صحيحة وجب أن تترتب عليها هذه النتائج, وهذا ما سنشاهده في المرحلة القادمة.

٥- تطبيق الفرض.

إذا وجدنا التجربة تؤيد الفرض, قبلناه, وإذا وجدنا الوقائع تخالفه رفضناه. وهنا نبحث فنجد أن التدخين ممنوع بين أوساط الرياضيين, لأنه اتضح بالاختبار أنه يضعف القوة البدنية, كذلك نجد أن المدخنين من الطلبة أضعف في مستواهم العلمي من غيرهم. ثم يحدثنا العلم عن أضراره. حينئذ يقبل صاحب هذا المرض ما وصل إليه عقله, ويعتقد صحته.

فعملية التفكير الكاملة في حل المشاكل وذلك عن طريق الاستقراء والقياس.

الفصل الخامس عشر

الشخصية[1]

يطلق لفظ الشخصية عادة على معنيين مختلفين, ولذلك يحسن بنا أولًا أن نحدد المعنى الذي نريده. فمن جهة, الشخصية هي مجموع الصفات التي تميز المرء عن غيره, الصفات الجسمية والعقلية والخلقية. فقد تسأل عن شخص تعرفه, وتريد أن تصفه بحيث يكون السامع عنه فكرة تطابقه, فتقول إنه طويل نحيل أبيض البشرة مرسل الشعر أسوده حليق الشارب متوسط السن باسم الثغر بشوش الوجه, ذكي الفؤاد حاضر البديهة سريع الخاطر نافذ البصر, أمين صادق شريف عادل عابد طاهر القلب متفائل, يحب الاجتماع ويكره العزلة, كريم يصل الأرحام ويعطف على المسكين؛ هذه الصورة التي تكونها عن الشخص عند سماعك هذه الصفات المختلفة, تقرب شخصيته إلى ذهنك, وهذا هو ما نقصده من المعني الأول, ولذلك كان لكل فرد شخصية.

ومن جهة أخرى, تطلق الشخصية على البروز والامتياز, ولذلك يقصر هذا المعني على أولئك الذين يبزون غيرهم, ويمتازون عنهم, فيقال إنهم من ذوي الشخصيات لتفوقهم في العلم أو السياسة أو الرياضة البدنية أو أي ناحية اجتماعية. بينها العامة والدهماء, الذين يخضعون لسلطان أصحاب الأعمال, وينفذون ما يملى عليهم, فلا شخصية لهم. ولكننا لن نتعرض في بحثنا إلى الكلام على هذا المعنى المحدود, بل سنطلق البحث على الشخصية بمعناها الشامل العام الذي ذكرناه أولًا. لأن وصف الشخصية بالقوة والضعف, بالخير والشر, فهو وصف يرجع إلى علم الأخلاق لا إلى علم النفس.

---

(١) La Personnalite.

مظاهر الشخصية:

إذا حاولنا أن نصف الشخصية كما تبدو لنا من صاحبها, فلا يخرج هنا الوصف عما نسميه بالخلق[1]. والخلق هو مجموع الصفات والسلوك الذي ينزل من الإنسان منزلة الطبع, بمعنى أن أداء الأعمال يكون بصورة واحدة لا تتغير, في الفكر والوجدان والعمل. ولذلك يستطيع الإنسان أن يحكم على تصرفات الناس وذلك لثبات خلقهم, فإذا عرفت أن فلانًا بخيل, كثير الشح, فإنك تستطيع أن تتنبأ أنه لا يكرم ضيفًا, ولا يحسن إلى فقير, ولا يبذل من ماله للجمعيات الخيرية, ولا يبر نفسه.

وقد حاول العلماء من قديم أن ينظموا الخلق في أصناف, والتصنيف يقتضي كشف نوع من المميزات الأساسية التي ترتكز عليها الأنواع المختلفة المتباينة. وأشهر هذه التصانيف هو تقسيمها بحسب الأمزجة, وهي المزاج الدموي, والصفراوي, والسوداوي, والبلغمي. فصاحب المزاج الدموي يكون قوي الجسم البنية, أبيض البشرة ومشربًا بحمرة, سريع التأثر, كثير التقلب, سريع الانفعال, قوى الخاطر. وصاحب المزاج الصفراوي يكون شاحب اللون, ذا شعر أسود, يميل إلى السمرة, نشيطًا, مثابرًا, عنيدًا ثابت المبدأ. وصاحب المزاج السوداوي يكون ضئيل الجسم, ضعيفًا, كثير التخيل والتفكير, لا يثق كثيرًا بالناس, ويتعرض سريعًا للأمراض, وصاحب المزاج البلغمي يكون شاحب اللون, كثير الخمول, بطيء الحركة, مشتت الذهن, سريع النسيان, قليل الاعتماد على النفس. وقد أضيف حديثًا إلى هذه الأمزجة الأربعة المعروفة من قديم, مزاج خامس هو المزاج العصبي, وصاحبه يكون نحيلًا كثير الضحك, سريع التقلب والتغير, عرضة للاضطرابات العصبية. وينشأ المزاج الدموي من زيادة الدم, والصفراوي من زيادة إفراز الكبد للصفراء, والسوداوي من زيادة إفراز الطحال, والبلغمي من زيادة إفراز البلغم الناشئ من أحد الأخلاط الأربعة التي تكون الطبيعة الإنسانية, وهي البرودة والحرارة والرطوبة

---

(١) الخلق بضمتين هو ما يعبر عنه باللغة الأجنبية le caractere.

واليبوسة, والعصبي من توتر الأعصاب وهياجها, أو زيادة السائل العصى.

تقسيم الناس طبقًا لأمزجتهم على هذا النحو, لا يستند إلى أساس علمي, ولا نستطيع أن نأخذ به.

مكونات الشخصية:

انتقل الآن إلى تفسير مظاهر الشخصية التي ذكرناها. فما هي العوامل التي تتدخل في تكوين شخصية كل منا؟ ترجع هذه العوامل إلى أسباب فطرية, وأخرى مكتسبة. فالفطرية هي الاستعدادات الموروثة التي تحدد طبيعة كل شخص كالطول والقصر والقوة البدنية, وحيوية الجسم, والميل إلى بعض الصفات العقلية والخلقية, كالاستعداد للتفكير الرياضي, أو الميل إلى فن من الفنون كالموسيقى, أو الاستعداد للانغماس في الرذائل كشرب الخمر أو ارتكاب الجرائم[١]. والعوامل المكتسبة ترجع إلى البيئة التي تنشأ فيها, والتعليم, والتجارب الشخصية, وسلطان الفرد على نفسه. ولا نستطيع أن نحدد بالضبط أثر كل من هذه العوامل, ونسبتها بعضها إلى بعض في تكوين الشخصية. فأثر البيئة لا يظهر إلا على أساس من الاستعدادات الموروثة, والميول الفطرية لا تظهر إلا تحت تأثير البيئة؛ ولتشعب هذه العوامل وكثرتها ودقتها, كان من الصعب البحث الدقيق في أصول الشخصية, والبيئة التي نقصدها هي المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان, ومنه يستمد حاجاته, فهو في حاجة إلى تناول الطعام, وإلى المسكن والملبس, وإلى الزواج والتناسل, وإلى الظهور والرياسة, وإلى إشباع رغبة نفسه في الكشف والاطلاع, وإلى تجنب الأخطار ومغالبة الصعاب, وكل ذلك لحفظ الحياة. وليس طلب هذه الأشياء ميسورًا, بل دونها كفاح شديد, وصراع عنيف بين الناس على الأرزاق والأقوات وأسباب المعيشة. وكثيرًا ما يخيب سي الشخص, ويحرم من تحقيق رغباته الكثيرة. فيكره الناس ويبتعد عنهم ليعيش بينه وبين نفسه في عزلة, ولكن حب الاجتماع طبيعة متأصلة في النفس, فلا يلبث أن يعود إلى

---

(١) راجع الفصل الرابع.

المجتمع, وحينئذ يضطر إلى التوفيق بين رغبات نفسه ومطالب المجتمع, ويختلف كل شخص عن الآخر في نوع هذا التوفيق. ومن هذه الصلة بين الفرد في محاولته أن يلائم بين نفسه والمجتمع, يخرج الإنسان مطبوعًا بطابع خاص هو ما تعبر عنه بالشخصية. فالشخصية في نتيجة الاستعدادات القطرية التي يرثها صاحبها, بعد أن تشكل في البيئة التي يعيش فيها.

ولطبيعة الجسم أثر في تكوين الشخصية, ذلك أن قوام الإنسان وشكله يؤثران في صلته بالناس, وفي صلة الناس به, فالطول يكسب صاحبه هيبة وسلطانًا طبيعيين على الناس, فتشبع حاجته إلى الظهور والرياسة, وترتاح نفسه إلى ذلك, فيصبح بشوشا سمحًا رحب الصدر؛ بينما القصير يضطر إلى الانقياد لغيره, ويحاول أن ينفذ أغراضه بطرق معوجة, فينشأ ماكرًا مخادعًا. وللقوة البدنية وصحة الجسم, وفيض الحيوية والنشاط, والنظرات الشديدة القوية, أثر في تكوين الشخصية القوية.

وقد ثبت علميًا أن للغدد الصماء أثرًا في تكوين الشخصية, فإذا زاد إفراز "الأدرينالين", أصبح الشخص سريع التهيج والانفعال, بينما نشاط الغدة الدرقية يؤدي إلى القوة والشجاعة والاحتمال والنشاط.

والذكاء أو بلادة الذهن يحددان كثيرًا من الشخصية, فالأبله لا يستطيع أن يقدر الظروف حق قدرها, ويتصرف تصرفًا سيئًا مع الذين يحتك بهم, فيغضب الناس ويثير سخطهم عليه واحتقارهم له. بينما الذكي يتفوق على أقرانه, ولذلك يلبس رداء السيطرة.

وأول أثر يطبع شخصية المرء هو أثر البيت. فمعاملة الأبوين الطفل بالإرهاب والعقاب والضرب, أو بالسياسة واللين والرفق, وصلة الطفل بإخوته الأكبر أو الأصغر منه سنًا, وصلته بالخدم, كل ذلك يؤدي إلى تكييف شخصيته بطابع شديد يصحبه حتى الكبر. فالطفل الذي يخوف ويضرب يصبح جبانًا لئيمًا ماكرًا نزاعًا إلى الشر والانتقام, بينما الطفل الذي يعامل بالرفق يصبح لطيفًا حسن المعاملة بارًا شفيقًا.

فإذا دخل الطفل إلى المدرسة, فإنه يبدأ عهدًا جديدًا, ويدخل إلى عالم يختلف عن عالم البيت, من حيث صلته بأقرانه في الفصل وفي الفناء, ومن حيث صلته بالمدرسين وناظر المدرسة, وهو في كل ذلك يلاقي كثيرًا من المشاكل, إذ تجنح نفسه بطبيعتها إلى التفوق والظهور, ولكنه يجد أندادًا أكثر ذكاء وأرجع تفكيرًا وأقوى جدًا, فيتغلبون عليه, ويجد طلابًا أقل منه نشاطًا وأضعف علمًا, فيخضعون له, وبين هذه التيارات المختلفة التي تتقاذفه تتشكل شخصيته بصورة جديدة.

فإذا نزل الطالب إلى ميدان الحياة, وبدأ يعقد أواصر الألفة مع الأصدقاء, ويتصل بالناس في كسب المعاش, ويبحث عن زوجة تكون شريكته في الحياة, كل هذه الأحداث التي تضاف إلى العوامل السابقة تعمل على تكوين شخصيته ووضعها في قالب جديد.

وحدة الشخصية:

هذه العوامل المختلفة التي تشترك في تكوين الشخصية لا يضاف بعضها إلى بعض متجاورة بحيث يؤثر كل عامل منها على حدة, وإنما تشيع جميعًا وتصبح موحدة, أو كلًا لا يتجزأ, فتخرج منه شخصية المرء, ولذلك كان ما يعمله أحدنا اليوم هو هو ما يعمله في الغد. بل هذه الوحدة هي التي تسمح لنا أن نتعرف على الناس, ولولاها, لكان الشخص اليوم غيره غدًا, أو هو الآن غيره بعد لحظة. ولا تحتاج هذه الوحدة إلى تفسير, لأن الطبيعة الإنسانية تقتضيها, وقد سبق لنا في الكلام على المظاهر المختلفة من النفس, أن أي عمل يؤديه الإنسان, وأن أي نوع من السلوك يفعله, إنما يصدر عن الجوانب النفسية المختلفة التي حللنا إليها الظاهرة النفسية, وهي الإدراك أو المعرفة والوجدان والنزوع, فالإرادة تقوم على التفكير وعلى الميول المختلفة التي توجه صاحبها.

وهذه الوحدة تشيع كذلك مع الزمان, بحيث تكون شخصية المرء هي هي بعد عدة سنوات, وتسمى هذه الوحدة الزمانية باللغة الأجنبية **L'identik personnelle**. وإذا كان حقًا أن ظروف الهيئة تعدل من الشخصية, فإنها لا تغيرها

تمامًا, ولذلك كان الخلق ثابتًا في المرء إلى حد كبير. وهذا الثبات يرجع في الحقيقة إلى عدة عوامل, أساسها الذاكرة والعادة, اللتان تربطان اللحظات المختلفة من حياة الإنسان بعضها ببعض, وتخرج لنا هذه الوحدة المنسقة. فالعادة تجعل الإنسان يردد الأعمال كالآلة, وتطبع جهازه العصبي بطابع عميق لا يمحى, وهذا هو السر في أن الإنسان لا يستطيع أن يغير خطه في الكتابة, وإذا شاء أن يتعمد التزوير, فإن الصفات الأساسية لخطه تظل ثابتة, ولذلك يتيسر للخبراء في الخطوط أن يتبينوا الخط المزور من الصحيح. وشخصية المجرم من الثبات بحيث لا يستطيع أن يغير سلوكه حتى لو شاء ذلك, فالسارق الذي تعود السطو على المحلات التجارية وفتح الخزائن الحديدية, يمتاز بهذا النوع, ولا يستطيع أن يتركه إلى غيره من أنواع السرقات.

ومع ذلك فالشخصية تتغير مع السن, وهناك لحظات في حياة الإنسان تسوق له رداء جديدًا من الشخصية, وهذه اللحظات هي التي تكون الأدوار الأساسية في حياته. فدور المراهقة يفصل بين الطفولة والشباب, وليس الكهل في خلقه كما كان في أيام الشباب أو الطفولة, ولا يجب أن نفهم من ذلك أن الشباب يختلف كل الخلاف عن الطفولة, بل هو امتداد لها, كذلك لا ينشأ التغيير فجأة, وإنما يتدرج تدرجًا غير محسوس. وهناك أشخاص يسهل تأثرهم بالبيئة المحيطة بهم, حتى تطغى على ميولهم الفطرية, وبذلك تتغير شخصياتهم أكثر من الفريق الأول.

ثم إن كل إنسان يتخذ – إلى حد ما – عدة شخصيات تبعًا للظروف المختلفة التي تحيطه. فهو في المنزل مع أسرته, غيره مع الناس الذين يحتك بهم في محل عمله, غيره مع أصدقائه الذين يتسامر معهم, إذ يتكلف الجد في مكان العمل, ويتبسط ويتفكه مع أصدقائه.

ولا ترى هذه الوحدة من الخارج فقط, بل إن الشخص نفسه يميزها, فهو يعرف نفسه, أو يميز نفسه بقوله "أنا"(١) وحين يكون الإنسان شاعريًا بنفسه, فإنه يميز

---

(١) Le Moi.

شخصيته, فيحدث نفسه قائلًا إني ذاهب إني فرح, إني أفكر في المستقبل... إلخ, فهو يحيل هذه الأفعال المختلفة إلى ذاته, فهناك فاعل, وفعل يصدر عن هذا الفاعل هو "أنا" وكأن الإنسان يشعر بنفسه منفصلًا عن شخصيته ويتضح هذا الفارق حين يفعل الإنسان أمرًا لا يرتاح إليه, فيؤنب نفسه ويراجع عمله, وهذه هي النفس الأخلاقية. وهناك نفس اجتماعية, هي التي يتعامل بها صاحبها مع أفراد المجتمع, وهناك نفس جسمية يشعر بها حين يعامل جسمه من مأكل ومشرب وصحة ومرض.

انحلال الشخصية:

الأصل أن تكون الشخصية موحدة ثابتة لا يتغير صاحبها حين يسلك في الظروف المختلفة من الحياة, ولكن قد تنحل الشخصية, وتتعدد, وتذهب وحدتها المميزة لها, فيصبح الإنسان ذا شخصيتين مختلفتين كل الخلاف, ويعد هذا مرضًا من أمراض الشخصية, إذ ينسى في حالة كل ما يعرفه عن شخصيته في حالة أخرى, وقد ينسى اسمه وأسرته وأصدقاءه وعمله, ويتخذ اسمًا جديدًا, وأصدقاء مختلفين, وعملًا يغاير عمله الأول, ثم يعود بعد فترة طويلة أو قصيرة إلى شخصيته الأولى, دون أن يذكر شيئًا عن شخصيته الثانية. ويبدو لنا كأن هناك نفسين تحملان في جسد واحد على التتابع. والشخصية الثانوية لا تختفي أصلًا ثم تعود بل تنحدر إلى اللاشعور وتظل كامنة هناك, حتى تجد الفرصة الملائمة للظهور. وقد استطاع بعض العلماء بواسطة التنويم المغناطيسي أن ينقلوا المريض من إحدى الشخصيتين إلى الأخرى, وفي هذا دليل على وجود الشخصية الأخرى في اللاشعور.

رقصة الدكتور "جيكل" ومستر "هايد" توضح لنا الرجل ذا الشخصيتين وفي كثير من القصص نجد مثل ذلك.

ولا بد من سبب يحل الشخصية على هذا النحو, وهناك أسباب كثيرة, منها الانغماس الشديد في شرب الخمر, إذ يتصرف شاربها تصرفًا شاذًا, حتى إذا صحا وذهب عنه تأثير الخمر عاد إلى حالة الجد الأولى. ولا تنحل شخصية السكير إلا حين يتأثر جهازه العصبي ويصبح غير قادر على احتمال هذا التخدير.

كذلك للانفعالات الشديدة, والصدمات النفسية, أثر في انقسام الشخصية إذ تكون الصدمة حولها عقدة نفسية تكمن في اللاشعور, وقد يحين الظرف المناسب لظهورها إلى مستوى الشعور فتصبغ شخصية المرء بصبغة جديدة, لا تزول إلا حين تتراجع العقدة ثانية إلى اللاشعور. وتجد هذا واضحًا عند المرضى بالهستريا.

المراجع

١- في اللغة الفرنسية:

1- Nouveau Traité de Psychologie, Dumas, 5 volumes parus, Alcan.

2- Traité de Psychologie, Dumas, 2 volumes, Alcan.

3- Psychologie, Guillaume, Alcan.

4- Manuel de Philosophie, Psychologie, Cuvillier, Colin.

5- Leçons de Philosophie, Psychologie, Rey.

6- Cours de Philosophie, Psychologie, Roustan.

7- Cours de Philosophie, Thomas.

8- Psychologie expérimentale, Piéron, Colin.

9- Traité de Psychologie, Dwelchauvers, Payot.

10- La Formation des Habitudes, Guillaume, Flammarion.

11- La Psychologie de la Forme, Guillaume, Flammarion.

12- A. B. C. de Psychologie, Cuvillier, Delagrave.

٢- في اللغة الإنجليزية:

1- Psychology, A study of Mental Life, Woodworth.

2- Manual of Psychology, Stout,

3- Psychology, McDougall.

4- Social Psychology, Mc Dougall.

5- Mental Life, Edgell.

6- The Mind and its Application, Betts.

7- Talks on Psychology. William James.

8- Psychology and Morals, Hadfield.

٣- في اللغة العربية:

١- أصول علم النفس- جزءان- أمين مرسي قنديل.

٢- في علم النفس:

١- الجزء الأول- مظهر سعيد- عطية الإبراشي- حامد عبد القادر

٢- الجزء الثاني والثالث- عطية الأراشي- حامد عبد القادر

٣- بسائط علم النفس - أحمد عطية الله

٤- علم النفس النظري والتعليمي- مظهر سعيد

قاموس المصطلحات الهامة

وما يرادفها باللغة الفرنسية والانجليزية

(أ)

Automatique	**Automatic**	آلي
Automatisme	**Automatism**	آليه
lntuition	**Intuition**	اتصال مباشر [في منهج علم النفس]
Idiot	**Idiot**	أبله
Affirmation	**Affirmation**	إثبات
Excitation	**Excitation**	أثر [في الإحساس]
L'instinct grégaire	**Gregarious instinct**	اجتماع [غريزة]
Social	**Social**	اجتماعي
Respect	**Respect**	احترام [في العاطفة]
Phénomènes psychologiques	**Psychological phenomena.**	أحداث نفسية
Sensation	**Sensation**	إحساس
Sensation thermique	**Heat sensation**	الإحساس بالحرارة
Sensation musculaire	**Muscle sensation**	الإحساس العضلي
Test	**Test**	اختبار
Enquête personnelle	**Perconal enquiry**	اختبار شخصي [في منهج علم النفس]
Conception = Invention	**Creation = Invention**	اختراع [= إبداع]
Perception	**Perception**	إدراك حسي

Conception	**Conception**	إدراك كلي
Volonté	**Will**	إرادة
Volontaire	**Voluntary**	إرادي
Satisfaction	**Satisfaction.**	ارتياح
Eponse	**Response**	استجابة
Raisonnement	**Reasoning**	استدلال
Déduction	**Deduction**	استدلال قياسي
Rappel = Evocation	**Recall**	استرجاع [في الذاكرة]
Curiosite	**Curiosite**	استطلاع [غريزة]
Disposition innée	**Innate disposition**	استعداد فطري
Induction	**Induction**	استقراء
Oeste	**Oesture**	إشارة
Croyance	**Belief**	اعتقاد
Sublimation	**Sublimation**	إعلاء [في الغرائز]
Familiarite	**Familiarity**	ألفة
Douleur	**Pain**	ألم
Inspiration	**Inspiration**	إلهام
Fibres nerveuses	**Nerve fibres**	ألياف عصبية
Musculaire	**Muscle fibres**	ألياف عضلية
Maladies mentales	**Mental diseases**	أمراض نفسية
Le moi	**The ego**	الأنا

Egoisme	**Egoism**	الأنانية
Attention	**Attention**	انتباه
Transfert des sentiments	**Transfert of sentiments**	انتقال العواطف
Désagrégation de la Personnalite	**Disintegration of Personality**	انحلال الشخصية
Tissus Musculaires	**Muscle Tissues**	أنسجة عضلية
Emotion	**Emotion**	انفعال
Depression	**Depression**	انقباض
Soumission	**Soumission**	انقياد
Suggestion	**Suggestion**	إيحاء
Auto-suggestion	**Auto-suggestion**	إيحاء ذاتي
Contra-suggestion	**Contra-suggestion**	إيحاء عكسي

(ب)

Motif	**Motive**	باعث
Primitif	**Primitive**	بدائي
L'homme primitit	**Primitive man**	الإنسان البدائي
Vision	**Vision**	بصر
Visuel	**Visuel**	بصري
Milieu	**environment**	بيئة

(ت)

Synthese	**Synthesis**	تأليف [= تركيب]

Introspection	**Introspection**	تأمل باطني [في منهج علم النفس]
Justification	**Justification, rationalisation**	تبرير =[تسويغ]
Contiguité	**Contiguity**	تجاور [= تلازم]
Localisation	**Localisation**	تحديد [في الذاكرة]
Expérience	**Experience**	تجربة
Expérience passée	**Past experience**	تجربة سابقة
Expérimentation	**Experiment**	تجربة علمية
Expérimental	**Experimental**	تجريبي
Abstraction	**Abstraction**	تجريد
Partition	**Partition**	تجزئ
Analyse	**Analysis**	تحليل
Psychanalyse	**Psychoanalysis**	تحليل نفساني
Imagination	**Imagination**	تخيل
Association des idées	**Association of ideas**	تداعي المعاني [ترابط]
Exercice =Dressage	**Training**	تدريب
Hésitation	**Hesitation**	تردد [في الإرادة]
Recitation	**Recitation**	تسميع [في الذاكرة]
Ressemblance	**Similarity**	تشابه
Solution	**Solving**	تصرف [= حل]
Décision	**Decision**	تصميم [في الإرادة]
Contraste	**Contrast**	تضاد

Evolution	**Evolution**	تطور
Sympathie	**Sympathy**	تعاطف [المشاركة الوجدانية]
Fatigue	**Fatigue**	تعب
Fatigue Mentale	**Mental fatigue**	تعب عقلي
Reconnaissance	**Recognition**	تعرف [في الذاكرة]
Causation	**Causation**	تعليل
Acquisition	**Learning**	تعلم
Oénéralisation	**Generalisation**	تعميم
Explication	**Explanation**	تفسير
Pensée	**Thinking**	تفكير
Penste vagabonde	**Uncontrolled thinking**	تفكير ثقيل
Discipline	**Disciplined thinking**	تفكير منظم
Degollit	**Disgust**	تقزز
Traditions	**Traditions**	تقاليد
Imitation	**Imitation**	تقليد = محاكاة
Répétition	**Repetition**	تكرار
Formation	**Formation**	تكوين
Circonvolutions	**Circonvolutions**	تلافيف
Tatonnement	**Trial and error**	تلمس
Raisonnement par analogie	**Analogy**	تمثيل في المنطق

Vérification	Verification	تمحيص
Exécution	Execution	تنفيذ [في الإرادة]
Hypnotisme	Hypnotism	تنويم مغناطيسي
L'influx nerveux	Nervous current	تيار عصبي

(ج)

Loi de l'acquisition récente	Recency	الجدة [قانون تداعي المعاني]
Système parasympathique	Parasympathetic system	الجهاز البار اسميثاوى
- sympathique	Sympathetic system	الجهاز الميثاوي
Système nerveux	Nervous system	الجهاز العصبي
Systéme nerveux périphérique	peripheral nervous system	الجهاز العصبي الطرفي
Somnambulisme		
	Somnambulism	الجولان النومي

(ح)

Besoin	Need	حاجة
Sens	Sense	حاسة
Sens d'orientation	Orientation sensation	حاسة الاتجاه
Sensation ctnesthésique	Organic sensation	حاسة باطنة
- kinesthésique	Kinesthesic sensation	حاسة التوازن
Etat psychologique	Psychological state	حالة نفسية

Amour	**Love**	حب
Moelle épinière	**Spinal cord**	الحبل الشوكي
Moyen terme	**Middle term**	حد أوسط [في المنطق]
Mouvement	**Movement**	حركة
Moteur, motrice	**Motor**	حركي
Liberté	**Liberty**	حرية
Tristesse	**Sorrow**	حزن
Acquisition	**Learning**	الحفظ [في الذاكرة]
Judgment	**Jngement**	حكم
Reve	**Dream**	حلم
Reveries	**Day-dreamings**	أحلام اليقظة
La vie mentale, ou intelectu	**Mental life**	الحياة العقلية
La vie active	**Conative life**	الحياة النزوعية
La vie aflective	**Affective life**	الحياة الوجدانية

(خ)

Expérience	**Experience**	خبرة
Illusion	**Illusion**	خداع الحواس
Caractère	**Character**	خلق
Cellule nerveuse	**nerve cell**	الخلية العصبية
La peur	**Fear**	الخوف

	(د)	
Mobile	**Mobile**	دافع
Etoumement	**Astonishment**	دهشة
	(ذ)	
Mémoire	**Memory**	ذاكرة
Memoire motrice	**Motor memory**	ذاكرة حركية
Intelligence	**Intelligence**	ذكاء
Gout	**Taste**	ذوق
	(ر)	
Réaction	**Reaction**	رد [رد فعل]
Succion	**Sucking**	رضاعة [غريزة]
Terreur	**Terror**	رعب
Désir	**Desire**	رغبة
Symbole	**Symbol**	رمز
	(ز)	
		زوائد شجيريه
Dendrites	**Dendrites**	زائد محورية
Axon	**Axon**	
	(س)	
La conduit	**Behaviour**	السلوك

Behaviorisme	**Behaviourism**	مذهب السلوك
Behavioristes	**Behaviourists**	السلوكيون
La conduite innée	**Innate behavior**	السلوك الفطري
La conduite acquise	**Acquired behavior**	السلوك المكتسب
Supériorité	**Superiority,Self-assertion**	السيطرة [غريزة]

(ش)

Subjectif	**Subjective**	شخصي
La personnalité	**Personalily**	الشخصية
La conscience	**Consciousness**	الشعور
Doute	**Doubt**	شك
L'odorat	**Smelling**	الشم [حاسة]
Passion	**Passion**	شهوة
Intéret	**Interest**	شوق
Fréquence	**Frequency**	الشيوع [في تداعي ؟؟]

(ص)

Emotion-choc	**Shock**	صدمة نفسية
Qualité, Attribut	**Quality, Attribute**	صفة
image	**Image**	صورة
- Visuelle	**Visual image**	بصرية
- Motrice	**Motor**	حركية
- Auditive	**Auditive**	سمعية

- olfactive	**- Olfactory**	شمية
- tactile	**- Tactile**	لمسية
Image Composite	**Composite image**	صورة مركبة
	(ض)	
Le rire	**Laughter**	الضحك
	(ط)	
Méthode	**Method**	طريقة [منهج]
	(ظ)	
Phénomènes psycholo giques	**Psychological phenom ena**	ظواهر نفسية
	(ع)	
Habitude	**Habit**	عادة
Sentiment	**Sentiment**	عاطفة
Décision	**Decision**	العزم [في الإدارة]
Complexe psychologique	**Psychological complex**	عقدة نفسية
Raison	**Mind**	عقل
Rapport	**Relation**	علاقة [صلة]
Science	**Science**	علم
Biologie	**Biology**	علم الحياة
Psychologie	**Psychology**	علم النفس
	(غ)	
Bat	**Purpose**	غاية [غرض]

Instinct	**Instinct**	غريزة
La couleur	**Anger**	الغضب [أفعال]

(ف)

La joie	**Joy**	فرح
Hypothèse	**Hypothesis**	فرض [القرض العلمي]
Supposition	**Supposition**	قرض [افتراض]
Nature	**Nature**	فطره
lané	**Ionate**	فطري[= موهوب]
L'acte réflexe	**Reflex action**	الفعل المنعكس
Réflexe conditionné	**Conditioned reflex**	الفعل المنعكس الشرطي [المعدل]
Idée fixe	**Fixed idea**	فكرة ثابتة

(ق)

Loi	**Law**	قانون
- naturelle	**Natural**	طبيعي
Are réflexe	**law Reflex**	القوس المنعكس
Syllogisme	**arc Syllogism**	قياس [في النطق]

(ك)

Refoulement	**Repression**	الكبت
La Haine	**Hatred**	الكراهية
Combat	**Pugnacity**	الكفاح أو المقاتلة [غريزة]
Quantité	**Quantity**	الكم

Qualité	**Quality**	الكيف

(ل)

Le plaisir	**Plensure**	اللذة
Le jeu	**Play**	اللعب
Le langage	**Langange**	اللغة
Le toucher	**Touch**	اللمس [حاسة]

(م)

Extension	**Denotation, Extencion**	ما صدق [في المنطق]
Metaphysique	**Metaphysics**	ما وراء الطبيعة
Le courant de la con−science	**Stream of consciousness**	مجرى الشعور
Cervena	**Braia**	المخ
Cervelle	**Cerebellum**	المخيخ
Percept	**Percept**	مدرك حسي
Temps de reaction	**Reaction time**	مدة رد الفعل
Tempérament	**Temperament**	مزاج
Flegmatique	**Phlegmatic**	مزاج بلغمي
Sanguin	**Sanguine**	مزاج دموي
Melancolique	**Melancholic**	مزاج سوداوي
Colérique	**Choleric**	مزاج صفراوي
Chronographe	**Chronograph**	مسجل الزمن

Responsabilité	**Responsibility**	مسئولية
Problème	**Problem**	مشكلة
Connaissance	**Cognition**	معرفة
Idée	**Idea**	معنى
Concept	**Concept**	المعنى الكلي
Comprehension	**Comprehension**	مفهوم [في المنطق]
Observation extérieure	**Observation External Observation**	ملاحظة [= مشاهدة]
Stimalus	**Stimulus**	ظاهرة
Logique	**Logic**	منطق
Comparaison	**Comparison**	موازنة
Excitant	**Stimulus**	مؤثر
Objet	**Object**	موضوع
Objectif	**Objective**	موضوعي
lnnée	**Inherited**	موروث
Situation	**Situation**	مواقف

(ن)

La modle épinière	**Splant cord**	النخاع الشوكي
Action	**Conation**	نزوع
Caprice	**Captiot**	نزوة
L'Oubli	**Forgetting**	النسيان
Souffle	**Breath**	نفس

Ame	Soul	نفس
Psychologique	Psychological	نفساني
Psychologie des animaux	Animal Psychology	نفسية الحيوان
Psychologie des enfants	Child -	نفسية الأطفال
Répulsion	Repulsion	النفور
Négation	Negation	نفي
Critique	Criticism	النفد

(هـ)

Subconscience	Subconsciousness	هامش الشعور
La Fuite	Flight	هرب [غريزة]
Hallucination	Hallucination	هلوسة

(و)

Affection	Feeting, affection	الوجدان
Unité	Unity	وحدة
Identité personnelle	Integrated personality	وحدة الشخصية
Hérédité	Heredity	ورائه
Moyen	Means	وسيلة
Synapse	Synapse	الوصلة [في الجهاز العصبي]
Positif	Positive	وضعي
Conservation	Retention	الوعي

(لا)

L'inconscience	Unconsciousness	اللاشعور

الفهرس